تحفة العروس

النصائح الشرعية والقواعد الطبية للعلاقة الزوجية السعيدة

إعداد: سعد رستم - هيثم هلال

المكتبة الثقافية

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٢
ترخيص رقم : (٧١)

تحفة العروس

النصائح الشرعية والقواعد الطبية للعلاقة الزوجية السعيدة

تحفة العروس

النصائح الشرعية والقواعد الطبية للعلاقة الزوجية السعيدة

إعداد

هيثم هلال

سعد رستم

المكتبة الثقافية

المكتبة الثقافية
للنشر والطباعة والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1426 هـ - 2005م

ISBN: 9953-79-001-9

بيروت: البوشرية - شارع الفردوس - ص.ب. : 8737 (11)
هاتف : 689950 - 689951 - 689952 / فاكس: 689953 (009611)
E.mail: daraljil@inco.com.lb.
Website: www.daraljil.com
القاهرة: هاتف: 5865659 / فاكس: 5870852 (00202)
تونس: هاتف: 71922644 / فاكس: 71923634 (00216)

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

يعد الزواج بداية مرحلة جديدة في حياة الإنسان؛ لأنه يعني ارتباط شخصين اثنين في رباط واحد، وهو رباط الزوجية؛ يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21].

ولأن الزواج قد يشكل حالة من الرهبة والهيبة لدى العروسين وبالتالي يعد عائقاً في الولوج في هذا العالم الجديد، ـ لا سيّما فيما يتعلّق بالقضايا الجنسيّة والنفسيّة ـ كان هذا الكتاب الذي يبحث في الكيفية السليمة التي ينبغي أن تقوم عليها العلاقة الزوجية.

ولأن العلاقة الزوجية تقوم على اتصال جسدي وتواصل نفسي، فقد أولينا كلا الناحيتين عنايتنا في هذا الكتاب، منطلقين خلال ذلك كله من النصائح والإرشادات الدينية معضودة بالنصائح والإرشادات العلمية.

وإنّا لنرجو أن نكون قد حققنا الغاية من هذا الكتاب في تنشئة جيل له معرفة بالعلاقة الزوجية ـ الجنسية والنفسية ـ، حتى يكون عليه دخول هذا العالم سهلاً يسيراً لا رهبة فيه ولا ارتباك. والله المستعان.

القسم الأول

الزواج وأحكامه

النظام الاجتماعي في الإسلام

يرتبط النظام الاجتماعي في الإسلام بغيره من الأنظمة، سواء أكانت نظاماً اقتصادياً أم نظام حكم أم نظام عقوبات. وذلك لأن نظرة الإسلام إلى الأفراد إنما هي نظرة إنسانية محضة، ويراعى من خلالها أن يوضع الدستور والقانون، أي أن ينظر إلى الإنسان بوصفه إنساناً.

فالإنسان هو خليفة الله في الأرض بما استخلفه الله، وأوكل إليه حفظ أمانته فيها، والذكر كالأنثى مخاطبان بالتشريع لتنفيذ أحكام الله في أرضه، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: **«النساء شقائق الرجال»** فكلاهما له غرائز ينبغي أن يتم إشباعها على وجه صحيح، وكذلك هناك حاجات عضوية يجب قضاؤها أيضاً. وليس للإنسان إرادة أي: أن يمارس التشريع ويديره، فالسيادة هي للشرع كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام مجيباً قريشاً حين عرضت عليه أن تجعله سيداً: **«السيد الله»**، ومعنى هذا الجواب أن السيادة هي لله سبحانه بوصفه المشرِّع والحاكم على أفعال العباد، فإرادة الناس مسيرة وفق أوامر الله ونواهيه.

وأما الأمة فهي صاحبة السلطان، أي أنها تبايع الحاكم على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله.

والمسؤولية للراعي، ثم تكون للرجل والمرأة اللذين يكونان سيدي بيتيهما. وقد نظمت غرائز الإنسان بموجب أحكام الشريعة كلها دون أي خلل أو نقصان.

والعلاقة بين الأنظمة إنما هي بموجب إنسانية الإنسان كما ذكرنا، فلا يمكن تصور نظام اجتماعي دون أن يكون ثمة نظام للحكم يقوم على تطبيق الأحكام وتنفيذها، كما أنه لا يمكن أن تقوم علاقات فلسفية أو فكرية جامدة دون أن

يحكمها معاملات مالية بين الرجل والرجل والرجال والنساء، وهكذا فلا بد من النظام الاقتصادي الذي تتصل به مسائل المهر والنفقة والزكاة والبيع والشراء وكل ما يمس العلاقات التجارية، فالمرأة لا بد لها من مال يكون قواماً لعيشها وسنداً لها، فلذلك هي تكسب المال بطرق حددها الشرع وأجازها، فهي كالرجل يمكنها أن تبيع وتشتري وتمتلك ما شاءت مما أباح لها الشارع، كما أن لها حقاً فرضه الله هو المهر، ولها حق النفقة عليها ما دام العقد موجوداً بين الطرفين، ولها حق الرضاع وحق السكنى بشروط الطلاق المبينة شرعاً.

وهذا الجانب المذكور آنفاً يوضح لنا أن الأنظمة كلها مترابطة لأن النظرة هي إنسانية باعتبار الإنسان ولا شيء سواه. وهكذا فقد نظم الشرع العلاقات بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين ربه، وبينه وبين غيره.

وقد بيَّن الشرع طبيعة الإنسان وغرائزه، وجعله مكرماً بهذا العقل الذي له حدود، كما أن غرائزه لها تقييد بأوامر الله ونواهيه.

والأفكار التي لدى الإنسان يجب أن تكون أفكاراً صحيحة قاطعة في مجال الاعتقاد، وأفكاراً من كتاب الله وسنة رسوله في حكمه على الأفعال والأعمال.

وهذا للرجل والمرأة على حد سواء لا يختلف فيه الاثنان على الإطلاق، بل إن النصوص التي ذكرت المرأة أنها ناقصة عقل موضح فيها كيف يكون نقصان عقلها، فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام فيما روى عبد الله بن عمر عنه: **«يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار، لكثرة اللعن وكفر العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن»**، قالت: يا رسول الله، وما نقصان العقل والدين؟ قال: **«أما نقصان العقل والدين، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين»** رواه أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه.

وليس هذا القول من رسول الله عليه الصلاة والسلام من باب استنقاصٍ لحق جعله الله للمرأة، ولا تعيير لها به، بل هو من باب إقرار تشريع الشرع لما يترتب لها من حقوق في نفسها يجب عليها القيام بها.

وقد وردت روايات في الصحيحين حول طبيعة المرأة نذكرها ليستقيم فهم المعاني المترتبة عليها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضِلَعٍ، وإن أعوج ما في الضِّلَعِ أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء**». وفي رواية لمسلم: «**إن المرأة خلقت من ضِلَعٍ، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها**».

وفي رواية أخرى في الصحيحين: «**المرأة كالضِّلَعِ إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج**».

ونود إيضاح نقطة هامة في هذا الصدد، فالشرع لم يكن يطرح مسألة مساواة بين الرجل والمرأة كما يحاول بعض العصريين أن يفهموه تعسفاً للنص وقهراً، فالخطاب موجه إلى الرجل والمرأة، والكافر والمسلم، على حد سواء، من حيث كونه خطاباً، وأما من حيث تنفيذ هذا الخطاب فيختلف بالاسلام والكفر كما يختلف في حالة المرأة والرجل: فأما في الحالة الأولى فلا ينفذ من الأحكام على الكافر إذا كان يشترط فيه الإسلام، لذا فهو لا يلزم به ، كما أن الأمور المتعلقة بعقيدته تضمن له عدم تنفيذ عقاب في حقه لو أنه خالف حقاً يراه الإسلام كذلك، وتراه عقيدته غيره، كما في شرب الخمر إذ لا يحد النصراني على شربها لهذا السبب، وهي حرام على المسلمين.

ولكن سائر الحدود تقام عليه لغياب هذا التصور، وهذا سواء في الذكران والإناث.

وأما في حال المرأة تجاه الرجل فقد بيَّن الشارع أن للمرأة طبيعة مغايرة للرجل. وهذه الطبيعة تستدعي حلولاً للمشاكل، كما هي الحال في طبيعة الرجل. فالرجل لا ينجب ولا يعرض له عوارض الحيض مثلاً، فهذا لا يستدعي وضع علاج لهذا الرجل، بل العلاج للمرأة، إذاً يقر الشارع بأنه قد عالج مشاكل تمس المرأة كما عالج مشاكل تمس الرجل، وبالتالي لا يمكن تصور عملية مساواة في النصوص ألبتة، إذ لم يأت نص على ذكر أي مساواة بين الطرفين، وقد سبقت عبارة الرسول ﷺ: «**النساء شقائق الرجال**» والتي تعني: أنهن

مخاطبات كالرجل بالأصول والفروع، فلا فرق في توجيه الخطاب بين الذكر والأنثى، ويتكفل النص بإيضاح الحكم الخاص بكل منهما.

والنظام الاجتماعي في الإسلام مما تقدم مبني على أساس أن الطرفين الرجل والمرأة هما قوام هذا النظام، كما أن الأحكام الماسة بهذا النظام إنما هي مرتبطة بسائر النظم التي أتى بها الشرع، وهو ما سيتضح لنا جيداً في معالجة الشريعة لكافة الأمور في هذا النظام.

وهذا النظام قد حدد علاقات المرأة بالرجل تماماً على أساس أنهما بشر يخضعان للحقوق كافة التي أتى بها الشرع، كما أن النظرة إليها أمام القانون الإسلامي هي نظرة إنسانية محضة. والمجتمع في هذا كله إنما يكون الناس فيه من الذكور والإناث على حد سواء في الالتزام بالعقيدة، كما بالأحكام الشرعية، والعلاقات إنما مبناها ومعناها على ضوء الشريعة الإسلامية بالأنظمة التي جاءت بها هذه الشريعة.

وأيضاً الأصل في المرأة أنها أم، وربة منزل، وعِرْضٌ يجب أن يصان، فقد دلت الأحكام الشرعية بمجموعها على هذا الأصل. ومعنى الأصل أي الراجح.

وقد كرمت الشريعة المرأة بالكرامة العليا التي لم تبلغها امرأة في ظل أنظمة الأمم الأخرى، حتى إن النساء كن يملكن على الأزواج الشورى والمشورة، فالرسول عليه الصلاة والسلام قد استشار زوجه أم سلمة رضي الله عنها في عمرته حين لم يستمع إليه المسلمون، فأشارت إليه بأن يحلق رأسه ويسوق الهدي ملبياً، ففعل فانتبه المسلمون. ومن يقرأ بطون الكتب ير مقدار ما للمرأة من حظوة ومكانة عالية في ظل الإسلام.

التوافق في الحب والزواج[1]

التوافق في الحب أو في الزواج علاقة موائمة وتكيّف بين الخطيب وخطيبته، أو المحب ومحبوبته، أو الزوج وزوجته، فيستطيع أي من هؤلاء أن يستوفي حاجاته من الآخر ويشبعها، وأن ينهض على ما يطلبه منه الآخر، وأن يواجه الظروف التي تحيط بهما أو تُفرَض عليهما لصالح استمرار علاقة المحبة أو الزواج. وقد تجعله الرغبة في التوافق يعدِّل من سلوكه أحياناً، وقد تمتد محاولات التعديل إلى البيئة نفسها، فيقارب بين إمكاناته وظروف البيئة أو المحيطين به من الأهل والأصدقاء، فإذا نجح في ذلك فإننا نصفه بأنه إنسان متوافق.

والفشل في تحقيق ما سبق هو عدم التوافق، وقد يدفعه عدم التوافق إلى أن يقتل نفسه. وعدم التوافق هو الذي يُكرِه العشاق والمحبين على الانتحار.

وقد لا يفشل المحب ولكنه يحقق نجاحاً محدوداً، وتظل علاقته بمحبوبته أو بزوجته داخل إطار معين، فلا هي بالمقطوعة ولا هي بالموصولة، وعندئذ نقول إنها علاقة تتسم بسوء التوافق. وسوء التوافق في علاقات الأزواج والمحبين هو المسؤول عن الاضطرابات السلوكية التي تجرى بينهم وقد يصابون منه باضطرابات نفسية لا تجعل تصرفاتهم تبدو سوية.

والزوجان أو المحبان اللذان يعيشان في توافق نفسي، تجدهما في نعمة حقيقية وسعادة يحسها كل المحيطين بهم، فأولا تشعر الزوجة أو الحبيبة أنها تثق

---

(1) الموسوعة النفسية الجنسية: 187 ـ 189 .

في زوجها أو حبيبها، وأنها في كنفه في أمان، وبه أو بها يزيد إحساس كل منهم أنه صار أفضل مما كان، وأن احترام الناس قد زاد له، وأن تقديره لنفسه قد كبر، وكفاءته ارتفعت، وأنه قد صار محل اعتزاز ومحبة من الآخرين.

والتوافق في الحب أو الزواج لا يمكن أن يتأتَّى على أساس من المعرفة الخاطئة بالمجتمع أو بالنفس، فقد يحسب المحب أنه متوافق مع محبوبه وذلك بناء على معرفة خاطئة أو مغلوطة بالمحبوب.

وقد يترتب على ظن التوافق أن تستنفر الضغوط الواقعة على الطرفين من بعضهما دفاعات الأنا، فيتصدى الأنا لهذه الضغوط أو الشكوك أو الخلافات، باستجابات تحاول أن تستحدث التوافق أو تطيل أمده.

ومن ذلك إنكار المحب للواقع، أو تجاهل الزوج لما وصلت إليه حالة أسرته، أو إغفال الزوجة لإهمال زوجها لها، أو هرب الزوجة من المشاكل مع زوجها إلى عالم متخيل، وقد تدفن أحزانها وسوء توافقها في هواية من الماضي كالمطبخ، أو تنصرف تماماً إلى التحصيل الدراسي إلى أن تحصل على الدكتوراه مثلاً، وقد تهوى الثياب، أو قد ينكص أيهما إلى استجابات من الماضي كانت ناجحة يوماً فيكررها الآن مع أنها لا تصلح للمواقف الجديدة.

ومن ذلك ما نشاهده مثلاً من ترفُّع الزوجة على زوجها، وتصرفاتها معه بحيث تشعره أنه كان يوماً موظفاً صغيراً عند أبيها، برغم أنه الآن صاحب شركة مثلاً مرموق اجتماعياً. وقد يكبت الزوج رغباته ويلغي أفكاره دون أن يدري هرباً من الواقع.

ومن التوافق بين المحبين والأزواج أن يتعين الواحد منهما بأهداف الآخر ومعتقداته وتقاليده وأعرافه، ويقوم الحب والزواج الناجح على الفهم المتبادل والتفاهم المستمر وما من زوجة أو زوج يلجأ إلى الكذب أو أية حيلة غير سوية إلا لأنه يستشعر أن زواجه في خطر، ولكنه يستجيب بدفاعات غير سوية لأنه أخفق في التوافق مع ظروف زواجه. وليس الطلاق إلا وسيلة متطرفة ضد الإخفاق في التعويض عن التوافق في الزواج.

وقد يؤدي الإخفاق في التعويض عن التوافق في الحب أو في الزواج إلى المغالاة في التصرفات، حتى ليستحيل الشخص إلى عصبي. وكثيراً ما نردُّ سوء التصرف والعصبية الظاهرة في الزوجات أو الأزواج إلى تأثير سوء التوافق في الزواج أو الحب. وليس أظهر للسمات الخُلُقية للشخص، أو للتداعي النفسي بالاضطرابات النفسية الجسمية، من سوء التوافق في الحب والزواج.

فمثلاً قد يتأخر حمل الزوجة وتحت وطأة الكلام الكثير من أهل الزوج، وقد تأتيها أعراض الحمل الكاذب، أو تتداعى بأعراض تشبه الصَرَع، أو تنسى كثيراً.

وقد يؤدي سوء التوافق بالزوج إلى أن تتحول وسائله الدفاعية إلى دفاعات ذهانية، فيشك في زوجته وينسب إليها الخيانة. ومثل هذا الزوج يحاول بهذه الطريقة أن يكون له واقع متوهم يعوضه عن الواقع الأصلي، أو يدفع به عما قد تبقى له من تكامله النفسي. وهو عندما ينسب الخيانة لزوجته يدفع عن نفسه التقصير أو النقص، واعتقاده هذا يجعله يشعر أنه كفء، وقد يساعده ذلك أن يستشعر بعض التكامل.

وقد تكبت الزوجة ما بنفسها ولا تصرح به إلى أن تنهار تماماً وتدفع الثمن من صحتها النفسية.

والإخفاق في التعويض عن التوافق الذي يُمنَى به الأزواج والمحبون كثيراً قد يصيبهم منه الإنهاك النفسي، حتى أن الأنا قد ينفرط تماماً بسبب هذا الإنهاك النفسي، فيلجأ المحب إلى إطلاق الرصاص على حبيبته، أو قد تطلق الزوجة الرصاص على نفسها، أو ينتحر الزوج، أو يصاب أيهما بالذهول عمّا حوله وتكون بهذا الذهول نهاية حياته. وليست شكوى الكثير من الزوجات من حالات الإنهاك النفسي إلا بسبب التوترات المستمرة مع الزوج. والمريضة بالنهك العصبي تحس أنها واهنة وعاجزة عن بذل أقل الجهد، ويؤلمها ظهرها، ويجافيها النوم، وربما كان ذلك لشعورها بأن زوجها يخونها، أو أنه متزوج بأخرى، وانعدام الأمان يترتب عليه العيش في قلق مستمر.

ومن الاضطرابات التي يمكن أن تصيب الزوجة من جراء سوء التوافق ما يقال له ذهان ربة البيت، وهو حالة تتردى إليها بعض الزوجات نتيجة الفشل في الحب والزواج، فتبقي نفسها في البيت، وتظل تعمل فيه من بواكير الصباح حتى النوم دون كلل، وذلك ما يوصف بأنه إفراط في التعويض عن التوافق.

في الخطبة والزواج

الزواج من نعم الله على عباده[1]

قال الله تعالى في محكم التنزيل:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 41].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189].

فمن أجلِّ النعم بعد نعمة الإسلام التي لا تتم إلا به، ونعمة العقل السوي والعافية، نعمة الزواج. فهو السكن والسكينة، والحب والوداد، والوفاء والإخلاص. والحب والحنان، وسفينة النجاة في بحر لُجِّي، والواحة الظليلة يفر إليها من أرهقه تصحُّر الحياة وجدبها، والدوح الوارف يفيء إليه من كابد حرّ الحياة ولأواءها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ [الروم: 21].

فمن وفق إلى شق النفس الذي تنجذب إليه الروح، ويجد الشريك المعين على الفوز بمرضاة الإله وسعادة الدارين، فقد فاز بخير كنز وأنفسه، وهذا ما أخبر به عليه الصلاة والسلام: «**خير ما يكنز الرجل المرأة الصالحة**». وقال أيضاً: «**من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة**».

---

(1) تحفة العروس للاستانبولي: 29 .

فبالزواج تعف النفس عن الفواحش، وبه تزداد المعاني الإنسانية في القلب إشراقة وتألقاً، وبه يزداد الإنسان جرأة وإقداماً تحفزه المسؤولية، ويدفعه البحث عن حياة هانئة لأهل وده وشركته

فقد أجريت دراسة على عدد كبير من الرجال من مهن مختلفة وأعمار متباينة، تبين أن الرجال المتزوجين تزيد مداخيلهم عن العزاب، وبه يغدو المرء أكثر تفاؤلاً وقدرة على تحمل الأمراض والأوصاب، وبه تتسع دائرة التعارف والتآلف بين البشر... وبه تبشر الأمم التي عزفت عنه وأعرضت بالانقراض والزوال، وهذا ما يُتَنبَّأ به للشعوب الأوروبية التي آثرت الفاحشة على العفة، والزنا على الزواج.

ثم إنه مدعاة للمباهاة والتفاخر، قال عليه الصلاة والسلام: «**تناكحوا تكاثروا فإني مفاخر بكم الأمم يوم القيامة**». وبه يُهدى المرء إلى الغنى، قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 32].

ومما يروى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى .... فكم من مسلم لم يكن يملك عند زواجه شيئاً من المال فغدا بعد الزواج ذا مال كثير.

ومن هذا الموقع حث الإسلام على عدم المغالاة في المهور، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أعظم النكاح بركةً أيسرهُ مؤونة**»، وقال أيضاً: «**أعظم النساء بركة أحسنهن وجهاً وأقلهن مهراً**»... وبالزواج تظهر القدرات وتتكشف المواهب.

فكم من عظيم كانت وراءه امرأة عظيمة، تدفعه بعلو همتها لاعتلاء مدرجة المجد، تأسوه بحنانها وترفعه بكياستها وحكمتها، فتزيده رفعة إلى رفعته، ومكارمَ إلى مكارمه.

الزواج في الإسلام

الزواج في الإسلام عقد مبارك بين الرجل والمرأة، يحلّ به كلٌّ منهما للآخر، ويبدآن به رحلة الحياة الطويلة، متحابَّيْنِ متعاونَيْنِ متآلفَيْنِ متسامِحَيْن، يسكن كلٌّ منهما إلى الآخر، فيجد في صحبته السكينة والأنس والأمن والطمأنينة ولذّة العيش.

وقد صور القرآن الكريم هذه العلاقة الشرعية السامية بين الرجل والمرأة تصويراً رائقاً شفيفاً، يشيع فيه ندى المحبة والألفة والثقة والتفاهم والرحمة، ويفوح منه عبير الودّ والسعادة والبهجة والنعيم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:21].

إنها الصلة الربانية في أوثق وشائجها، يعقدها ربّ العزة بين نفسَي الزوجين المسلمين، فإذا هما يلتقيان على الحب والتفاهم والتعاون والتناصح، فيؤسسان الأسرة المسلمة التي تدرج فيها الطفولة، وتتفتّح أكمام العقول، وتصاغ النفوس على هدْي من مكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام الحنيف، فإذا الأسرة المسلمة لَبِنَة صُلبة في بناء المجتمع المسلم الراشد، وإذا أفرادها أعضاء منتجون بنّاؤون متعانون على البرّ والتقوى، متسابقون متنافسون في الصالحات من الأعمال.

والمرأة الصالحة عماد الأسرة المسلمة، وركنها الرّكين، وأساسها المتين، وهي متعة الحياة الأولى في حياة الرجل، بل هي خير متاع له في الحياة، كما قال الرسول الكريم: **«الدُّنْيا مَتاعٌ، وخيرُ متاع الدنيا المرأةُ الصالحةُ»**. أخرجه مسلم [10: 56].

إنها نعمة الله الكبرى على الرجل، إذ يسكن إليها من لأواء العيش ولغوب الكدح والنصب، فيجد عندها الراحة والسلوى والسكينة والمتاع الذي لا يدانيه في حياة الإنسان متاع.

حكم الزواج أن لا رهبانية في الإسلام

النِّكاح مندوبٌ إليه، لأنه سُنَّةٌ من سُنَنِ النبيِّ ﷺ لما رواه البُخَاريُّ ومُسْلِم عن أَنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءَ ثلاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيوتِ أزْواجِ النبي ﷺ يَسْأَلُون عن عبادتِهِ، فلما أُخْبِروا، كأَنّهم تَقَالُّوهَا ـ أي: وَجَدوها قليلةً ـ فقالوا: أينَ نحن منْ رسولِ الله ﷺ قد غَفَر الله له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبه وما تَأَخَّرَ، فقال أحَدُهم: أَمَّا أنا، فإنّي أُصلِّي الليلَ أَبَداً، وقال آخر: وأنا أَصومُ الدَّهرَ ولا أُفطُرُ، وقال آخر: وأنا أَعْتَزِلُ النِّساءَ فلا أَتَزَوَّجُ. فجاءَ رسولُ الله ﷺ إليهم فقال: «**أنتُمْ قُلْتُمْ كذَا كَذَا؟! أمَا والله، إني لأَخشاكم لله وأَتقاكُم لَهُ، ولكنِّي أنا أَصَلِّي وأَنامُ، وأصومُ وأُفْطر، وأَتَزَوَّجُ النساءَ، فَمَنْ رَغِب عن سُنَّتي فليس منِّي**».

ومعنى قوله ﷺ: «**فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتي**» أَيْ: فَمَنْ أَعْرَضَ عن طَريقتي، فَخَالَفَ ما أَفْعَلُهُ أَنا «**فليس منِّي**» أي: ليس من أهل الحَنيفيَّة السَّهْلَة، لأنه شَدَّد على نفسه بما لم يُؤْمَرْ به، وكلَّف نفسه مَشَقَّةً حَرَجاً.

وقيل في معنى قوله ﷺ هذا: المرادُ، من خالف هديه ﷺ وطريقته، وهو يرى أن ما أتى به من العبادة، أرجح مما كان عليه رسول الله ﷺ، فيكون معنى قوله ﷺ: «**فليس مني**» أي: ليس من أهل ملتي، لأن اعتقاد ذلك يؤدي إلى الكفر.

وحكم النكاح هذا هو لمن كان معتدل المزاج، لا يخاف الوقوع في الزنا إن هو لم يتزوج، وكان قادراً على أعباء الزواج ومسؤولياته.

أما من يخاف على نفسه الوقوع في الزنا، إن لم يتزوج، أو من كان لا يقدر على ترك الزنا إلا بالزواج، فإنه يجب عليه أن يتزوج . . . وهناك أحكام أخرى مفصلة في كتب الفقه، ليس هنا موضع بسطها.

الحض على الزواج(1)

قـال الله تـعـالـى: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء:4].

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187].

ويقول عليه الصلاةُ والسلام: «**إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف دينه، فليتق الله في النصف الباقي**». أخرجه البيهقي وإسناده حسن.

يصف القرآن العلاقة بين الرجل والمرأة في تعبير دقيق جميل حيث يقول: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ ففي هذه الكلمات القليلة تصوير بارع لعلاقة الجسد وعلاقة الروح في آن، فاللباس أهم شيء ببدن الإنسان، وهو الستر الذي يستتر به، وهو في الوقت ذاته مفصل على قدِّه لا ينقص ولا يزيد.

والرجل والمرأة ألصق شيء بعضهما لبعض، يلتقيان فإذا هما جسد واحد وروح واحدة، وفي لحظة يذوب كل منهما في الآخر، فلا تعرف لهما حدود، وهما أبداً يهفوان إلى هذا الاتصال الوثيق الذي يشبه اتحاد اللباس بلابسه.

ثم هما ستر، كل واحد للآخر. فهما من الناحية الجسدية ستر وصيانة وهما على الدوام ستر روحي ونفسي. فليس أحد أستر لأحد من الزوجين المتألفين، يحرص كل منهما على عرض الآخر وماله ونفسه وأسراره أن ينكشف منها شيء فتنبهه الأفواه والعيون. وهما كذلك وقاية تغني كلا منهما عن الفاحشة وأعمال السوء، كما يقي الثوب لابسه من أذى الهاجرة والزمهرير.

وهما بعد ذلك كاللباس في تفصيله مضبوطاً على القد؛ يلبسه صاحبه فيستريح إليه. يتحرك نشيطاً في محيطه، ويكسب به جمالاً وزينة تعجب صاحبها وتعجب الناظرين.

فليس أبدع من تصوير هذه المعاني كلها في تشبيه واحد شامل عميق.

---

(1) تحفة العروس للاستانبولي: 30 ـ 32 .

وإذا كانت العلاقة بين الرجل والمرأة وثيقة إلى هذا الحد، فقد وجب أن يلتقيا ليكون كل منهما لباساً لصاحبه، يزينه ويكمله، ويلتصق به للوقاية والستر [الإنسان بين المادية والإسلام ص249].

ففي الزواج ينفرد نصف مصير المسلم. مما يدعوه إلى الاهتمام بحسن اختيار الزوجة والبحث الدقيق والاستخارة الشرعية بعدهما، وذلك بصلاة ركعتين ثم قراءة الدعاء المأثور عن الرسول ﷺ فما حصل بعد ذلك فهو الخير.

وهذا هو دعاء الاستخارة كما رواه البخاري في صحيحه:

«اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري» ـ أو قال: «عاجل أمري وأجله ـ فاقدره لي (أي أقض لي به وهيئه) ويسره لي، ثم بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أن هذا شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري» ـ أو قال: «عاجل أمري وأجله ـ فاصرفه عني واصرفني عنه. واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به».

فبالزواج تمتد الحياة ويستمر التواصل والعطاء بين الجذور والفروع . . . بين الأجداد والأحفاد . . . بين قلوب زاخرة بالذكريات والأحداث . . . وقلوب كينابيع ثرَّة بالصفاء قد تفجرت في هضاب عذارى، فما أحلاها من حياة إذا ما امتدت الحياة بالإنسان، فيجد نفسه محاطاً بالذرية الطيبة التي لا تألو جهداً بالدعاء له، وببراعم تملأُ حياته شدواً وأصواتها هناء وسروراً، يجد ثماراً شهية هي حبات الفؤاد، فتمتد مساحة الأمل وينتشر شعاع السرور، قال عليه الصلاة والسلام: **«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**.

ولا يشعر بطعم النعمة إلا من فقدها، ولنقرأ شكاية «ماريو سانوتاسي» أحد الذين عاشوا في ظلال الحضارة الآيلة إلى السقوط، الحضارة التي تهدمت ركائزها الروحية، وطغت فيها المادة، وانتشر فيها جنود إبليس، يقول ماريو ـ وهو عامل تصميم في مطبعة في روما، وقد تقاعد منذ عدة سنوات ـ : ها أنا في الثالثة والسبعين من عمري، وجاهدت حتى ربيت أربعة أولاد ونشأتهم تنشئة

جيدة، أحدهم صحفي، والثاني فنان في مجال استعادة الآثار الفنية الدارسة، والثالث أخذ مكاني بالمطبعة، والرابع لا يزال في الجامعة، ولكن أحداً منهم لم يمنحني حفيداً، لم يمنحني أن أكون جداً، وهذا حق من حقوقي، فما دهانا اليوم؟

صرخة تغيب في واد سحيق فمن يجيب؟

لقد أسمعت لو ناديت حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادي

ولمزايا الزواج الذي لا يقف أحد على محاسنه التي لا تحصى حثّ عليه ربّ العباد، وجعله من سنن الأنبياء والصالحين من عباده، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21].

لماذا أتزوج؟(1)

العمل في الإسلام يثبت صلاحه وفساده بالنية قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**». بل إن النية تحوّل العمل المباح إلى عمل مستحب يؤجر عليه صاحبه.

فالمسلم لا يتزوج لأجل قضاء شهوات، أو لأجل إرضاء لذات، أو لأجل لعب ولهو. أو لأجل ضياع الأوقات، أو لأجل علو منزلة ورفعة القدر بالانتساب للوزراء والأمراء؛ وإنما يتزوج المؤمن لأجل أمور معينة كلها تخدم دينه:

أولها: الزواج يكون طاعة لله جلّ وعز وإقامة لشرعه، فإن الزواج في حق الشاب، وكذا الشابة إذا كان قادراً على مؤن النكاح، ذا شهوة فهو واجب، والمؤمن حريص على الائتمار بأمر الله والانتهاء عن نهيه.

(1) مفتاح السعادة الزوجية: 6 ـ 10 .

ويكفي في هذا الأمر قوله ﷺ: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»** الباءة: أي مؤن النكاح.

قلت: وقوله: **«فليتزوج»**: أمر، والأمر للوجوب ما لم تصرفه قرينة صارفة عن الوجوب، ولا قرينة.

ثانيها: الفوز بالحسنات والبعد عن السيئات فإن الزواج نصف الدين، وأحد أسباب زيادة الإيمان.

قال رسول الله ﷺ: **«من تزوج فقد استكمل نصف الإيمان، فليتق الله في النصف الباقي»**.

وأي ثواب أعظم من هذا الثواب الجزيل، فمن لم يظفر به فهو المحروم الخسران، وجدير بالطائع أن يسارع إلى هذا الثواب الكبير، وهذا المعنى الذي قصده الإسلام يصدقه الواقع، فإن المتزوج يكف نفسه عن النظر للأجنبيات، ولا تشغله الشهوة، ولا تقلقه اللذة، ويحفظ فرجه، ويصون عرضه، ويأمن على نفسه ـ غالباً ـ من الزنا.

ثالثها: العفة، ومن نكح بنية العفاف بلغه الله ما يريد، وأعانه على الزواج، ويسَّر له سبله وذلل له أسبابه، وفتح له أبوابه.

يقول رسول الله ﷺ: **«ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»**.

رابعها: الزواج من أجل إقامة أسرة مسلمة، وإعداد بيت مسلم يقوم على التقوى والإيمان والأخلاق والإحسان، وهذا من مقاصد الزواج العليا، وأهدافه المثلى، وما أحوج الأمة الإسلامية الآن إلى هذه النية الغائبة عن موضوعات الزواج، ويوم أن يوجد البيت المسلم، سيوجد الطفل المسلم وستوجد الأسرة وسيوجد المجتمع المثالي المسلم، وسيوجد الحاكم المسلم، والطبيب المسلم، والمهندس المسلم، والمدرس المسلم، والعالم المسلم، والداعية المسلم، والمربية المسلمة، والمؤمنة العالمة العاملة.

خامسها: الزواج من أجل الولد الصالح، كما قال تعالى على لسان نبي الله زكريا ـ عليه السلام ـ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: 38 ـ 39].

وقال الله تعالى على لسان زكريا ـ عليه السلام ـ أيضاً: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: 5 ـ 6].

فأجاب الله جل ثناؤه دعاءه لصدقه في طلبه ونداثه.

قال تعالى: ﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7].

واختار الله جلا وعلا له اسم الغلام: إنه «يحيى» أن لا يموت أبداً، وكيف هذا والبشر كلهم يموتون ولا باقي إلا الله؟.

والجواب أنه يتوفاه شهيداً، والشُهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

وتعجَّب زكريا ـ عليه السلام ـ كيف يرزق الولد وقد بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر؟ كيف يحدُث الولد مع حصول هذين المستحيلين؟ إلا أنَّ طلاقة القدرة الإلهية لا تقف دونها الحواجز، ولا تمنعها الحدود﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 8 ـ 9].

وعلى من مُنعَ الولد أن يدعو بدعاء نبي الله زكريا ـ عليه السلام ـ: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89].

ولكن مع إخلاص وبكاء، ولجوء ونداء، وطلب ورجاء وصلاح، والإخلاص والصدق أساس قبول الدُعاء، ويكفي مع الإيمان قليل الدعاء، كما يكفي مع الطعام قليل الملح.

دخل الأحنف بن قيس على معاوية رضي الله عنه ويزيد ابنه بين يديه، وهو ينظر إليه إعجاباً به، فقال: يا أبا بحر ما تقول في الولد؟ فعلم ما أراد فقال: يا أمير

المؤمنين هم عماد ظهورنا، وثمرة قلوبنا، وقُرة أعيُننا، بهم نصول على أعدائنا، وهم الخلف لمن بعدنا، فكن لهم أرضاً ذليلة وسماء ظليلة إن سألوك فأعطهم، وإن استعتبوك فأعتبهم، لا تمنعهم رفدك، فَيَمِلُّوا قُربك، ويكرهوا حياتك، ويستبطئوا وفاتك. فقال: لله دُرُّك يا أبا بحر هم كما وصفت.

وكان بعض الصالحين يتزوج ليُعطي المال لفقيرة، ومما يُروى في هذا أن شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمد الخضر حسين، فإنه لما كبر سنه وضَعُف عَظْمُهُ أراد أن يُعطي الجارية بعض المال، فرأى أن يتزوج بها، فإذا مات ـ وقد أحس بدنو أجله ـ نالت الجارية المال كحق.

وكان بعض الصالحين يتزوج ليعلم سيرة السابقين وعبادتهم. ومن هذا أن رجلاً تزوج زوجة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فسئل: كيف تتزوج زوجة عمر رضي الله عنه؟ قال: تزوجتها لأعلم ليل عمر.

الزواج من أجل إعفاف مسلمة قد تكون يتيمة أو فقيرة أو لا يرغب في مثلها.

الزواج من أجل كفالة الأيتام، ومساعدة المحتاجين، وحمل المعدومين، فإن من اليتامى من لا يسأل الناس إلحافاً، ولا يقبل العطايا والهدايا والصدقات.

الغَايَةُ من الزَّواج

إن الزواج عقد شريف مبارك، شرعه الله عز وجل لمصالح عباده ومنافعهم، ليظفروا منه بالمقاصد الحسنة، والغايات الشريفة.

وأهم مقاصد الزواج، اثنان هما: الذرية، والتعفف عن الحرام.

فعلى الراغب في الزواج أن يكون أول مقاصده منه إنجاب الولد، لتكون له ذرية صالحة، تعبد الله تعالى، وتدعو له من بعده، وتحفظ ذكره بين الناس، فقد جاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يأمرنا بالباءة ـ أي:

بالزواج ـ وينهى عن التبتل نهياً شديداً ويقول: «**تزوجوا الولود الودود، فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة**».

و«المرأة الولود» أي: كثيرة الولادة، و«الودود» هي: المحبوبة، بكثرة ما هي عليه من خصال الخير، وحسن الخلق، والتحبب إلى زوجها.

ثم أنه من أسنى سنن المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولا أدل على ذلك من فعله عليه الصلاة والسلام، ومن موقفه عليه ﷺ من الثلاثة الذين أرادوا النهوض بالنفس لترقى إلى ذرى العبادة والتوحيد، ولتبلغ الغاية التي بها عز الروح وسموها وهناؤها في يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، فقال عليه الصلاة والسلام عندما بلغه عزمهم على اعتزال النساء وقيام الليل وصوم النهار: «**أنتم الذين قلتم كذا كذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

وفي تشجيعه ﷺ للشباب: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**».

ويرسم المصطفى ﷺ النهج الذي ينبغي على المسلمين أن يسيروا عليه، عن عكاف بن وداعة الهلالي أن النبي ﷺ قال له: «**يا عكاف، ألك امرأة؟**» قال: لا. قال: «**فأنت إذن من إخوان الشياطين، إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم، وإن كنت منا فمن سنتنا النكاح**».

فالعزوف عن الزواج مصادم للفطرة، وحرب على شرع الله، وفتح باب كبير لولوج الشيطان وأعوانه، وحدوث خلل في تركيبة الإنسان، وما يهيىء لوقوع هزات في النفس البشرية، ومنزلق خطير نحو وهاد الجريمة وارتكاب الفاحشة، وزعزعة أسس بنيان المجتمع الإنساني، وظهور لقطاء لا تقف على أعدادهم أكبر إحصائية، ينشرون الجريمة والفساد، والجزاء من جنس العمل.

ومع مدّ المادة وطغيانها المنتن الآسن وكثرة أعباء الزواج وتكاليفه واتباع تقاليد شائهة ما أنزل الله بها من سلطان، تأخر سن الزواج، وبالتالي بدأت رحلة

المعاناة والانتظار البائس الحزين عند محطة الترقب والآمال. وكثيراً ما يفوت المرأة القطار، فتظل حبيسة مدينة العوانس، تشكو الوحدة القاتلة، والآلام الحبيسة، ومن يتابع قراءة المجلات والجرائد يقف على كثير من تلك الأنات والآهات.

الاختيار في الزواج[1]

اختيار شريك الحياة أكثر الاختيارات أهمية على الإطلاق، ومن استطاع أن يختار شريكه اختياراً سليماً استطاع أن يحقق خطوة هامة في سبيل سعادته المنشودة.

لذا كان من المنطقي أن يضع الإسلام ـ الحريص على سعادة الإنسان ـ منهجاً يتم وفقه اختيار شريك الحياة. وقد أثبتت التجارب والخبرات أنه على قدر قرب الاختيار أو بُعده عن هذا المنهج يكون مقدار النجاح أو الفشل في الحياة الزوجية.

وأسس هذا المنهج الاختياري عديدة ومتشعبة، وليس هذا موضع تفصيلها، ولكن أهم معالم هذا المنهج على وجه الإجمال تتمثل في ضرورة تعرّف كل من الطرفين على الآخر، وهذا التعرف لا يقتصر على معرفة التكوين الخَلْقي فحسب، بل يتعدى إلى محاولة تعرّف التكوين النفسي والروحي والفكري، حتى يتمكن الطرفان من معرفة ما إذا كان كل منهما يتوافق مع الآخر أم لا؟

فأهم معيار لتحقيق الانسجام والاستقرار هو التوافق في المبادىء والقيم، والاتجاهات والأفكار، والطبيعة والمزاج، والرغبات والميول، وفي النظر إلى الحياة بوجهٍ عام.

فمن مصلحة كلا الطرفين أن يرتبط بمن هو على شاكلته؛ لأن الحياة

---

(1) مفتاح السعادة الزوجية: 20 ـ 33 .

الزوجية تنال نصيبها من السعادة والهناء على قدر ما بين الزوجين من تكافؤ وتوافق واتساق.

ينبغي للزوج أن يختار من تكافئه ديانة ومالاً وحسباً ونسباً وجمالاً. وينبغي للزوجة أن ترضى لنفسها من يكافئها ديانة ومالاً وحسباً ونسباً وجمالاً. وهذا الأصل وضعه رسول الله ﷺ فقال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك**».

وفي نفس الوقت ينكح الرجل لأربع: لماله ولجماله ولحسبه ولدينه فاظفري يا مسلمة بذي الدين تربت يداك.

والإسلام وإن أقام قاعدة الزواج، وأساس الاختيار على الدين، فقد حبَّذ وجود الأربع: المال والجمال والحسب والدين، ولو قمنا بعمل معادلة فأعطينا المال صفراً والجمال صفراً والحسب صفراً، والدين واحداً كانت النتيجة ألفاً (1000)، فلو لم يوجد المال كانت النتيجة مائة (100)، ولو لم يوجد الجمال كانت النتيجة عشرة (10)، ولو لم يوجد الحسب كانت النتيجة واحداً، ولو وُجد الثلاثة «المال والجمال والحسب» ولم يوجد الدين كانت النتيجة لا شيء كما هو الغالب على العائلات الغنية والأسر السرية نسأل الله أن يُسلمنا.

لقد أصبح الواقع مُراً للغاية، والدليل على هذا أنك تجد حرص الشباب الشديد على تزوج الجميلات والفاتنات بل والراقصات، ومعلوم أن هذا اللون من النساء لا يعرف الدين إلا آخر شيء، فلا مانع أن تصادق هذا، ولا بأس من أن تصاحب ذاك، ولا حرج أن تغني هنا، ولا عيب أن تسهر هناك، ولا مؤاخذة أن تسافر الأيام الطوال بعيدة عن زوجها مع الأصدقاء والرفقاء بدعوى المدنية والتحرر والتقدم والتطور وعدم الانغلاق والرجعية والأصولية والسفلية ولا يعلم هؤلاء أنهم يغضبون رب البرية الجبار ـ تعالى ـ أولاً ويرضون أعداء الله ثانياً.

لا مانع في الإسلام أن يختار الشاب الفتاة الجميلة بل الفاتنة شريطة أن تحفظ نفسها بدينها، وأن تكون من صويحبات الحجاب أو النقاب إن كانت فاتنة أو خشيت الفتنة. أما أن ينطلق الجميع مهرولين إلى الشهوات مهطعين إلى

اللذات متغافلين عن أمر رب الأرض والسماوات فهذا هو الخزي والعار والشنار والدمار الذي يهدم البيوت.

ومن باب الوضوح والبيان أودُّ أن أشير إلى أن الأمور المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في الزوجة ليدوم الخير والمعاشرة بالمعروف ثمانية وأكثر:

1 ـ الدين.

2 ـ الخُلق.

3 ـ الجمال.

4 ـ الولادة.

5 ـ البكارة.

6 ـ النسب.

7 ـ أن تكون قرابة قريبة.

8 ـ التقارب في المستوى العلمي أو يزيد الزوج عن الزوجة، غير ذلك.

الأولى:

أن تكون صالحة ذات دين فهذا هو الأصل وبه ينبغي أن يقع الاعتناء؛ فإنها إن كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها أزرت بزوجها، وسودت بين الناس وجهه، وشوَّشت بالغيرة قلبه، وأفسدت أولاده، وتنغص بذلك عيشه، وازداد همه وغمه، فإن سلك سبيل الحمية والغيرة لم يزل في بلاء ومحنة، وإن سلك سبيل التساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه، ومنسوباً إلى قلة الحمية والأنفة، وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشد؛ إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها، ولا يصبر عليها، وإن كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشاً معه فإن سكت ولم ينكره كان شريكاً في المعصية مخالفاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم: 6]. وإن أنكر وخاصم تنغص العمر، ولهذا بالغ رسول الله ﷺ في التحريض على ذات الدين فقال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك**».

وقد ورد بسند ضعيف: «من تزوج امرأة لعزِّها لم يزده الله إلا ذُلاً، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره، ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها، وبارك لها فيه» وإنما بالغ في الحث على الدين لأن مثل هذه المرأة تكون عوناً على الدين، فأما إذا لم تكن متدينة كانت شاغلة عن الدين ومشوشة له.

الثانية:

حسن الخُلق، وذلك أصل مهم في طلب الراحة والهدوء والاستعانة على الدين، فإنها إذا كانت سليطة اللسان سيئة الخلق كافرة النعم كان الضرر منها أكثر من النفع، والصبر على لسان النساء مما يُمتحن به الأولياء.

قال بعض العرب: لا تنكحوا من النساء ستًا: لا أنَّانة، ولا منَّانة، ولا حنَّانة، ولا تنكحوا حدَّاقة، ولا برَّاقة، ولا شدَّاقة.

أما الأنَّانة: فهي التي تكثر الأنين والتشكي وتعصب رأسها كل ساعة، فنكاح الممراضة أو نكاح المتمارضة لا خير فيه.

والمنَّانة: التي تمن على زوجها فتقول: فعلت لأجلك كذا وكذا.

والحنَّانة: التي تحن إلى زوج آخر، أو ولدها من زوج آخر، وهذا أيضاً مما يجب اجتنابه.

والحدَّاقة: التي ترمي إلى كل شيء بحدقتها فتشتهيه وتكلف الزوج شراءه.

والبرَّاقة: تحتمل معنيين:

إحداهما: أن تكون طول النهار في تصقيل وجهها وتزيينه ليكون لوجهها بريق محصل الصنع.

والثاني: أن تغضب على الطعام.

والشدَّاقة: المتشدقة الكثيرة الكلام. ومنه قوله ﷺ: «... وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون». قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون».

وقيل: لا تنكح أربعاً: المختلعة، والمبارية، والعاهرة، والناشز.

فأما المختلعة: فهي التي تطلب الخُلع كل ساعة من غير سبب.

والمُبارية: المباهية بغيرها المفاخرة بأسباب الدنيا.

والعاهرة: الفاسقة التي تُعرف بخليل وخَدَن، وهي التي قال الله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: 25].

والناشز: التي تعلو على زوجها بالفعال والمقال، والنشز العالي من الأرض.

ولا تنكح كثيرة الغضب، ولا تنكح كثيرة الكلام، ولا تنكح الجريئة على الرجال والنساء التي تدخل على الرجال والنساء وحدها بدعوى الشجاعة الأدبية وقوة الشخصية، فإنها ستجلب عليك أحزاناً وهموماً وكروباً .

وكان علي رضي الله عنه يقول: شر خصال الرجال خير خصال النساء: البخل، والزهو، والجبن، فإن المرأة إذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها، وإذا كانت مزهوة استنكفت أن تكلم كل أحد بكلام ليِّن مريب، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء فلم تخرج من بيتها واتقت مواضع التُّهمة خيفة من زوجها. ولا يُفهم من هذا الكلام أن البخل والفخر والجُبن جائز في حق النساء، وإنما المقصود أنه أنفع للزوج في الجملة وإلا فإن المرأة مطالبة بأن تكون كريمة لا سيما مع والديه، وسيقارن غالباً بين سلوكها تجاه أرحامها، ومعاملتها لأقاربه. فينبغي عليها عند علمها بحضور أرحام زوجها أن تنظف البيت جيداً وأن تعد أشهى الطعام، وأحلى المأكولات. والزوجة سيئة الخُلق تفضح زوجها وتزيد الهم هماً، وتملأ البيت حزناً وكآبة وهماً وغماً وكرباً.

فهذا إبراهيم ـ عليه السلام ـ جاء ولده إسماعيل ـ عليه السلام ـ بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته، فقالت: خرج يبغي لنا ـ وفي رواية ـ يصيد لنا ـ ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٍّ، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك، أقرئي عليه السلام، وقولي له يغيِّر عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من

أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته أنا في جهد وشدة، وقال: فهل أوصاكِ بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيِّر عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلَّقها وتزوج منهم أخرى. فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بَعْدُ فلم يجده ، فدخل على امرأته، فسأل عنه، قالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم، وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله تعالى. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم، قالت: الماء. قال: الله مبارك لهم في طعامهم وشرابهم فإذا جاء زوجك، فاقرئي عليه السلام، ومريه يُثَبِّت عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاكِ بشيء؟ قالت: نعم يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تُثَبِّت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأنت العتبة أمَرني أن أمسكك .

انظر لإبراهيم ـ عليه السلام ـ فعندما تبين له سوء خُلق الزوجة الأولى أمر ولده إسماعيل ـ عليه السلام ـ بطلاقها. وعندما تبين له حُسن خُلق الزوجة الثانية أمره بإمساكها. وطاعة الأب العالم اللبيب في تطليق الزوجة أمر واجب عند بعض العلماء، فما بالك إذا كان الوالد رسولاً نبياً ؟!!!

أما إن كان الوالد فاسقاً فاجراً تاركاً للصلاة وأمر بطلاق الزوجة الصالحة فلا يسمع لكلامه وليس هذا من العقوق؛ لأن في تنفيذ أمره ظلمًا، فإن كانت الزوجة سيئة الخُلق فعلى الولد أن يطيع والده، ويحرم عليه أن يتأخر عن تنفيذ أمر والده. فحسن الخلق في الزوجة عامل من عوامل بقاء الحياة الأسرية، وسبب رئيسي في تيسير العسير وتفريج الكرب.

هذه أمك خديجة ـ رضي الله عنها ـ لما أخبرها ـ ﷺ ـ بأنه كان يتعبد في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ فقال: «ما أنا بقارئ» قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة

حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ .... حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾»، فرجع بها . . . وقال : «**قد خشيت على نفسي**». فقالت له: كلا، أبشر والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزى ـ وهو ابن عم خديجة أخي أبيها ـ وكان امرأ تنصر في الجاهلية،وكان يكتب الكتاب العبراني، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة بن نوفل: يا ابن أخي ماذا ترى؟ وأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى.

انظري أختاه كيف وقفت مع زوجها في وقت الشدة، وتأملي خطابها الجيد وهي تجيبه قائلة: يا ابن عم، إنه نداء القرابة مع الزوجية والمحبة ولا تقول: يا رجل ما دهاك، لعلَّ بك جنون، أو تذهب به إلى طبيب، أو لقد اعتراك مرض نفسي،أو ربما أنزل بك مكروه، ولكن كلمات الفَرَج وألفاظ الأدب تتلألأ من بين ثناياها «والله لا يخزيك الله أبداً» ثم استدلت بأخلاقه العالية، وآدابه السامية، ومواقفه الخالدة على صدقه وعلو درجته، وارتفاع منزلته. وحُسن الخُلق في الزواج واجب أيضاً، والمرأة إن أحست أو علمت بسوء خُلق الخاطب كأن يكون بخيلاً أو جباناً أو سليط اللسان، فإنه ينبغي لها أن ترفضه.

وأُذكِرك أختي بهذا الموقف مع رجل بخيل جميل وشيخ كبير كريم، فقد حكى ابن الجوزي في كتابه «الأذكياء»، أنَّ المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وفتى من العرب خطبا امرأة، وكان الفتى جميلاً، فأرسلت إليهما المرأة، فقالت: إنكما خطبتماني ولست أجيب أحداً منكما دون أن أراه وأسمع كلامه، فاحضرا إن شئتما. فحضرا، فأجلستهما بحيث تراهما، وتسمع كلامهما، فلما رأى المغيرة الفتى ونظر إلى جماله وشبابه وهيئته يئس منها، وعلم أنها لن تؤثره عليه فأقبل على الفتى، وقد فكَّر في مخرج، فقال له: لقد أوتيت جمالاً وحُسناً وبياناً، فهل عندك سوى ذلك؟!

قال: نعم. فعدد محاسنه ثم سكت، فقال له المغيرة: كيف حسابك؟ قال: ما يسقط عليَّ منه شيء، وإني لأستدرك منه أدق من الخردلة!. فقال له المغيرة: لكنني أصنع البدرة في زاوية البيت، فينفق أهلي على ما يريدون، فما أعلم بنفاذها، حتى يسألوني غيرها، فقالت المرأة في نفسها: والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إليَّ من هذا الذي يُحصي عليَّ مثل صغير الخردل. فتزوجت المغيرة رضي الله عنه. وهكذا اختارت الشيخ الكبير الكريم على الشاب الجميل الوسيم البخيل.

الثالثة:

الجمال، فذلك أيضاً مطلوب ومرغوب ومحبوب ومحرك للقلوب إذ به يحصل التحصن وقمة التعفف، والطبع لا يكتفي بالدميمة غالباً، كيف والغالب أن حُسن الخُلق والخَلْق لا يفترقان. وما مرَّ عليك من الحث على الدين، وأن المرأة لا تُنكح لجمالها ليس ذلك زاجراً عن رعاية الجمال، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين، فإنَّ الجمال وحده في غالب الأمر يرغب في النكاح ويهوِّن أمر الدين، ويدل على الالتفات لمعنى الجمال أن الألفة والمودة تحصل به غالباً، وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة. ولذلك استحب الشرع النظر إلى المخطوبة.

فعن المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة، فقال النبي ﷺ: **«انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»**. أي يؤلف بينهما من وقوع الأدمة على الأدمة وهي الجلدة الباطنة، والجلدة الظاهرة، وإنما ذُكر ذلك للمبالغة في الائتلاف.

وقال ﷺ: **«إن في أعين الأنصار شيئاً فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهن»**. قيل: كان في أعينهن عمش، وقيل: صِغر؛ وكان بعض الورعين لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور.

قال الأعمش: كلُّ تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم.

ومعلوم أنّ النظر لا يعرف الخُلُق والدين والمال، وإنما يعرف الجمال من القُبح.

وروي أنَّ رجلاً تزوج على عهد عمر ﷺ وكان قد خضب، فنصل خضابه، فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر ﷺ وقالوا: حسبناه شاباً، فأوجعه عمر ضرباً وقال: غررت بالقوم.

ورُوي أن بلالاً وصهيباً ﷺ أتيا أهل بيت من العرب، فخطبا إليهم، فقيل لهما: من أنتما؟ فقال بلال: أنا بلال، وهذا أخي صُهيب كنا ضالين فهدانا الله، وكنا مملوكين فأعتقنا الله، وكنا عائلين، فأغنانا الله فإن تزوجونا فالحمد لله وإن تردونا فسبحان الله، فقالوا: بل تزوجان والحمد لله. فقال صُهيب: لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله ﷺ فقال: اسكت فقد صدقت فأنكحك الصدق.

والغرور يقع في الجمال والخلق جميعاً فيُستحب إزالة الغرور في الجمال بالنظر، وفي الخلق بالوصف والاستيصاف، فينبغي أن يُقدّم ذلك على النكاح، ولا يستوصف في أخلاقها وجمالها إلا من هو بصير صادق خبير بالظاهر والباطن ولا يميل إليها فيُفرِّط في الثناء ولا يحسدها فيُقصِّر.

فالطباع مائلة في مبادىء الزواج ووصف الزوجات إلى الإفراط والتفريط، وقلَّ من يصدق فيه ويقتصد، بل الخداع والإغراء أغلب، والاحتياط فيه مهم لمن يخشى على نفسه التشوف إلى غير زوجته بل هو مهم جداً في هذه الأيام التي يُعرض فيها الفاتنات عرضاً أمام الصالح والطالح في الشارع والعمل والمنزل.

ولقد سمعت أن رجلاً نظر مرة إلى المذيعة في التلفاز فكره زوجته، فما بالكم لو رأى راقصة، أو مرَّ أمام دور السينما فرأى صور الفاتنات!!

والرجل في هذه الأيام أياً كان لون عمله لا يسلم من الكلام أو النظر أو الاختلاط بالنساء المتبرجات اللاتي لا هَمَّ لهن إلا الفتنة وإثارة الغرائز. فإن كانت يتيمة وجميلة أو فقيرة وجميلة فخير وبركة، وخير وفضل، وخير وثواب.

وقد كان بعض السابقين السالفين يفضلون الدميمة حتى لا تشغلهم الجميلة عن طاعة ربهم.

قال مالك بن دينار: يترك أحدكم أن يتزوج يتيمة فيؤجر فيها إن أطعمها وكساها، تكون خفيفة المؤنة ترضى باليسير، ويتزوج بنت فلان وفلان يعني أبناء الدنيا، فتشتهي عليه الشهوات، وتقول: اكسني كذا وكذا.

وقال أبو سليمان الداراني: الزهد في كل شيء حتى في المرأة، يتزوج الرجل العجوز إيثاراً للزهد في الدنيا، وكان بعض السلف يختار اللبيبة العاقلة على الجميلة وذلك لمنفعتها الأكثر في حقه، فهذا هو الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ اختار عوراء على أختها، وكانت أختها جميلة، فسأل: مَنْ أعقلهما؟ فقيل: العوراء، فقال: زوجني إياها.

فهذه حالات خاصة لا تناسب طولاً أو عرضاً مع فتن زماننا، وتبرج نسائنا المُثير. لذا فإن طالب الزواج في زماننا ينبغي في حقه الحرص على المتدينة الجميلة، فهذا مما يساعد على العفة والتحصن.

وقد قيل: إن كانت المرأة حسناء خيرة الأخلاق سوداء الحدقة والشعر، كبيرة العين، بيضاء اللون، مُحبة لزوجها، قاصرة الطرف عليه، فهي على صورة الحور العين، فإن الله تعالى ـ وصف نساء أهل الجنة بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: 70]. أراد بالخيرات حسنات الأخلاق، وفي قوله تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الصافات: 48]. وفي قوله تعالى: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: 37].

والعروب: هي العاشقة لزوجها المشتهية للوقاع، وبه تتم اللذة، والحور: البياض، والحوراء: شديدة بياض العين، شديدة سوادها في سواد الشعر والعيناء: الواسعة العين.

وقال ﷺ: «**خير نسائكم من إذا نظر إليها زوجها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله**». وإنما يُسَرُّ بالنظر إليها إذا كانت محبة للزوج.

الرابعة:

أن تكون الزوجة ولوداً قال ﷺ: «**تزوجوا الودود الولود فإني مُباه بكم الأمم يوم القيامة**».

فإن عُرفت بالعقم فليمتنع عن تزوجها، ورأى أن على الخاطب والمخطوبة

أن يذهبا بعد الخطبة أو قبل الموافقة على الخطبة إلى طبيب مختص صادق ثقة ليعلما هل هما من أهل الإنجاب أم لا؟ وإذا كان التقصير من أحدهما فلا بد للآخر أن يعلم عيب صاحبه حتى يتمم أو يرفض فإن من أسباب خراب البيوت وهدم الأُسر عدم الاهتمام بمسألة الولادة في البداية.

وما المانع أن تقوم الدول الإسلامية ببناء مستشفيات أو عيادات خاصة للزوجات والأزواج يكون عملها الأساسي البحث في التوافق الجنسي بين العروسين، والبحث في التوافق التناسلي بينهما فإنّ ضياع الأسر غالباً يكون من عدم التجانس في الجنس أو الإنجاب بين الزوجين، ولا يستحي أحد العروسين من هذا الأمر فإن عواقبه وخيمة.

الخامسة:

أن تكون بكراً قال صلوات الله وسلامه عليه لجابر ﷺ وقد تزوج ثيباً: «**هَلَّا بكراً تُلاعبها وتُلاعِبك**».

وفي البكارة ثلاث فوائد: إحداها: أن تحب الزوج وتألفه فيؤثر في معنى الود وقد قال ﷺ: «**تزوجوا الودود**» والطباع مجبولة على الأُنس بأول مألوف، وأما التي اختبرت الرجال، ومارست الأحوال فربما لا ترضى بعض الأوصاف.

خطبة الزواج

على أن الشرع قد سنّ للخاطب حين يتقدم لطلب يد فتاة ما أن يقوم بين يدي القوم، ويتكلم بكلام يعرض فيه حاجته.

وثمة خطبة للأسف مهملة لدى علمائنا تدعى خطبة الحاجة وهي استهلال ورد بنص صحيح عن الرسول ﷺ، وهي صالحة لحاجات المسلمين كافة، وهذا نصها: إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي

تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: 1]. وبعد هذا يذكر الخاطب حاجته مباشرة بموضوعها.

المصارحة والحذر من الخداع بالمظاهر(1)

الآيات:

﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ [المنافقون:4].

الأحاديث:

مر رجل على النبي ﷺ فقال: «**ما تقولون في هذا؟**».

قالوا: هذا حريٌ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يسمع، ثم سكت. فمر رجل من فقراء المسلمين فقال النبي: «**ما تقولون في هذا؟!**».

قالوا: هذا حريٌ إن خطب ألا ينكح. وان شفع ألا يشفع وإن قال ألا يستمع!.

فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا!**» أخرجه البخاري.

الأصل في حكم الشرع هو: تحريم نظر الأجنبي والأجنبية، فيجبُ غض البصر عن المحرمات، وعلى الرجال وعلى النساء على السواءِ، لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: 30 ـ 31].

أما نظر الخاطب إلى المخطوبة، وبالعكس، فهو جائز، بل هو مندوبٌ، ولكن بشرط أن يكون بنية «الخطبة»، والأحاديث في ذلك كثيرةٌ، ففي صحيح

---

(1) تحفة العروس للاستانبولي: 52 .

مسلم عن أبي هريرة ﷺ، أن النبيَّ ﷺ قال لرجل أراد أن يتزوج امرأة: **«أنظرت إليها؟»** قال: لا. قال: **«فأذهب فانظر إليها»**.

وروى أحمد، وأبو داود، والحاكم، عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذ خطب أحدكم المرأة ـ أي: إذا أراد أن يخطبها ـ فإن استطاع أن ينظر منها ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»**.

وينظر الخاطبُ من المخطوبة إلى الوجه والكفين فقط، عند جمهور العلماء، لأن الوجه يكفي للدلالة على الجمال، وتكفي اليدان للدلالة على خصوبة البدن، أما ما هو أبعد من ذلك، فبإمكان الخاطب أن يبعث أمه أو أخته لاستكشافه، مثل رائحة الفم ورائحة الإبطين والبدن، وجمال الشعر.

والأحسن أن ينظر الخاطب إلى المخطوبة قبل «الخطبة» فإن لم يرغب فيها أعرض عنها من غير إيذاءٍ.

ولا يشترط رضاها أو علمها بالنظر إليها، بل له أن ينظر إليها من دون علمها، وعلى غفلةٍ منها، وهو الأفضل، فقد روى الإمام أحمد والطبراني، عن أبي حُمَيْد السَّاعدي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **«إذا خطب أحدكم المرأة، فلا جناح عليه أن ينظر إليها، إذا كان إنما ينظر إليها لخطبته، وإن كانت لا تعلم»**.

وقد جَرَتْ عادةُ الناس، على أن يجتمع أهل «الخاطبين»، حيث يتمُّ إعلان «الخطبة». ثم يقرأون «الفاتحة» تَبَرُّكاً، وهذا أَمْرٌ حَسنٍ، ولكنْ: لا تعتبرُ قراءةُ «الفاتحة» عقداً للزواج.

أمَّا ما اعتاده كثيرٌ من المسلمين في الخِطبة، من الخَلْوَة بالمخطوبة، والسفر معا، والسهر معا، والذهاب والإياب معاً، فهو من سُموم التقاليد الغربية السيئة، التي غزت بلاد المسلمين، وحجة هؤلاء: أن كلا من الخاطبين، يقوم بدراسة أخلاق الآخر بتلك الطريقة، وبالتعرف عليه، ليكون الزواج سعيداً . . . وهذا توهم لا يستند إلى أساس من الصحة والواقع، لأن كلا الطرفين يتصنع أمام الآخر بما ليس فيه من الأخلاق الحسنة، ويظهر له خلاف ما هو عليه في

الواقع، فلا تظهر الحقائق إلا بعد «الزفاف»، حيث يزول التكلف والتصنع، وتنكشف حقيقة كلٍّ منهما للآخر، فيصاب كلٌّ منهما حينئذٍ بخيبة أملٍ شديدةٍ.

تيسير أمر الزواج

قال ﷺ: «**إن من يمن المرأة تيسير خطبتها، وتيسير رحمها**» أخرجه أحمد والنسائي.

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ! إني وهبت نفسي لك فنظر إليها الرسول ﷺ فصعّد النظر إليها وصوَّبه، ثم طأطأ فقامت طويلاً فقام رجل فقال: يا رسول الله. زوجنيها إن لم تكن لك فيها حاجة. فقال: «**هل عندك شيء تصدقها؟**» قال: ما عندي إلا إزاري هذا!

قال: «**فالتمس ولو خاتماً من حديد**»، فالتمس فلم يجد شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «**هل معك من القرآن شيءٌ؟**» قال: نعم سورة كذا وسورة كذا فقال: «**زوجتكها بما معك من القرآن**».

وفي رواية قال: «**انطلق فقد زوجتكها، فعلمها القرآن**». أخرجه البخاري.

وفي رواية أخرى طريفة بعدما طلب منه رسول الله ﷺ خاتماً من حديد ولم يجد، قال لرسول الله ﷺ ولكن هذا إزاري، فلها نصفه. فقال رسول الله ﷺ: «**ما تصنع بإزارك؟! إن لبسته لم يكن عليها وإن لبسته لم يكن عليك منه شيءٌ**» فجلس الرجل حتى طال مجلسه. ثم قام، فرآه رسول الله ﷺ مولياً، فأمر به، فدعي. فلما جاء قال: «**ما معك من القرآن؟**» قال: معي سورة كذا وسورة كذا .... الحديث رواه الخمسة.

عن أبي سلمَة قال: سألت عائشة: كم كان صداق النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قالت: كان صداقه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونَشّاً. قالت: أتدري ما النشء؟ قلت: لا، قالت: نصف أوقية، فقلت: خمسمئة درهم، رواه مسلم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما تزوج عليٌ فاطمة رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «أعطها شيئاً!» قال: ما عندي شيء!

قال: «أين درعُك الحطمية فأعطها إياه». أخرجه النسائي.

عن أنس قال: تزوَّج أبو طلحة أم سليم، فكان صداق ما بينهما الإسلام! أسلمت أم سليم قبل أبي طلحة، فخطبها. فقالت: إني أسلمت، فإن أسلمت نكحتك. فأسلم، فكان صداق ما بينهما. رواه النسائي.

عن عمر بن الخطاب قال: ألا لا تغالوا بصداق النساء! ! فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا وتقوى عند الله، لكان أولاكم بها نبي الله ﷺ !

ما علمت رسول الله ﷺ نكح شيئاً من نسائه ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من اثنتي عشرة أوقية. أخرجه الترمذي والنسائي

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: جهز رسول الله ﷺ خميلاً ووسادة حشوها إذخر ـ أي قش ـ.

وعن جابر رضي الله عنه قال: حضرنا عرس فاطمة. فما رأينا عرساً أحسن منه، حشونا الفراش ليفاً، وأتينا بتمر وزبيب فأكلنا، وكان فراشها ليلة عرسها إهاب (جلد) كبش.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب قال: حين تأيمت حفصة بن عمر، أتيت عثمان بن عفان رضي الله عنه فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري.

فلبث ليالي ثم لقيته، فعرضت ذلك عليه، فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج.

فلقيت أبا بكر فقلت له: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فصمت ولم يرجع إلي شيئاً، فكنت عليه أوجد مني على عثمان، فلبثت ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إليه. فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت عليَّ حين عرضت عليّ حفصة،فقال: نعم، فقال: إنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ إلا أني كنت عند رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لقبلتها. رواه البخاري والنسائي.

المغالاة في المهور

المهر حق للمرأة من حقوقها المشروعة المبينة لها في الشرع، ولا يحل لامرئ أن يأكل منه شيئاً ويجوز أن يفرض ولي المرأة على الخاطب شيئاً فوق المهر يأخذه لتحسين حاله كأن يجدد منزله للاحتفال بالزواج مثلاً.

ولكن هذا المبلغ المفروض فوق المهر، لا يجوز أن ينال الولي شيئاً من مهر المرأة كما هو الحال في بعض بلادنا، وهو ما يسمونه "المئكال"، فهذا غير جائز شرعاً، ويحرم إلا أن تسمح نفس المرأة ببعض المال.

والمهم هنا أن الناس دأبوا على التغالي في المهور، وهو أمر أعاق تقدم الشباب إلى الفتيات، إذ يفكر الشاب دائماً بتأمين طلبات أهل الفتاة، ويسعى جاهداً في ظل أوضاع تعيسة مشعرة بالخيبة إلى العمل الدؤوب والكدح بلا توقف لتلبية حاجة زواجه، وغالباً يطول به الزمان لنيل جزء من بغيته، فضلاً عن إدراكه لكامل ما يطلب منه.

وصحيح أن الشرع لم يحدد مقدار المهر كسائر القيم المالية التي ترك أمر تقديرها إلى ما تعارف عليه الناس في هذا الصدد، أي على ما يقدرونه فيما بينهم، وقد يقل وقد يكثر تبعاً لعوامل خاصة تحكم المجتمع، فقول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: 20] والقنطار من الذهب، فهذا يشير مجرد إشارة إلى إباحة الزيادة في المهر، وهو مجرد إباحة، والمباح يستوي فعله وتركه.

وقد استحوذت العادات العشائرية والحضرية في بعض البلاد على أهليها، بحيث أرهقوا الخاطب بالطلبات المملة والباهظة، مما جعله يحجم في غالب الأحيان عن طلب الزواج، وانصرف المثقفون إلى زواج غربي، أو محاولات العثور على فتاة خارج حدود منطقته وبلده، لتظل أسر كثيرات يضممن إليهن فتياتهن دون زواج مما شكل خطورة كبيرة على الأوضاع الاجتماعية والنفسية، بله الانفلات الذي وجد له منفذاً آخر عبر هذا الباب لدى الطرفين.

وعلى العكس من ذلك سرت في بعض البلاد عادات سيئة مخالفة للشرع، منها في هذا الباب الذي نحن فيه إلزام الخاطب أهل العروس بطلبات باهظة، مما يذكر ببعض المجتمعات غير الإسلامية التي تطلب بائنة من الزوجة يسعى أهلها لتأمينها لابنتهم منذ الصغر، وهذا هو مهر معكوس لا يجوز شرعاً.

فالزوج يلتزم بأساسيات هي المهر ثم يأتي جهاز المرأة.

وجهاز المرأة بمثابة الهدية التي لها ويدخل ضمنه الحلي، ومثل الحلي الهدايا التي يقدمها الزوج لعروسه قبل الدخول.

وهنا مسألة شرعية هامة تتصل بالهدية مفادها أن الهدية هي حق للمرأة كأي هدية تهدى بين طرفين، وقد قال الرسول ﷺ: **«العائد في هبته كمثل الكلب يقيء ثم يرجع في قيئه»** وهذا يدل دلالة واضحة على حرمة استرداد المرء لهديته، وكذلك الزوج.

وأما طلب الرسول ﷺ أن ترد هدية الرجل الذي يريد استرجاعها بسبب طلاق أو نحوه، فإنما إذا ألح الرجل على أهل زوجه أو عروسه، ولا يعني هذا إلا ابتعاداً عن الشر وإيثاراً للسلامة، دون أن يكون ذلك مخصصاً للحديث بإباحة هذا الفعل، بل الحرمة لازمة في ذمة الزوج فقط، وذمة الطرف الثاني بريئة من التشارك في هذا المحرم.

وإذا سمى الرجل شيئاً لنفسه أعطاه للمرأة كأن يجعل الهدية إذا كانت من الحلي مثلاً مشروطة بشرط، فتكون الهدية تابعة للشرط، وكذلك فالهدية لا تكون هدية للمرأة موهوبة لها فيما لو أعطاها الرجل إياها للانتفاع بها ذاكراً أنها له. وكل شيء يعطيه الرجل للمرأة قبل الدخول وبعده دون أن يسميه لها أو له، أي دون أن يذكر شيئاً عنه فهو للمرأة ما دام مما يكون للنساء، ولا ينطبق هذا على ما لا يخص النساء إلا إذا ذكر أنه هدية، وإلا فهو للرجل.

وعلى هذا فإذا سكت الرجل عن غرفة النوم وحواشيها كالصندوق الذي من جهازها بما فيه كما في الأرياف عندنا، فهو كله لها، وهذا في كل الأحوال. وواضح أن الجهاز قد يكون جزءاً من المهر لو ذكره الطرفان كذلك أثناء التعاقد.

وقد حدث في بلاد الشام خاصة في القرون المتأخرة أن الناس لجؤوا إلى تسهيل الأمور في المهر على الزوج، فافتعلوا معجلاً ومؤخراً للصداق، فمعجل الصداق يدفع في الحال للمرأة. وما تبقى يترك للزمن بحسب قدرة الزوج وإمكاناته في الدفع للمرأة بعد الزواج. وهذا الحق للزوجة لا يجوز التفريط به، ويجب دفعه في كل الأحوال ما لم تسامح الزوجة بقسط من المال أو بالمال كله.

أنسب الأعمار للزواج

تبيِّن الإحصاءات والاستبيانات أن أنسب الأعمار للزواج هو السن في العشرينات، إذ يكون الشاب أو الشابة قد نضجا انفعالياً، وتحصلا على قدر من التعليم المناسب، والمهارة في التعامل مع الناس، ومعرفة الذات، والاستقلال المادي على عكس الشباب دون العشرين، يحتاج التوافق في أي مجال، سواء في المجال الجنسي، أو بين الأصدقاء، أو حتى العملاء في التجارة، أو الزملاء في العمل، إلى وقت أطول. وهناك ارتباط لا شك فيه بين ارتفاع نسبة الطلاق حالياً وتدني أعمار الأزواج، وكلما قلّ السن عن العشرين زادت نسبة الطلاق حتى لتصبح في بعض المجتمعات طلاقاً واحداً من كل خمس حالات زواج.

من شروط النكاح

1 ـ لا نكاح إلا بولي:

وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير» رواه أحمد والترمذي.

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 32].

وقال ﷺ: «لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل».

«أيما أمرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل».

2 ـ لا تنكح البكر حتى تستأذن:

قال النبي ﷺ: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن»، قالوا: يا رسول الله! وكيف إذنها؟. قال: «أن تسكت». متفق عليه.

وعن خنساء بنت خذام: أن أباها زوَّجها بدون إذنها ـ وهي ثيِّب ـ فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها. رواه الجماعة إلا مسلم.

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أبي زوَّجني ابن أخيه، ليرفع به خسيسته، فجعل الأمر إليها فقالت: قد أجزت أبي، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للأباء من الأمر شيء! رواه ابن ماجه ورجاله رجال الصحيح.

«لاءات» الزواج

1 ـ لا للزواج العُرفي:

الزواج العُرفي له صور متعددة أشهرها: أن يتم العقد بين الزوجين بلا ولي، وغالباً ما يحدث هذا الزواج بين شباب الجامعات بأن يذهب الشاب والشابة إلى المأذون ومعهم الشهود ويوافق المأذون ويتم العقد. وهذا الزواج باطل من وجوه:

الأول: أنه لا يثبت به الولد.

الثاني: فَقْدُهُ الكفاءة غالباً بين العروسين، فقد يكون الزوج راسباً عاصياً فاجراً من عائلة فاسدة ويخدع شابة جميلة متفوقة صالحة ذات منبت طيب.

الثالث: من أهم ما يبطل الزواج العرفي هو أنه مبني على عدم وجود الولي وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن

وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل». وقال ﷺ: «**لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل**». وقال ﷺ: «**الزانية التي تنكح نفسها**».

ولنا أن نتساءل هنا: هل في الزواج العُرفي ميراث؟ هل في الزواج العُرفي ثبوت الولد؟ هل في الزواج العُرفي كفاءة بين الزوجين؟ هل في الزواج العُرفي ضمان حق المرأة في عدم تزوج الرجل بخمس نسوة فأكثر؟ هل في الزواج العُرفي ثبوت المهر والنفعة . . . . ؟

بالطبع لا، فهو إذن حرام بلا ريب وزنا بلا شك وظلم بلا جدال.

2 ـ لا للزواج الدموي:

وهو ما ظهر في هذه الأيام بين بعض الشباب والشابات.

وصورته أن يجرح الشاب إصبعه وتجرح الفتاة إصبعها، ثم يلصق كل واحد منهما إصبع صاحبه بإصبع الآخر حتى يندمل الجرح وينقطع الدم، وبهذا يتم العقد والدخول بلا ولي ولا شهود ولا مأذون ولا إعلان، ولا كفاءة ولا شروط.

ودليلهم على هذه السخافة والزنا أن دم الفتى والفتاة قد اجتمعا، وجرحهما قد التأم.

3 ـ لا للزواج الوهبي:

ومما ظهر في هذه العصور المتأخرة زواج الهبة. وصورته أن تذهب الفتاة إلى شاب تحبه وتقول: وهبت نفسي لك. فإن هذا خاص بالنبي ﷺ ولا يجوز في حق غيره. قال الله عز وجل: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [الأحزاب: 50]. ولا يصح هذا لأحد غيره ﷺ سواء أثناء الخطبة أو قبلها أو بعدها، فلا يخدعنك الشيطان أختي المسلمة.

4 ـ لا لزواج المسيار:

وهو أن يتفق الزوجان على الزواج شريطة أن يكون للزوجة أياماً محدودة كأن يكون للزوج أربع زوجات فلها يوم كل أربعة أيام، وإنما للزوج الحرية الكاملة أن يزورها متى شاء، كما له أن يجامعها ما شاء.

ومن صوره أن يتزوجها ولا يطأها مع حريته في الزيارة. وهذا الزواج يخالف القواعد العامة التي وضعها الإسلام لشؤون الأسرة.

أما صورته الأولى: وهي الزواج مع عدم مُكث الزوج مع الزوجة وحرية الإقامة معها بدون عُذر فقد أجازها بعض الفقهاء، ولا أراه يتناسب مع الغايات السامية من تشريع الزواج.

الغناء والأفراح

ورد في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبي الله ﷺ: **«يا عائشة أما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو»**.

واللهو يشمل الغناء كما يشمل المعازف. فليس بحرام أن يكون غناء في العرس وهو الغناء المعروف والمسموح به شرعاً وليس ما نسمعه ونراه في هذا العصر.

وقد ورد في روايات عن الرسول ﷺ أنه رخص بالغناء في العُرُسات كما روى الحاكم وأبو داود الطيالسي والبيهقي عن عامر بن سعد. وروى البيهقي أيضاً كما روى الحاكم والطبراني أنه سمع النبي ﷺ ناساً يغنون في عرس وهم يقولون:

وزوجك في النادي ويعلم ما في غد

فقال النبي ﷺ: **«لا يعلم ما في غد إلا الله سبحانه»**.

وإعلان النكاح هو من السنة، والوجه الوحيد المشهور والمتعارف عليه هو الغناء والسماع في الإعلان.

والغناء بحد ذاته هو بالألفاظ والعبارات، والسماع يكون بآلات اللهو والمعازف. ولم يصح شيء في تحريم المعازف.

وما رواه البخاري وغيره عن الرسول ﷺ أنه ذكر أقواماً يأتون من أمته يستحلون الحِرَ والخمر والمعازف، أو في روايات أخرى: وتضرب على رؤوسهم القيان بالمعازف، فهذا تحريم للحالة التي يتلبس بها الناس، أي حالة تلبسهم بالمنكر، فالقيان والمعازف إنما تكون في مجلس المنكر الذي فيه القصف وشرب الخمر، فالحالة كلها بجُزْئِيِّها وكُلِّيِّهَا حرام.

وأما ما روي عن الاستماع إلى قينة كقوله عليه الصلاة والسلام: «**من استمع إلى قينة صب الله في أذنه الآنك**» فهو ضعيف، وإن صح فإن القينة لها واقع في لسان العرب لا يدل على المغنية فقط بل على وضع له واقع عند العرب. فقد قال طرفة بن العبد البكري في معلقته:

نداماي بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين بُرْدٍ ومَجْسَدِ
رحيب قِطَابِ الجيب منها رفيقة بجس الندامى، بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ

فطرفة يصف حاله في خيمة ماخور فيها الفسق والفجور، فقد كان نصارى الحيرة يأتون إلى مواضع مخصوصة في البادية العربية، ويضربون خيمة لهم عليها علم فوق قبتها. بحيث يعلم الوارد والصادر أن هناك منزلَ خمرٍ وفجور. فالقينة هذه لا تغني فحسب بل ترقص وتتهتك وترتمي بنفسها على الرجال ليتحسسوا عريها وما تحت ثيابها، وهو ما أراده طرفة في البيت الثاني.

وبهذا يكون المراد هو عينه ما قصد في الأحاديث الدالة على استحلال الخمر والمعازف وتسمية الخمر بغير اسمها.

وأما ما يحتج به المحتجون من حيث رواه نافع «أن ابن عمر سمع صوت زمارة راع فوضع إصبعيه في أذنيه، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول: يا نافع، أتسمع؟ فأقول: نعم، فيمضي، حتى قلت: لا، فرفع يده، وعدل راحلته

إلى الطريق وقال: رأيت رسول الله ﷺ سمع زمارة فصنع مثل هذا» فهذا لا يعد إنكاراً على الراعي، بل هو سكوت عنه من الرسول ﷺ، وهو دليل على جواز الزمارة وجواز سماعها.

وأما سده لسمعه فيحتمل أنه تجنبه كما يتجنب كثيراً من المباحات، كما تجنب أن يبيت في بيته درهم أو دينار وكما تجنب أكل الضب على مائدته. فالسكوت ـ أي التقرير ـ من الرسول عليه الصلاة والسلام والذي يعد من السنة يشترط فيه ألا يكون قد سبق نهي عنه، وأن يعلمه الرسول ﷺ، بأن يفعل بين يديه أو يفعل في عصره ويعلمه، وأن يكون الرسول ﷺ قادراً على إنكاره.

والمراد بإنكاره هو زجر فاعله وليس عدم ميل الرسول ﷺ له، فقد أُكلَ الضب على مائدته ولم يأكل منه عليه الصلاة والسلام، ولما سئل قال: «**لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه**»، فكون الرسول ﷺ يعافه لا يعد من الإنكار، فعدم زجره من يأكله يعد سكوتاً عنه فكان دليلاً على الجواز. وكذلك هي الحال في مسألة الغناء، حيث لم ينكر عليه الصلاة والسلام على الراعي، ولم يقم بأي عمل يشعر بإزالة المنكر، ولم يزجر ابن عمر، كما أن ابن عمر بيَّن ذلك من عدم زجره لنافع معه، وقد كان يسمع نافع ويتحرز ابن عمر عن السماع.

وأما ما ورد في مسند الإمام أحمد رحمه الله عن قيس بن حَبْتَرَ قال: سألت ابن عباس عن الجر الأبيض والجر الأخضر والجر الأحمر؟ فقال: إن أول من سأل النبي ﷺ وفد عبد القيس، فقالوا: إنا نصيب من الثَّقَل، فأي الأسقية؟ فقال: «**لا تشربوا في الدباء والمزفت والنقير والختم، واشربوا في الأسقية**»، ثم قال: «**إن الله حرم علي، أو حرم الخمر والميسر والكُوبَة، وكل مسكر حرام حرام**»، قال سفيان: قلت لعلي بن بذيمة: ما الكُوبَة؟ قال: الطبل. وعلي بن بذيمة هذا كان رأساً في التشيع، فلذلك رد بعض العلماء حديثه. وعلى أية حال قال الخطابي في رواية أبي داود مفسراً: الكوبة يفسر بالطبل، ويقال: هو النرد.

ويدخل في معناه كل وتر ومزهر في نحو ذلك من الملاهي والغناء. وليس هناك ما يدعو إلى ترجيح تفسير الكوبة بالطبل في النص نفسه إلا ما فسره علي بن بذيمة. والذي هو أشبه بسياق النص أن يفسر بالنرد لأن كلمة الميسر قبله قرينة

على احتمال هذا المعنى أقوى، فالميسر يدخل فيه اللعب بالقمار، ولا يدخل فيه ما هو غير ذلك من صنوف اللعب، والنرد هو من الصنوف التي يتبادر إلى الذهن أنها حلال داخلة ضمن عموم اللعب الحلال، وعندما ذكرت في التحريم استثني هذا مما يتبادر إلى الذهن ويخطر فيه أنه لعب حلال، وبخاصة أن النرد جاءت فيه نصوص تنفرد بتحريمه وحده دون قرنه بغيره من الألعاب.

وإدخال الخطابي لكل وتر ومزهر فيه بُعْدٌ عن واقع اللغة على فرض أن المراد هو الطبل، فلا تدل اللغة ولا تفيد نصوص العرب أن الكوبة بمعنى الطبل يفهم منها عموم لآلات لهو أخرى.

وسائر الروايات في الكوبة التي تقترن بآلات عزف أخرى عن علي ﷺ غير صحيحة.

وأما الألفاظ فهي مقيدة في الغناء بعدم إثارة الكوامن، ولا يجوز بأي حال أن يتغزل المرء غزلاً فاحشاً متهتكاً في الألفاظ، وقد أورد البخاري أن الرسول ﷺ قد علم عائشة في زفة العروس إلى زوجها كيف تغني، إذا حَضَّها على شعر تغنيه هي:

أتيناكم أتيناكم ... فحيانا وحياكم
ولولا الحبة السمرا ... ء لم نَحْلُلْ بواديكم

فمثل هذا اللفظ هو الذي يباح في الأعراس وغيرها.

وأما ألفاظ الغزل الماجن أو ما فيه خروج عن الشرع فهذا ما لا يباح بأي حال من الأحوال ذكره لا بغناء ولا بغير غناء.

ونود أن نطرح هنا تساؤلاً محل خلاف عصري بين المشايخ عندنا، هو حول صوت المرأة أهو عورة أم لا؟ ولا يوجد نص في الأصل يدل على حرمة سماع صوت المرأة، لا بالإشارة ولا بالعبارة.

فلا يجوز أن ندعي حرمة صوت المرأة، كما أن غناء المرأة من حيث كونه غناء لا حرج عليه، وإن عائشة ﷺ كانت تزف نساء إلى أزواجهن وهي تغني، وزفة العروس في واقع اللغة وفي واقع الأمم إنما يكون فيها رجال يشيعون

المرأة من الأقارب حين تهدى إلى زوجها، ولا شك أن هناك من استمع من الرجال إلى صوت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها من الرجال. ولكن هذا مما يجعل الأصل إباحة صوت المرأة وعدم كونه عورة، وأما فتح المجال بتصورات سخيفة يحدث فيها هذا الاجتماع المنكر بين الرجال والنساء في النوادي فهذا ما لا يكون في الدين أصلاً، فضلاً عن الاستماع إلى صوت امرأة تغني.

ونحن هنا نود أن نضع الأمور في نصابها الصحيح، فلو أن رجلاً استمع إلى صوت امرأة تغني فهذا غير محرم، ولكن المحرم هو تعمد الاختلاط والتلبس بما لا يرضاه الله ولا رسوله، فأولى بنا أن يبتعد المسلمون عن كل ما فيه إثارة الشهوات والتحريض على المنكر.

وبدقيق العبارة: لا يجوز الغناء في العرس المختلط للنساء، بل لا يجوز هذا الجمع بين الطرفين، كما هو الحال في المدن أو في بعض القرى كالدبكة التي يتكاتف فيها الذكور والإناث في حلقة للرقص، فهو غير جائز شرعاً.

وزفة العروس هي جائزة لا غبار عليها من حيث إن واقعها يقتضي توديع المرأة والإتيان بها إلى مخدع الزوجية مع زوجها، وقد بات هذا يتم في المدن بالسيارات شيوعاً. وسيكون لنا تفصيل لبحث الاختلاط إن شاء الله في موضعه من هذا الكتاب.

وليمة العرس

تسن الوليمة في الزواج، فقد ورد في الحديث أن الرسول ﷺ: رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة فقال: **«ما هذا؟»** فقال: تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب، فقال: **«بارك الله لك، أولم ولو بشاة»**. وقال بريدة بن الحصيب: لما خطب علي فاطمة رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: **«لا بد للعرْسِ من وليمة»** والعرس، بكسر أوله: هو العروس، وقد ورد في رواية أخرى بلفظ **«العروس»**. وهذا هو تشريع للوليمة.

إجابة الدعوة:

وأما إجابة الدعوة فواجبة عند أكثر الفقهاء كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ [الأحزاب: 53]، وفي قول رسول الله ﷺ: «إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب، فإن كان مفطراً فليطعم وإن كان صائماً فليدع» والعبارة الأخيرة تشير إلى أن هناك قصداً من الوليمة، هو الاجتماع لا الطعام.

وقد صنع الرسول ﷺ حين بنى بصفية بنت حيي حيساً في نطع صغير، والحيس إنما هو طعام متوفر آنذاك يتخذ من التمر والأقط والسمن، وربما جعل عوض الأقط الدقيق والفتيت، أي لا يشترط اللحم لأن الأقط هو شيء يتخذ من المخيض الغنمي كان العرب يجعلونه في طعامهم، وهو من واقع ما يتيسر لهم دون أن يتكلفوا عناء الذبائح الضخمة الفخمة، لأنه لا يتمكن كلٌّ من أن يذبح.

والرسول ﷺ إمامنا نقتدي به في كل أفعالنا، فهو لم يتكلف اللحم ولا الطبخ الفاخر الفخم كما يفعل أهل عصرنا الذين يجرون على أنفسهم المبالغ الضخمة الباهظة، ويقيدون على بعضهم أن يذبحوا الذبائح ويتسابقوا إلى الاستعراضات التي لم يأذن بها شرع من كتاب ولا سنة، لا لشيء إلا للمفاخرة والتباهي اللذين يحبطان أعمال المسارعة في الخيرات.

طعام الوليمة:

ويشترط في طعام الوليمة أن يناله الفقراء والمستحقون لا أن يحكر على دعوة فئة من الأغنياء وذوي الوجاهات والنفوذ والثراء، فقد قال الرسول ﷺ: «**شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويمنعها الفقراء**» وفي رواية أخرى عن أبي هريرة: «**شر الطعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويترك المساكين، ومن لم يأت الدعوة فقد عصى الله ورسوله**» وقد ورد في رواية: «**لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي**».

وقد أوضحت سنة الرسول ﷺ كيفية الدعوة إلى الوليمة بما صنع رسول الله عليه الصلاة والسلام حين بنى بصفية رضي الله عنها، فقد روى أنس أن أم سليم جهزت له صفية، فأهدتها له من الليل، فأصبح النبي عروسا فقال: «**من كان عنده شيء فليجئ به**» وفي رواية أخرى: «**من كان عنده فضل زاد فليأتنا به**». وقد قال أنس:

«وبسط نطعاً، فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالسمن، وجعل الرجل يجيء بالتمر، فحاسوا حيساً فجعلوا يأكلون من ذلك الحيس، ويشربون من حياض جَنْبَهُم من ماء السماء، فكانت وليمة رسول الله ﷺ». وفي رواية تحدثت عن وليمة علي بن أبي طالب حين أمره بها الرسول ﷺ أنه قد جمع له رهط من الأنصار أصوعاً من ذرة، وكذلك قدم له في وليمته أناس من الأغنياء كبشاً. وهذا يوضح أن الأغنياء يسن لهم أن يسعفوا أخاهم المسلم في وليمة زواجه.

الدعاء للعروسين:

وأما في ألفاظ الدعاء للعروسين فقد جاءت السنة بعبارات يلتزم بها، وذلك كأن يقال: بارك الله فيك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير. وهناك أدعية تشمل الطعام والرزق، وهي مشهورة متداولة بين الناس في الولائم كأن يقال: اللهم اغفر لهم، وارحمهم وبارك لهم فيما رزقتهم. أو أن يقال: أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون، أو اللهم أطعم من أطعمني، واسق من سقاني، أو بألفاظ تشمل هذا وتتضمن الدعاء للعروسين ولأهل العروسين مما فيه خير الدنيا والآخرة.

ولا يجوز في هذا كله أن يدعو بالرفاء والبنين، وهو دعاء من أدعية عرب الجاهلية التي نهى عنها الرسول ﷺ كما في سنن ابن ماجه عن الحسن بن عقيل بن أبي طالب أنه تزوج امرأة فدخل عليه القوم فقالوا: بالرفاء والبنين، فقال: لا تفعلوا ذلك، فإن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك.

والرفاء في اللغة: الالتحام والاتفاق، والمراد به في هذا الدعاء: تزوجت زواجاً يحصل به الالتحام والاتفاق بينكما، والمفهوم من البنين الذكور منهم لكرههم ـ أي عرب الجاهلية ـ للبنات وقد روي عن الحسن البصري أن رجلاً جاء إليه، وعنده رجل قد ولد له غلام فقال له: يَهْنِئُكَ الفارس، فقال له الحسن: وما يدريك فارس هو أم حمار؟ قال: كيف تقول؟ قال: قل: بورك لك في الموهوب، وشكرت الواهب، بلغ أَشُدَّهُ، ورُزِقْتَ به. وهذا كله كراهة في عادات التهنئة الجاهلية.

آداب وليمة العرس:

ولا يجوز حضور الوليمة إذا كان فيها منكر، كأن يكون في الوليمة آنية الذهب والفضة، أو أن يكون الاتكاء قد أعد على فرش ونمارق ووسائد من الحرير (الطبيعي).

وهذا كله يدخل تحت حكم عدم مجالسة المتلبسين بالمنكر، فإذا كان الشخص في حالة منكر فلا يجوز مجالسته بالاتفاق، وأما إذا عرف عنه هذا الإتيان للمنكر، فإنه يجوز أن يجالس في حالة عدم التلبس بالمنكر، فلا يحل أن يجلس على مائدة عليها خمر، ولا على الحرير، ولا أكل في صحف الذهب والفضة. هذا بالنسبة إلى المسلمين.

وأما غير المسلمين فيتجنب أثناء مجالستهم ألا يشارك في منكرهم، ويبتعد مثلاً عن الأكل بالصحاف المذهبة، والابتعاد هنا له حكمه في مواضعه المختلفة، فلو قدر أن ثمة فوائد عديدة، فلو كان أشخاص على مائدة أو طاولة وآخرون على طاولة أخرى، فهذا هو ابتعاد، فتكون المشاركة في الجلوس إلى مائدة واحدة أو طاولة واحدة، ويكون الابتعاد في الانزواء إلى طاولة منفردة خاصة.

آداب الزفاف

ثمة آداب فرعية شرعية ليلة الزفاف، فحين دخول الزوج بامرأته لا بد من أن يكون هناك التزام بركعتي صلاة لله سبحانه وتعالى، فقد أوصى عبد الله بن مسعود رجلاً في هذه الحال قائلاً: «إذا أتتك فأمرها أن تصلي وراءك ركعتين، وقل: اللهم، بارك لي في أهلي وبارك لهم في، اللهم اجمع بيننا ما جمعت بخير، وفرق بيننا إذا فرقت بخير».

وهذا الوضع فيه استئناس شرعي باللجوء إلى الله سبحانه، ومن ثم هو أساس في فهم الحياة ومرتكز للقصد الذي ندب الله سبحانه البشر إلى تحقيقه بالزواج .

وقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إذا تزوج أحدكم امرأة فليأخذ بناصيتها ويسم الله عز وجل، وليدع بالبركة وليقل: اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه**» والناصية: هي مقدم الرأس.

وأما بالنسبة إلى ما يفعله الرجل مع امرأته في ليلة الزفاف فهو من الناحية النفسية مقدمة لحياته كلها، فعلى الرجل أن يتصرف التصرف السليم.

وأن يقوم بالمباسطة والاستئناس بكل لطف وتؤدة وأناة، فالمرأة من طبعها أن تخجل وتستحيي، والرجل مهما كان وضعه فهو كذلك في داخله حياء وخجل، وينبغي أن يتدارك الإنسان الوضع بشكل سليم.

فالعادات تقضي بأن يكون ثمة إعداد وتهيئة لحالة المرأة، بزينة وخضاب وكحل وما شاكل ذلك من أدوات الزينة التي يهتم لها جنس النساء، وكذلك يجري إعداد الرجل على أتم ما يكون وأنظف.

وقد اقتضت الأوضاع في بلادنا منذ القديم أن توضع المرأة في منزل الزوجية أولاً كي تستأنس ويزول عنها الوضع الذي هي فيه، وذلك لفترة وجيزة، ويكون معها أقرب الناس إليها أمها أو أختها، وحين يدخل الزوج تقوم أمها أو أختها وربما غيرهما إن لم يكن ثمة أم أو أخت، بما يسمى جلوة العروس، حيث تظهر المرأة المكلفة بهذا محاسن العروس لزوجها كالخضاب ومواضع الزينة. وهذا أمر مهم جداً.

وقد ذكرت أسماء بنت يزيد بن السكن عن يوم جلوة عائشة رضي الله عنها قائلة: قَيَّنْتُ عائشة لرسول الله ﷺ ثم جئته فدعوته لجلوتها، فجاء إلى جنبها فَأُتِيَ بعُسٍّ لبن فشرب، ثم ناولها النبي ﷺ، فخفضت رأسها واستحيت. قالت أسماء: فانتهرتها وقلت لها: خذي من يد النبي ﷺ، قالت: فأخذت فشربت شيئاً ثم قال لها: «**أعطي تِرْبَكِ....**» ومعنى قَيَّنْتُ: أي زَيَّنتُ العروس لزوجها كي تجلى له. والترب: الصاحب المقارب في السن.

والزوج والزوجة حين يختليان في هذه الليلة إنما يباح لهما كل شيء في النظر واللمس، فليس شيء بمحرم على النظر إذ لم يصح شيء في منع النظر إلى

متاع المرأة، فقد روت عائشة رضي الله عنها: «كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء بيني وبينه واحد، تختلف أيدينا فيه فيبادرني حتى أقول: دع لي، دع لي». وهذا صريح في إباحة تعري الطرفين أمام بعضيهما.

ولكن هناك عوارض نفسية قد تمنع من تحقق الانجذاب، ومن تحقيق عوامل اللذة التي توصل الطرفين إلى الغرض الأولي الذي هو الافتضاض، فهذه المسألة هامة ودقيقة يجب أن يراعى فيها الحرص الزائد.

فثمة حكم عملية توارثها الناس منذ القديم في مجتمعاتنا فيما بينهم، يذكرها الآباء للأبناء حتى عهد قريب، بيد أن الحال أصبحت متغيرة في عصرنا بحيث اصطنع حجاب بين الأب وابنه صفيق، وأدت عوامل إلى ابتعاد الآباء عن النصائح في هذا الصدد، وهذا خطأ فادح. فالأب يجب أن يُفهِمَ ابنه المسألة كما هي تماماً دون مواربة ولا خجل كما على الأم أن تفعل هذا لابنتها.

ونحب هنا أن نلفت النظر إلى بعض العوارض التي تؤثر دون إطالة، فمن الأمور القوية التي تحرض الزوج هي نوع من الممانعة لدى المرأة والدلال، ولا يجوز الاستعصاء وإلا أفضى إلى ندوب في نفس الزوج ربما طالت وغرزت في أعماقه النفور بعلم أو بغير علم.

وكذلك فإن الرجل يخلع ثيابه بتروٍّ وأناة مماشياً لخلع المرأة لثوبها، وإذا وصلت المرأة إلى ثيابها الداخلية فإن خلعها للرجل لا للمرأة، وحين يكون الحال هكذا تحدث مقدمات ومداعبات، من الكلام إذا كان الرجل مفوهاً ومن القبل التي هي رسل الحب والمودة.

وإن الحديث الأدبي هو طبيعة ثقافتنا وعمدتها وقوامها، وما أكثر الشعر الغزلي الذي له علقةٌ بالقلب ولصوق! وما أمتن أسباب الكلام التي تؤنس وتفكه بين المتحابّين! وما أعقل الشعراء في تعظيم المرأة في ظل الإسلام، فلم يكن أدبنا ليسف عموماً غاية الإسفاف كما في أدب الغرب.

وقد كان الناس يحثون أبناءهم على حفظ الأدب ليكون شاحذاً لهممهم

مهذباً لطباعهم، وحتى الأعرابي في الصحراء يعلم آداب الحديث مع المرأة ويحفظ مواثيقها.

ونحن نهيب بشبابنا وشاباتنا أن يتعاهدوا حفظ الأدب الرفيع، والحكمة العليا ليصقلوا نفوسهم وليبعدوا عن البهيمية والحيوانية المفرطة في الشهوة، وليكون لهم فيه تربية على القصد والاعتدال.

وأخيراً لا بد هنا من أن نشير إلى آداب أخرى في الجماع حين يغشى الرجل زوجته، فقد ورد في الحديث الصحيح أن يقول الرجل عند هذا: «**اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رُزقنا**» وهذا كما يبين الرسول ﷺ: «**فإن قضى الله بينهما ولداً لم يضره الشيطان أبداً**».

آداب الجماع

وغشيان المرأة كما أشرنا يستلزم أن يأتيها الرجل في حالة تأهب أي أن تكون على غير غفلة، وأن يغشاها بأناة. فقد نُهي عن الغفلة في هذا.

وكذلك لا يتعجل الرجل انقضاء شهوته ثم يبارح، فهذا معيب في النفوس وطباعها مدعاة للوسواس والخواطر.

وينبغي للمرأة أن تحترز من إظهار قبائح جسدها أمام الرجل ما أمكنها إلى ذلك سبيل.

وحين يلم الرجل بالمرأة أكثر من مرة فالأدب المرعي هنا أن يعمد إلى الوضوء إذا أراد أن يهجع هجعة ثم يعاود إتيانها، كما كان يفعل رسول الله ﷺ. وقد بيَّن الرسول عليه الصلاة والسلام أن هذا أنشط للرجل.

وربما يكون المعتاد إتيان المرأة قرب الفجر فهو أفضل وأمتع الأوقات، وحسن أن يكون هذا في الليل بعد انتصافه.

والمهم أن يكون هناك راحة في الجسم والعقل حين الجماع. ويحرص على عدم الاستكثار من الجماع لأنه مضرة على الجسم خفية، وخير الأمور أوساطها.

وقد بيَّن الرسول ﷺ أن المداعبة مرضية بين الزوجين، فلذلك روى جابر قائلاً: كنا مع النبي ﷺ في غزوة، فلما رجعنا وكنا قريباً من المدينة قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بعرس. قال: «**أتزوجت؟**» قلت: نعم، قال: «**أبكر أم ثيِّب؟**» قلت: بل ثيِّب، قال: «**فهلا بكراً تلاعبها**».

والبكر في الحقيقة لذتها في أمرين، أحدهما: أنها لم تمس قبل هذا.

والآخر: أن فيها سورة ونشاطاً أكثر من الثيِّب، وإقبالاً على زوجها في مقتبل الحياة الزوجية.

وقد ورد قديماً: «عليكم بالأبكار، فإنهن أعذب أفواهاً، وأنتق أرحاماً، وأسخن أقبالاً، وأقل خِبًا، وأرضى باليسير من النفقة».

ومعنى أنتق أرحاماً: أي أنهن كثيرات الولادة، وأما الأقبال: فجمع قُبُل، وهو الفرج. والخِبُّ: الخداع.

غشاء البكارة

وننوه هنا إلى أن ثمة خطأ في مجتمعنا فاضحاً حول عملية افتضاض البكارة. وفي البيئة الريفية تسبب هذه العملية خوفاً كبيراً وصدمة نفسية تتناقلها الأمهات للبنات. فالواجب على الرجل في هذه البيئات أن يحرص ليلة الزفاف على فض غشاء البكارة أولا دون تمهيد أو انتظار، بل إن المثقفين النابهين لا يجرؤون أمام هذه التقاليد العشائرية إلا على الرضوخ والإذعان لها، وفي ليلة العرس يتم الانتظار المفجع من العمومة والأهل كي يروا علامة افتضاض بمنديل دم عذرة الفتاة.

وهذا الوضع شائن يجب التخلص منه فهو يسبب ضغوطات ودمامل لا تبرأ على مر الزمان.

فالفتاة تفزع فزعاً شديداً فتصاب بتشنجات أعصابها، مما يستعصي على

الرجل أن يقترب منها أو أن يستمتع بها، وهذا يسهم إلى درجة عالية في خفض الشهوة وقمع انتشار الذكر، والمسألة برمتها كارثة مؤلمة.

والنصيحة التي يمكن توجيهها في هذا الباب كما أشرنا سابقاً هي محاولة إزالة الوحشة بين الطرفين بالغزل وذكر الكلام اللطيف، وأجود شيء في هذا الباب اللجوء إلى التذكير الشرعي والأحاديث المفيدة في هذا الباب، والمزاحة، والإكثار من المس واللمس والتقرب والتبعيد رويداً رويداً.

والمهم أن هذا فن يحتاج إلى حنكة ومهارة من الطرفين، فالمرأة يمكن إثارتها وتهييجها بالملح والنوادر الخفيفة، والحديث الغزلي الطريف المتحف العذب .

وننصح بقراءة كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي فهو حسن ومفيد للطرفين. وأما إذا كان الوضع ناجماً عن ضعف لدى الرجل جنسي فهذا الوضع له حالتان، إما ناجمة عن عامل نفسي يجب البحث عن أسبابه، وإما أن يكون ناجماً عن عامل جسدي ينبغي فيه استشارة طبيب.

وغالب الحالات إنما هي بسبب من إحباطات نفسية لدى الرجل تجاه المرأة، وهذا يحتاج إلى زمن وعلاج نفسي يقيمه الطرفان.

ومن أعجب الحوادث ما جرى في إحدى القرى حولنا حيث عانى الرجل من مشكلة انتصاب عضوه، فظلت المرأة تعالج هذا الرجل علاجاً لم يدركه المقربون إلا بعد سنين طويلة، فقد كانت تغتسل وإياه يومياً عند عتبة الباب، وتؤانسه وتلاطفه على أحسن ما يعلمه العالمونَ، حتى تم لها ما أرادت واستعاد الرجل قدرته، وأولاده اليوم قد زوجوا أولادهم.

وكان هذا الوضع مضرب مثل لجبروت المرأة الذكية التي لم تفضح سر زوجها في محيط سيِّئ كان سيفضحه ويزيد الطين بلة بالهزء والسخرية، في ظل مراقبة شديدة.

حديث أم زرع

ونحب هنا أن نذكر حديث الرسول ﷺ كما فسرته عائشة رضي الله عنها حين قال لها: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع»، فقد روى مسلم في صحيحه عن عروة عن عائشة أنها قالت: جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً.

قالت الأولى: زوجي لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل.

قالت الثانية: زوجي لا أبث خبره، إني أخاف ألا أذره، إن أذكره أذكر عجره وبجره.

قالت الثالثة: زوجي العشنق، إن أنطق أطلق، وإن سكت أعلق.

قالت الرابعة: زوجي كليل تهامة، لا حر ولا قر، ولا مخافة ولا سآمة.

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد، ولا يسأل عما عهد.

قالت السادسة: زوجي إن أكل لف، وإن شرب اشتف، وإن اضجع التف، ولا يولج الكف ليعلم البث.

قالت السابعة: زوجي غياياء أو عياياء طباقاء، كل داء له داء، شجك أو فلك أو جمع كلاً لك.

قالت الثامنة: زوجي الريح ريح زرنب، والمس مس أرنب.

قالت التاسعة: زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد.

قالت العاشرة: زوجي مالك وما مالك، مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك.

قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع، فما أبو زرع؟ أناسَ من حلي أذني، وملأ من شحم عضدي، وبَجَّحني فبَجَحَتْ إليَّ نفسي، ووجدني في أهل غنيمة بشق فجعلني في أهل صهيل وأطيط ودائس ومُنَقٍّ، فعنده أقول فلا أقبح، وأرقد فأتصبح، وأشرب فأتقنح.

أم أبي زرع، فما أم أبي زرع؟ عكومها رداح، وبيتها فساح.

ابن أبي زرع، فما ابن أبي زرع؟ مضجعه كمَسَلِّ شَطْبَة، ويشبعه ذراع الجَفْرَةِ.

بنت أبي زرع، فما بنت أبي زرع؟ طوع أبيها، وطوع أمها، ومِلْء كسائها، وغيظ جارتها.

جارية أبي زرع، فما جارية أبي زرع؟ لا تبث حديثنا تبثيثاً، ولا تنقث ميرتنا تنقيثاً، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً.

قالت: خرج أبو زرع والأوطاب تمخض، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين فطلقني ونكحها، فنكحت بعده رجلاً سرياً، ركب شرياً، وأخذ خطياً، وأراح علي نعماً ثرياً، وأعطاني من كل رائحة زوجاً، قال: كلي أم زرع وميري أهلك، فلو جمعت كل شيء أعطاني ما بلغ أصغر آنية أبي زرع.

قالت عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: «كنتُ لكِ كأبي زرع لأم زرع».

ومعنى ألفاظ الحديث: جاء في قول الأولى: الغث هو المهزول الضعيف. وعلى رأس جبل تريد أنه وعر صعب الوصول إليه. وتريد هذه المرأة أن زوجها قليل الخير من عدة جهات، منها كونه كلحم الجمل لا كلحم الظأن، ومنها أنه مع ذلك غث مهزول رديء، ومنها أنه صعب التناول، لا يوصل إليه إلا بمشقة شديدة. وذكر الخطابي في تفسير هذا المراد أنها تعني أنه يترفع ويتكبر ويسمو بنفسه فوق موضعها كثيراً، أي أنه يجمع إلى قلة خيره تكبره وسوء الخلق.

وقيل في قولها: لا سمين فينتقل أي تنقله الناس إلى بيوتهم ليأكلوه بل يتركوه رغبة عنه لرداءته.

قال الخطابي: ليس فيه مصلحة يحتمل سوء عشرته بسببها، يقال: أنقلت الشيء بمعنى نقلته. وفي رواية أخرى: فيُنْتَقَى بدل ينتقل، أي يستخرج نِقْيُهُ، والنِّقْيُ: المخ، يقال: نقوت العظم ونقيته، وانتقيته أي استخرجت نقيه.

وأما الثانية فقولها: لا أبث خبره أي لا أنشره ولا أشيعه. وقولها: إني

أخاف ألا أذره، له معنيان: **أحدهما** ما ذكره ابن السكيت وغيره أن الهاء في الفعل عائدة على «خبره»، فالمعنى على هذا أن خبره طويل إن شرعت في تفصيله لا أقدر على إتمامه لكثرته؛ **والثاني** أن الهاء تعود على الزوج فتكون «لا» زائدة كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: 12]، والمراد على هذا: إني أخاف أن يطلقني فأذره أي أتركه. وأما عجره وبجره فالمراد عيوبه، وأرادت عيوبه الباطنة وأسراره الكامنة بحسب عبارة الخطابي. وأصل العجر أن يتعقد العصب أو العروق فتراها ناتئة من الجسد، والبجر مثلها لكنها في البطن خاصة، واحدتها بجرة، ومنها قيل: رجل أبجر إذا كان ناتئ السرة عظيمها، أو إذا كان عظيم البطن، والأنثى بجراء. والنفخة في الظهر عجرة أيضاً، وفي السرة بجرة.

وأما الثالثة فقولها: العشنق يعني الطويل، ومرادها أنه ليس فيه أكثر من طول بلا نفع، فإن ذكرت عيوبه طلقني، وإن سكت عنها علقني فتركني لا عزباء ولا متزوجة.

وأما الرابعة: ففي كلامها مدح بليغ، وهي تعني أن زوجها ليس فيه أذى بل هو راحة ولذاذة عيش، مثل ليل تهامة الذي هو لذيذ معتدل ليس فيه حر ولا برد مفرط. ولا أخاف له غائلة لكرم أخلاقه، ولا يسأمني ولا يمل صحبتي.

وكذلك مدحت الخامسة زوجها مدحاً بليغاً، وقولها: فَهِد، تعني به وصفه بكثرة النوم إذا دخل منزله، وهو غافل عن تعهد ما ذهب من متاعه وما بقي، وشبهته بالفهد لأنه يقال: أنوم من فهد. ولا يسأل عما عهد أي لا يسأل عما كان عهده في البيت من متاعه وماله. وأما قولها: إذا خرج أسد فهو صفة له بالشجاعة، ومعناه أنه إذا صار بين الناس أو خالط الحرب كان كالأسد ويقال: أَسِدَ واستأسدَ. وقد فسر بعضهم قولها: فهد، أنها تريد ضربها ووثب عليها للجماع. وهو بعيد والمشهور التفسير الأول.

وأما السادسة فقولها: لف، اللف معناه في الأكل والطعام الإكثار منه مع التخليط بصنوفه حتى لا يبقي منها شيئاً. والاشتفاف في الشرب: أن يستوعب جميع ما في الإناء، من الشراب، فإذا شربها قيل: شَفَّهَا واشْتَفَّهَا وتَشَافَّهَا. وقولها: لا يولج الكف ليعلم البث فقد قيل في تفسيره أقوال:

منها ما ذكره أبو عبيد: أحسبه كان بجسدها عيب أو داء كَنَّتْ به، لأن البث الحزن، فكان لا يدخل يده في ثوبها ليمس ذلك، فيشق عليها، فوصفته بالمروءة وكرم الخلق.

والقول الثاني ما نقل عن ابن الأعرابي أنه قال: هذا ذم له، أرادت: وإن اضجع ورقد التف في ثيابه في ناحية، ولم يضاجعني ليعلم ما عندي من محبته. قال: ولا بث هناك إلا محبتها الدنو من زوجها.

وثمة **قول ثالث** مفاده أنها أرادت أنه لا يفتقد أموري ومصالحي. قال ابن الأنباري: رد ابن قتيبة على أبي عبيدة تأويله لهذا الحرف، وقال: كيف تمدحه بهذا وقد ذمته في صدر الكلام؟!. قال ابن الأنباري: ولا رد على أبي عبيد إلا أن النسوة تعاقدن ألا يكتمن شيئاً من أخبار أزواجهن، فمنهن من كانت أوصاف زوجها كلها حسنة فوصفتها، ومنهن من كانت أوصاف زوجها قبيحة فذكرتها، ومنهن من كانت أوصافها فيها حسن وفيها قبح فذكرتها.

وأما السابعة فقولها: غياياء بالغين المعجمة، وورد بالعين المهملة أيضاً، ومعنى الأولى مأخوذ من الغياية التي هي الظلمة وكل ما أظل الإنسان، والمراد لا يهتدي إلى مسلك، أو أنها أرادت أنه ثقيل الروح وأنه كالظل المتكاثف الذي لا إشراق فيه، أو أنها أرادت أنه غُطِّيَتْ عليه أموره، أو أن يكون معنى غياياء من الغي الذي هو الانهماك في الشر، أو من الغي الذي هو الخيبة كما في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: 59]. وأما بالعين المهملة فيعني الذي لا يلقح، أو هو العنين الذي تعييه مجامعة النساء ويعجز عنها.

وأما قولها: طباقاء فمعناه المُطْبِقَةُ عليه أمورُهُ حمقاً، وقيل: الذي يعجز عن الكلام فتنطبق شفتاه، وقيل: هو العيي الأحمق الفَدْمُ (الأحمق). وقولها: شجك أي جرحك في الرأس، من الشجاج.

وقولها: فلك من الفَلِّ الذي بمعنى الكسر والضرب، ومعناه أنها معه بين شج رأس وضرب وكسر عضو أو جمع بينهما. وقيل: المراد بالفل هنا الخصومة. وقولها: كل داء له داء أي جميع أدواء الناس مجتمعة فيه.

وأما الثامنة فقولها: الزرنب تريد به نوعاً من الطيب معروفاً، أو أرادت طيب ريح جسده، أو طيب ثيابه في الناس، وقيل: لين خلقه وحسن عشرته. وقولها: المس مس أرنب صريح في لين الجانب وكرم الخلق.

وأما التاسعة فوصفها زوجها بأنه رفيع العماد: يعني وصفه بالشرف وسناء الذكر، والعماد هو عماد البيت أصلاً، والجمع عَمَدٌ أي العيدان التي تعمد بها البيوت أي بيته في الحسب والنسب رفيع في قومه، وقيل: إن بيته الذي يسكنه رفيع العماد ليراه الضيفان وأصحاب الحوائج فيقصدونه، وهكذا بيوت الأجواد. وقولها: طويل النجاد، النجاد بكسر أوله هو حمائل السيف، فالطويل يحتاج إلى طول حمائل سيفه، والعرب تمدح بذلك، وتقول أيضاً: عظيم الرماد، لصفة الجود وكثرة الضيافة من اللحوم والخبز، فيكثر وقوده ويكثر رماده، وقيل: لأن ناره لا تطفأ بالليل لتهتدي بها الضيفان، والأجواد يعظمون النيران في ظلام الليل، ويوقدونها على التلال ومشارف الأوض، ويرفعون الأقباس على الأيدي لتهتدي بها الضيفان.

وقولها: قريب البيت من النادي، والمعنى مجلس القوم، ويقال له: الندي والمنتدى أيضاً، وقد وصفت زوجها بالكرم والسؤد، لأنه لا يقرب البيت من النادي إلا من هذه صفته، لأن الضيفان يقصدون النادي ولأن أصحاب النادي يأخذون ما يحتاجون إليه في مجلسهم من بيت قرب النادي، واللئام يتباعدون من النادي.

وأما العاشرة: فتعني أن لزوجها إبلاً كثيراً، فهي باركة بفنائه لا يوجهها تسرح إلا قليلاً قدر الضرورة، ومعظم أوقاتها تكون باركة بفنائه، فإذا نزل الضيفان به كانت الإبل حاضرة فيقريهم من ألبانها ولحومها. والمِزْهَرُ: العود الذي يضرب، أي أن زوجها عود إبله إذا جاءته الضيفان أن ينحر لهم منها، ويأتيهم بالعيدان والمعازف والشراب، فإذا سمعت الإبل صوت المزهر علمن أنه قد جاءه الضيفان وأنهن منحورات هوالك. وقيل: مباركها كثيرة لكثرة ما ينحر منها للأضياف، ويقول هؤلاء: ولو كانت كما قال الأولون(التفسير الآنف الذكر) لماتت هزالاً.

وهذا في الواقع ليس بلازم، فإنها تسرح وقتاً تأخذ فيه حاجتها ثم تبرك بالفناء. وقيل: كثيرات المبارك، أي مباركها في الحقوق والعطايا والحمالات والضيفان كثيرة، ومراعيها قليلة لأنها تصرف في هذه الوجوه.

وأما الحادية عشرة ففي قولها: أَنَاسَ تعني حَرَّكَ، وتريد أن زوجها قد حلاها في أذنيها قِرْطَةً وشُنُوفاً فهي تتحرك لكثرتها. وقولها: وملأ من شحم عضدي، معناه أسمنني وملأ بدني شحماً، ولم ترد اختصاص شحم العضدين، ولكنهما إذا سمنتا سمن غيرهما من جسمها. وقولها: وبَجَّحَنِي فبجحت إليَّ نفسي، أي فرحني ففرحت، أو عظمني فعظمتُ عند نفسي، يقال: فلان يتبجح بكذا أي يتعظم ويفتخر

وقولها: وجدني في أهل غنيمة.... فالغنيمة تصغير غنم، والمراد أن أهلها كانوا أصحاب غنم لا أصحاب خيل وإبل، لأن الصهيل أصوات الخيل، والأطيط: أصوات الإبل وحنينها، والعرب لا تعتد بأصحاب الغنم، وإنما يعتدون بأصحاب الخيل والإبل. وقولها: بِشقٍّ، فبعضهم حمله على اسم موضع، وحمله على الفتح، وحمله آخرون على الكسر والفتح بهذا المعنى نفسه، وذهب بعضهم أن المراد بشق جبل لقلتهم وقلة غنمهم، وشق الجبل: ناحيته، وبعضهم حمله على شظف العيش والجهد، ويبدو أن هذا أرجح من القولين السابقين. وأما دائس: فهو الذي يدوس الزرع في بيدره. ومُنَقٍّ: هو من نقَّى الطعام إذا أخرجه من بيته وقشوره، والمراد أنها تصف زوجها أنه ذو زرع يدوسه وينقيه.

وأما قولها: أقول فلا أُقَبَّح فالمراد منه: لا يقبح قولي فيرد بل يقبل مني. ومعنى أتصبح: أنام الصبحة، وهي بعد الصباح، أي أنها مكفية بمن يخدمها فتنام. وقولها: فأتقنَّح أي أروى حتى أدع الشراب لشدة الري، قال أبو عبيد: «ولا أراها قالت هذا إلا لعزة الماء عندهم». وقولها: عكومها رداح، العكوم الأعدال والأوعية التي فيها الطعام والأمتعة، واحدها عُكْمٌ، ورداح: أي عظام كبيرة، ومنها قيل للمرأة: رداح إذا كانت عظيمة الأكفال. ورداح هنا يكون

مصدراً كالذهاب. قولها: بيتها فساح أي واسع كالفسيح، ويحتمل أنها أرادت كثرة الخير والنعمة.

وقولها: مضجعة كمَسَلِّ شطبة، فالمسل مصدر بمعنى المسلول أي ما سُلَّ من قشره، والشطبة: ما شُطِبَ من جريد النخيل أي شُقَّ، وهي السعفة لأن الجريدة تشقق منها قضبان رقاق، وهي تريد أنه مهفهف خفيف اللحم كالشطبة، وهذا مما يمدح به الرجل. وذكر ابن الأعرابي أنها أرادت بقولها أنه كالسيف سل من غمده.

وقولها: وتشبعه ذراع الجفرة، الجفرة هي الأنثى من أولاد المعز أو الضأن، وهي ما بلغت أربعة أشهر وفصلت عن أمها، والذكر جفر لأنه جَفَرَ جنباه أي عظماً. والمراد أن زوجها قليل الأكل، وهو صفة مدح عند العرب.

وقولها: طوع أبيها وطوع أمها، أي أنها منقادة لهما مطيعة لأمرهما. ومعنى ملء كسائها أي ممتلئة الجسم سمينته. وقولها: غيظ جارتها، المراد بالجارة هنا الضرة، أي أن ضرتها يغيظها ما تراه من حسنها وجمالها وعفتها وأدبها. وقولها: لا تبث حديثنا تبثيثاً، أي لا تشيعه ولا تظهره بل تكتم سرنا وحديثنا كله. وقولها: لا تنقث ميرتنا تنقيثاً، الميرة: الطعام المجلوب، ومعناه لا تفسده ولا تفرقه ولا تذهب به، أي أنها أمينة.

وقولها: لا تملأ بيتنا تعشيشاً، أي لا تترك الكناسة والقمامة فيه مفرقة كعش الطائر بل هي مصلحة للبيت معتنية بتنظيفه، وقيل: معناه لا تخوننا في طعامنا في زوايا البيت كأعشاش الطير. وقولها: والأوطاب تمخض، الأوطاب جمع وطْب أو وِطْبة، وهي أسقية اللبن التي يمخض فيها. ومعنى قولها: يلعبان من تحت خصرها برمانتين، قال أبو عبيد: معناه أنها ذات كفل عظيم، فإذا استلقت على قفاها نتأ الكفل بها من الأرض حتى تصير فجوة يجري فيها الرمان. وقال بعضهم: المراد بالرمانتين الثديان، أي أن لها نهدين حسنين صغيرين كالرمانتين، وهذا أرجح لأن هناك ما يؤيد هذا المعنى في الروايات الأخرى، ولأن العادة لم

تجر برمي الصبيان الرمان تحت ظهور أمهاتهم ولا جرت العادة أيضاً باستلقاء النساء كذلك حتى يشاهده منهن الرجال.

وأما قولها: فنكحت بعده رجلًا سريًا ركب شريًا، فالسري: الرجل السيد الشريف أو السخي، والشري: الفرس يشتري في سيره أي يلح ويمضي بلا فتور ولا انكسار، أو هو الفرس الفائق الخيار. والخَطِّي: الرمح منسوب إلى قرية من ساحل البحر عند عمان والبحرين تدعى الخط. وقولها: أراح علي نعماً ثرياً، أي أتى بها إلى مُرَاحها، وهو موضع مبيتها، والنعم: الإبل والبقر والغنم والعبيد. وقولها: زوجاً أي اثنين، أو يحتمل أنها أرادت صنفاً. وقوله: ميري أهلك، أي أعطيهم وأفضلي عليهم وصليهم.

فوائد حديث أم زرع

وقد ذكر العلماء في هذا الحديث فوائد.

منها: استحباب حسن المعاشرة للأهل.

وجواز الإخبار عن الأمم الخالية.

وأن المشبه بالشيء لا يلزم أن يكون مثله في كل شيء.

ومنها: أن كنايات الطلاق لا يقع بها طلاق إلا بالنية لأن النبي ﷺ قال لعائشة: «كنتُ لك كأبي زرع لأم زرع».

ومن جملة أفعال أبي زرع أنه طلق امرأته أم زرع كما سبق ولم يقع على النبي ﷺ طلاق بتشبيهه لكونه لم ينو الطلاق.

ومنها: مسألة هامة في الغيبة لأن فيه أن النسوة ذكر بعضهن أزواجهن بما يكره، ولم يكن ذلك غيبة لكونهم لا يعرفون بأعيانهم أو أسمائهم، وإنما الغيبة المحرمة أن يذكر إنساناً بعينه أو جماعة بأعيانهم أو أسمائهم، ولو وصفت امرأة زوجها بما يكرهه وهو معروف عند السامعين كان غيبة محرمة، فإن كان الرجل مجهولاً لا يعرف بعد البحث فهذا لا حرج فيه عند بعضهم، كمن قال في

العالم: من يشرب أو من يسرق يكن كذا... بالعموم دون تخصيص باسم أو ما يعرف به.

وهذا حديث نفيس يطلعنا على تفكير النساء العربيات، وواقع الأعراف والتقاليد التي ما زال مجتمعنا يحافظ عليها عشائرياً بقوة في بعض المواضع أو البلاد.

الأحوال الشخصية

المقدمة

تتعلق الأحوال الشخصية بكل ما يتعلق بالرجل والمرأة من حقوق وواجبات والتزامات تجاه عقد الزواج وثمرات هذا العقد، ثم آثاره ونتائجه، ولوازمه، وشروط، وأركانه، ثم ما يفسخ هذا العقد، وكيفية هذا الفسخ، مع أحكام الطلاق وآثار هذه الأحكام، وتصرفات كل من الرجل والمرأة في الحياة الخاصة أو العامة ومستلزمات هذه الحقوق جملة وتفصيلاً، بكل ما يمس الطرفين في الحياة.

عقد الزواج

الزواج هو عقد، والعقد كما يعرِّفه الفقهاء هو ارتباط بإيجاب وقبول على وجه مشروع بين شخصين أو أكثر يثبت أثره في محله.

فالعقد بهذا التعريف يشتمل على أركان ثلاثة هي: الصيغة، والعاقدان، والمعقود عليه.

وإذا أخل شيء بأي ركن من هذه الأركان فقد بطل العقد فهو غير مقبول شرعاً، وآثاره كلها باطلة محرمة.

وأما إذا جاء النص ودل على وصف خارجي مكمل للعقد مما لا يخل بركن من هذه الأركان فهذا هو شرط لصحة العقد، فيعد العقد في أصله صحيحاً، ولكن لا يجوز الاستمرار في هذا الفساد، فهناك إثم يترتب على العاقد أو العاقدين لو أنهما لم يصححا هذه الشرط الذي أخل خارجياً بالركن.

1 ـ صيغة العقد:

الصيغة هي ركن من أركان العقد. تكون بألفاظ فيها معنى التزويج بين الطرفين، فيكون الطرف الأول منشئاً للفظ ـ وهو الولي ـ يقول فيه: زوَّجتك فلانة، أو أنكحتك فلانة وما في معانيها، ثم يجيب الطرف الآخر بلفظ القبول: قبلتُ.

وهذه الصيغة إذا لم تتم فالعقد باطل.

وأما إذا كان هناك خرس فإذا أمكنت الكتابة فالعقد صحيح، وإذا فهمت الإشارة فالعقد ينعقد أيضاً.

وإذا كتبت امرأة إلى رجل بخطها وشهد عليه أنه خطها أو عرف أنه خطها باليقين الذي تعرف به المستندات الخطية شرعاً كالإقرار منها فيما بعد، ثم أجاب الرجل بقبول الزواج منها، أو كان العكس في الكتابة، أي كتب الرجل لها بالزواج، فكتبت له بذلك موافقتها انعقد العقد، وكذلك لو تعاقد المتعاقدان

على التلفون أو بالفاكس فهو جائز بوجود الصيغة وباستكمال الأركان الأخرى وامتناع الموانع المخلة بالأركان.

2 ـ العاقدان:

وهما الطرفان الذكر والأنثى، وهما طرفا العقد على الحقيقة، فالمرأة صاحبة الموافقة، ولا يترك رأيها بل هي صاحبة إنفاذ العقد وفسخه، ولا يصح الزعم بأن إنكاح الولي المرأة بغير رضاها هو عقد صحيح تام، فهذا لم يقل به قائل إطلاقاً، فعن أبي هريرة ﷺ فيما روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «**لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن**»، قالوا: يا رسول الله وكيف إذنها؟ قال: «**أن تسكت**».

فالشرع قد جعل الإذن أصلاً لإنفاذ العقد، مما يعني أن المرأة هي العقد وإن كان يشترط الولي، وذلك لأن لها حق فسخ العقد وعدم إمضائه إذا أكرهها الولي على ذلك؛ فقد روي عن ابن عباس ﷺ أن جارية بكراً أتت النبي ﷺ فذكرت له أن أباها زوَّجها وهي كارهة، فخيرها النبي ﷺ. وكذلك لما روي عن خنساء بنت خدام الأنصارية أن أباها زوَّجها وهي ثيِّب، فكرهت ذلك، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها.

3 ـ المعقود عليه:

يرى الفقهاء أن المعقود عليه هو البُضْعُ، والمراد بالبُضْعِ كل ما يترتب على المرأة من كونها أنثى يمكن للزوج أن يطأها دون عيوب تمنع من الوطء. على أن هذا الحق هنا في العقد ليس كسائر العقود من حيث إيجاب رد المرأة لو وجد فيها مثل هذا العيب، فلو أن الزوج قَبِلَ أن تظل الزوجة على عصمته فهو جائز، ولكن في حال التنازع فقط يمكن للقاضي أن يحكم بالطلاق فيما لو كانت المرأة قرناء مثلاً؛ أي فيها عيب لضيق متاعها يمنع الرجل من إيلاج حشفته فيه، ولو أن ثمة علاجاً يمهل القاضي الزوجة سنة لإصلاح هذا العيب في حال القدرة على إزالته.

4 ـ الزواج المدني:

الزواج المدني زواج له مواصفات وشروط غير مواصفات الزواج الشرعي وشروطه. فهو يعتد بأن العقد هو التزام بين الطرفين.

ونضيف هنا أن العقد المدني يبيح للمرأة أن تساوي الرجل في الميراث، ولها حقوق في النفقة غير الحقوق الشرعية، وآثار العقد أضحت في عصرنا منذ التسعينات من القرن الماضي تمس الأسرة وطرفي التعاقد؛ فقد أجيز في القانون الغربي أن يكون العقد بين أنثى وأنثى وبين ذكر وذكر، وهذا إفساد لثمرة ما أراد الله سبحانه بالإنسان على هذه المعمورة.

ولكن إذا حصل إلزام بهذا العقد كما يحدث في بعض البلاد، فينظر في العقد؛ فإذا كان ثمة إيجاب وقبول بين الرجل والمرأة فالعقد صحيح، ولا يلتزم الطرفان بأي شرط من الشروط المحرمة الأخرى فيما بينهما، فالعقد صحيح والشروط باطلة لا يتقيد بها الطرفان، وإن لم يكن ثمة إيجاب أو قبول، أي لم يكن هناك صيغة، فالعقد باطل من أصله.

5 ـ الشاهدان:

وقد طلب الله سبحانه وتعالى الشهادة على العقود؛ فقد قال سبحانه في البيع: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: 282] كما طلب الشهادة على الدَّيْن فقال: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: 282] وهذا الطلب هو عام ومطلق وإن كان في سياق آية الدين، إلا أن اللفظ عام لا يجوز تخصيصه، فهو جار في كل ما يشهد عليه من العقود ومما جاءت الأحاديث ببيان الشهادة عليه.

فالشاهد يقابله في هذه الآية شاهد إذا كانا ذكرين، وأما الأنثى فتعادل شهادة امرأتين شهادة رجل واحد في كل مواضع الشهادة التي أمر الله بها دون تخصيص، لإطلاق لفظ الآية ولعموم هذا اللفظ.

ويشترط أن يكون الشاهد بالغاً، وليست العبودية بمانعة من الشهادة، فالعبد يشهد كما يشهد الحر، ولا دليل على منع شهادته.

ولا يرد نكاح بعد شهادة الشاهدين بدعوى ثبوت عدم عدالتهما فيما بعد، فالأصل عدالة الشاهد مادام عدلاً أثناء إبرام العقد، فإذا أطرأت طوارئ تقدح في عدالته بعد انعقاد العقد فلا ينبني عليه شيء من البطلان أو الفساد، لأن العدالة كانت متحققة في الأصل حين عقد العقد.

والشهادة هنا ليست مما يمس العقد نفسه، ولا هي ركن من أركان العقد بل هي وصف خارجي مكمل للعقد، فلذلك كان العقد بلا شاهدين فاسداً على الأصح، ولا يبطل العقد من غير شاهدين بل هو صحيح في أصله، ولكن عدم توفر هذا الشرط يجعل الفساد سارياً في العقد.

وعليه فالعقد صحيح في أصله؛ فقد أخبر مالك عن أبي الزبير قال: «أتي عمر بنكاح لم يشهد عليه إلا رجل وامرأة، فقال: هذا نكاح السر ولا أجيزه، ولو كنت تقدمت فيه لرجمت» فالواضح أن عمر وجد أن هناك نقصاً في الشاهد وهو امرأة أخرى لأن المرأة بمنزلة الرجلين، وعد هذا النكاح بمنزلة ما يفضي إلى ما هو شبهة الزنا لقوله: «ولو كنت تقدمت فيه لرجمت» حيث أوضح الشبهة في النكاح لا بطلان العقد، مما يعني الفساد كما شرحنا.

ولو صح غير هذا التفسير لكان رأياً لعمر ﵁، ورأي الصحابي ليس حجة في الأحكام.

ولذلك كان مقتضى قول الإمام مالك رحمه الله هو الصحيح؛ حيث جعل عقد النكاح صحيحاً في أصله، وغير باطل، ويلغى الفساد فيما بعد إذا جاء العاقدان بالشاهدين على الزواج.

6 ـ الولي:

يقول الرسول ﷺ فيما رواه عروة عن عائشة ﵂: «**أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فإن أصابها فلها الصداق بما استحل من فرجها**». والحديث الذي يصح في هذا الباب هو قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا نكاح إلا بولي، ولا ولاية لأحد مع وجود الأب،فإذا مات الأب فالجد هو الولي، فإذا مات الجد فأبو الجد إن وجد، لأنهم كلهم آباء**».

ولا ولاية لكافر على مسلم مهما كانت درجة القرابة حتى ولو كانت ابنته: فقد زوَّج خالد بن سعيد بن العاص النبي ﷺ أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، وأبوها حي، لأنها مسلمة وأبو سفيان كافر يومئذ، وابن سعيد مسلم لم يكن مسلم أقرب بها منه.

المحرمات في العقد

المحرمات نوعان: محرمات حرمة مؤبدة، ومحرمات حرمة مؤقتة.

فأما المحرمات حرمة مؤبدة فيمكن إدراجهن في قاعدة: أصلك ومهما علا، وفرعك ومهما نزل.

فالأم وزوجة الأب والجدة والخالة والعمة والبنات والأخوات وذرياتهن، كلهن محرمات على التأبيد، وكذلك ابنة الزوجة المدخول بها، وأم الزوجة المعقود عليها من المحرمات على التأبيد، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [النساء: 23 ـ 24]؛ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 22] فبيَّن الله المحرمات من النساء على التأبيد، فبيَّن المحرمات بالنسب من الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت وبنات بنات الأخت والأخ وفروعهن النازلة وفروعهم. وكذلك بيَّن حرمة المصاهرة على التأبيد في أم الزوجة التي تحرم بمجرد العقد على ابنتها، فلذلك قيل: العقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات، وهذا كله على التأبيد.

وزوجة الابن كذلك تحرم بمجرد العقد عليها، وزوجة الأب تحرم بمجرد العقد. وكذلك أوضحت الآية التحريم بالرضاعة.

فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري ومسلم: «**الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة**» وعن عمرة بنت عبد الرحمن أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرتها: أن النبي ﷺ كان عندها، وأنها سمعت صوت رجل يستأذن في بيت حفصة فقالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، هذا رجل يستأذن في بيتك، فقال رسول الله ﷺ: «**أراه فلاناً**»؛ لعم حفصة من الرضاعة، فقلت: يا رسول الله، لو كان فلان حياً ـ لعمها من الرضاعة ـ أيدخل علي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم إن الرضاعة تحرم ما يحرم من الولادة**».

ولم يختلف أحد على أن لبن الفحل يحرم، كما يحرم ولادة الأب يحرم لبن الأب؛ فقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن رجل كانت له امرأتان، فأرضعت إحداهما غلاماً وأرضعت الأخرى جارية، فقيل له: «هل يتزوج الغلام الجارية؟ فقال: لا، اللقاح واحد».

وسأل ابن جريج عطاء عن لبن الفحل: أيحرم؟ فقال: نعم، فقال له: أبلغك من ثَبْتٍ؟ فقال: نعم، قال ابن جريج: قال عطاء: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء: 23] وإذا كان الرضاع يحرم فليس للرجل أن ينكح الأم التي أرضعته، وكل ما يكون من بناتها وما سفل منهن من بنات البنات، وكل من ولدته من ولد ذكر أو أنثى امرأة، وكذلك أمهاتها وكل من ولدنها لأنهن بمنزلة أمهاته وأخواته، وأخواتها بمنزلة خالاته وكذلك عماتها وخالاتها لأنهن عمات أمه وخالاتها، وكذلك ولد الرجل الذي أرضعته لبنه وأمهاته وأخواته وخالاته وعماته، وكذلك من أرضعته بلبن الذي أرضعته من الأم التي أرضعته أو غيرها، وكذلك من أُرْضِعَ بلبن ولد المرأة التي أرضعته من أبيه الذي أرضعه بلبنه أو زوج غيره.

ولا يجمع الرجل بين الأختين من الرضاع بنكاح ولا وطء ملك يمين.

وكذلك المرأة وعمتها من الرضاعة يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب.

ورضاعة الأمة والحرة والذمية كلهن يحرمن كما تحرم الحرة لا فرق بينهن.

وأما الرضعات التي تحرم فهي خمس؛ لِمَا روى عبد الله بن الزبير أن النبي ﷺ قال: «**لا تحرم المصة والمصتان ولا الرضعة ولا الرضعتان**» ودليل ذلك أن امرأة أبي حذيفة أمرها النبي ﷺ أن ترضع سالماً خمس رضعات فمفهوم العدد هنا أن ما دون الخمس رضعات لا يحرم كما هو واضح.

وأما سائر المحرمات حرمة مؤقتة فيدخل فيهن ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ**﴾ [النساء: 23] فلا يجوز الجمع بين الأختين، والزواج بكل منهما على حدة صحيح مع التفرقة دون الجمع، وأما الجمع بينهما ففاسد فإذا جمع بينهما فالعقد صحيح في أصله، ولكن يجب عليه أن يفارق واحدة منهما لينتهي الفساد.

وكذلك الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها لقول الرسول عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة عنه بما اتفق عليه الشيخان أن النبي ﷺ قال: «**لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها**».

ومن المحرمات حرمة مؤقتة ما تكون زوجة غيره؛ فالله سبحانه يقول: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾ [النساء: 24] فالمحصنات يكن زوجات أي متزوجات، فلا يجوز للرجل أن يعقد على زوج غيره.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه**» وفي رواية ابن عمر أن النبي ﷺ نهى أن يخطب الرجل على خطبة حتى ينكح أو يترك، فالنهي منصب على معنى راجع لا لنفس العقد ولا لركن من أركانه بل إلى صفة من صفاته لازمة، فهو خارج عن العقد، فإذا فعله الشخص أو الولي فهو معصية يستغفر الله منها، ويكون العقد سائر المفعول ثابتاً لا غبار عليه لأنه كامل الأركان تام الشروط إذا أتم واستكمل فيه ما طلب الشارع.

وواقع الرسول ﷺ منصرف إلى حال هي أن يخطب الرجل امرأة فتقبل به، ثم يأتي آخر عالماً بهذه الموافقة فيزوجه الولي بها، فهذا هو الممنوع الذي منعه الرسول ﷺ. ولكن إذا خطب خاطبان ولم تعين المرأة أحدهما فهذا لا يدخل

في معنى النهي في الحديث، لأن المروي عن فاطمة بنت قيس أن زوجها طلقها فَبَتَّهَا، فأمرها النبي ﷺ أن تعتد في بيت أم مكتوم وقال: فإذا حللت فآذنيني، فلما حللت أخبرته أن أبا جهم ومعاوية خطباني، فقال رسول الله ﷺ: «**أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أسامة**»، فكرهته، فقال: «**انكحي أسامة**»، فنكحته، فجعل الله فيه خيراً، واغتبطتُ به. حلّلت: أي أنهيت عدتك، وآذنيني: أعلميني، ومعنى لا يضع عصاه عن عاتقه: أنه يضرب عياله، وصعلوك: فقير، اغتبطت: سررت وتنعمت.

الأنكحة المحرمة

1 ـ نكاح الشغار:

من هذه الأنكحة التي نهى الشرع عنها نكاح الشغار، فقد روى أبو داود في سننه عن نافع عن ابن عمر «أن النبي ﷺ نهى عن الشغار» قال مسدد في حديثه: «قلت لنافع: ما الشغار؟ قال: ينكح ابنة الرجل وينكحه ابنته بغير صداق، وينكح أخت الرجل وينكحه أخته بغير صَداق» وهذا لا يعني أن الصداق غير المسمى هو الذي يبطل العقد. فالحقيقة أن الصداق وعدمه لا أثر له في المسألة، بل المسألة هي اشتراط المبادلة بين الطرفين، وقد قصد نافع في تفسيره للشغار المبادلة تحدث بين الطرفين فتكون هذه المبادلة هي مكان المهر.

وقال الخطابي في معالم السنن: «بل سمي شغاراً لأنه رفع العقد من أصله، فارتفع النكاح والمهر معاً. ويبين لك أن النهي قد انطوى على الأمرين معاً أن البدل هاهنا ليس شيئاً غير العقد ولا العقد شيئاً غير البدل، فهو إذا فسد مهراً فسد عقداً. وإذا أبطلته الشريعة فإنما أفسدته على الجهة التي كانوا يوقعونه بها، وكانوا يوقعونه مهراً وعقدا، فوجب أن يفسدا معاً».

فالشغار هو عبارة عن عقدين في عقد واحد مع فساد في المهر لعدم تسمية المهر، وإذا لم يسم المهر ظل نوعاً من عقدين في عقد واحد. فهو باطل من هذه الجهة، وهذا كله لا يجوز في كل العقود بنهي الرسول عليه الصلاة والسلام عن

عقدين في عقد واحد وعن بيعين في بيع واحد وعن صفقتين في صفقة واحدة.

2 ـ نكاح المحلِّل:

ومن الأنكحة المحرمة نكاح المحلِّل، وهو التيس المستعار عند الفقهاء؛ فقد روى أبو داود أن النبي ﷺ قال: «**لعن المحلِّل والمحلَّل له**» ويكون التحليل بأن يتشارط المحلِّل والزوج الذي طلق زوجته ثلاثاً يتزوجها هذا المحلِّل ليحلها له فيرجع إليها زوجها، وهذا الشرط باطل، فيكون العقد فاسداً لهذا الشرط.

فإن أصابها هذا المحلِّل ثم طلقها وانقضت العدة فقد حلت للزوج الأول.

وقد قال سفيان الثوري: «إذا تزوجها وهو يريد أن يحلها لزوجها ثم بدا له أن يمسكها لا يعجبني إلا أن يفارقها، ويستأنف نكاحاً جديداً». وهذا ما رآه الإمام أحمد، وكذلك قال الإمام مالك، رحمهم الله جميعاً: «يفرق بينهما على كل حال». وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بالتيس المستعار؟**» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «**هو المحلِّل، لعن الله المحلِّل والمحلَّل له**».

3 ـ نكاح المتعة:

وأما نكاح المتعة فهو نكاح محرم عند أهل السنة ثبت تحريمه عن رسول الله ﷺ يوم خيبر. في حين تعده الشيعة الإمامية مباحاً يثاب فاعله، وله عندهم صور وشروط مبسوطة في كتبهم.

النفقة

1 ـ النفقة على الزوجة:

قال الله عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 34] وقوامة الرجال على النساء قوامة رعاية ثم نفقة، فالله سبحانه لم يرد أن يكون الرجل أعلى من المرأة وأجلَّ شأناً، فهذا ليس الغرض من الآية بل ما ذكرناه عن العلماء والفقهاء وأئمة التفسير.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى أن يعدل الرجل بين النساء فقال سبحانه:
﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء:3]

فأمر الله بالعدل حين تعدد الزوجات، والعدل هو العدل في المال والنفقة والكسوة والطعام، وهذا دال على وجوب النفقة من الزوج على زوجته ولو كانت الزوجة غنية، لأن الآية لم تشترط هذا، كما دلت السنة على هذا الحق بقطع النظر عن غنى الزوجة وفقرها.

وقد أمر الله أيضاً الرجل أن يدفع للزوجات إن أرضعن فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: 6].

وقد قال الشافعي: «وفي قول الله تبارك وتعالى في النساء: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: 3] بيان أن على الزوج ما لا غنى بامرأته عنه من نفقة وكسوة وسكنى، قال: وخدمة في الحال التي لا تقدر على أن تنحرف لما لا صلاح لبدنها إلا به من الزَّمَانة والمرض، فكل هذا لازم للزوج قال: ويحتمل أن يكون عليه لخادمها نفقة إذا كانت ممن تُعْرَفُ أنها لا تخدم نفسها. وهو مذهب غير واحد من أهل العلم فيفرض على الرجل نفقة خادم واحد للمرأة التي الأغلب أن مثلها لا تخدم نفسها، وليس عليه نفقة أكثر من خادم واحد، فإذا لم يكن لها خادم فلا أعلمه يجبر على أن يعطيها خادماً، ولكن يجبر على من يصنع لها من طعامها ما لا تصنعه هي ويدخل عليها ما لا تخرج لإدخاله من الماء، ومن مصلحتها، لا يجاوز به ذلك». فالواضح أن الزوج يلتزم بكل متطلبات زوجه التي تعهد لها في المعروف بين الناس؛ فهو يكفيها أمر علاجها وأمر كسوتها وكل أمر يجعلها تحتاجه هي ولا تقدر على القيام به بنفسها حتى الطعام.

2 ـ النفقة على الأولاد:

والنفقة على الأولاد كذلك هي واجبة، فقد دلت السنة على ذلك فعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها حدثته أن هنداً أم معاوية جاءت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، وإنه لا يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه سراً وهو لا يعلم، فهل علي في ذلك شيء؟ فقال النبي ﷺ: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**».

فقد أفتاها الرسول عليه الصلاة والسلام بفتوى دلت على جواز أخذ مال الرجل الشحيح أي البخيل سراً إذا كان لا ينفق، مما دلَّ على إيجاب النفقة ولو

بأخذ المال خلسة؛ وهو بيان على أن الأب عليه القيام بالمؤونة التي في صلاح صغار ولده من رضاع ونفقة وكسوة وخدمة كما ذكر الشافعي في تفسيره للحديث.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، عندي دينار، قال: «**أنفقه على نفسك**»، قال: عندي آخر، قال: «**أنفقه على ولدك**». قال: عندي آخر، قال: «**أنفقه على أهلك**»، قال: عندي آخر، قال: «**أنفقه على خادمك**»، قال: عندي آخر، قال: «**أنت أعلم**».

وتكون النفقة على الأولاد ما داموا صغاراً لا يملكون إغناء أنفسهم، وكذلك ينفق عليهم في كل حالات عوزهم وحاجتهم مما يحتاجونه من الأساسيات والضروريات دون الكماليات، فهذه لا وجوب عليها، أي الكماليات. وإذا بلغ الأولاد فقد سقط وجوب النفقة على الأب إلا أن يتطوع بها من نفسه. وينفق الأب على الكبار البالغين ما داموا لا يملكون لأنفسهم الإنفاق لمرض وعجز ونحوهما.

وإن عجز الأب عن الإنفاق عن نفسه فالواجب على الولد أن ينفق عليه إذا كان الأب عاجزاً ومريضاً، والأم كذلك في حكم الأب.

وإذا امتنعت الزوجة من زوجها عن الفراش ولم تمكنه من نفسها دون علة ولا مرض فلا تجب النفقة على الزوج، إلا أن تطيعه وتمنح نفسها، وكذلك لو هربت منه فلا تجب النفقة على الزوج.

3 ـ مقدار النفقة:

وأما مقدار النفقة فهي من الطعام بحسب قوت أهل البلد، فلا يلزم الرجل أن يجتلب إليها الطعام من خارج البلد، ويقدر كل ذلك بمقدار ما يكون لنظائرها اللائي من أمثالها في البلد، فإذا كان من عادة المرأة أن تكون مخدومة أحضر لها خادماً واحداً، وكذلك تكون كسوتها مماثلة لكسوة أمثالها من نساء البلد الذي يعشن فيه. وللرجل الموسر أن يوسع في الكسوة وفي الطعام فوق ما يقيم بدن المرأة. وكل ذلك لما وصف الله سبحانه ولما بَيّن رسوله عليه الصلاة والسلام كما مر ذكره؛ فقد وردت كلمة «المعروف» التي يدل واقعها على ما عرف وعهد عند الناس من الطعام والكسوة والإنفاق.

محرمات اللذة والاستمتاع

تقدم أن الإنسان مما يشتمل عليه غرائز تدفع هذا الإنسان لأن يشبعها، وإن الانجذاب الجنسي بين الطرفين هو مظهر من مظاهر الغريزة التي هي غريزة النوع، وقد وجه الله هذه الغريزة توجيهاً صحيحاً فلم يجز للإنسان أن يفعل أفعالاً معينة، وأجاز له أن يقوم بأفعال معينة، وربط أفعاله كلها بأوامره ونواهيه، وكل مخالفة يترتب عليها إثم والإثم فيه النار.

فقد أحل الله الاستمتاع بالمرأة بعقد الزواج الذي بنيت أركانه وشروطه كما شرحنا. وأزال الفوضى الجاهلية في العقود، فأنهى كلَّ علاقة باطلة وبيَّن أصل فسادها وبطلانها، وهكذا انضبط العقد انضباطاً دقيقاً من خلال نظرة الإسلام إلى العقود المخالفة لكل ما في الدنيا من عقود، فهو نظام لا يشبه أي نظام ولا يشبهه أي نظام.

1 ـ محل الجماع الصحيح:

على أن الله سبحانه يقول: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223] ومعنى «أنى» قد يرد بمعنى «من أين» كما هو في الآية، أو يرد بمعنى «كيف» كما قال الله ﷻ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ [مريم: 20] أي كيف يكون لي غلام، وإذا تأملنا في لفظ «الحرث» في الآية الكريمة علمنا أنه بمعنى «كيف» وليس بمعنى «من أين» لأن الدبر ليس بموضع الحرث، بل موضع الفرث، فيكون إتيان المرأة من دبرها حراماً. ولولا كلمة «الحرث» لكان لفظ «أنى» احتمل المعنى الذي يُحِلُّ اللواطة، واللواطة حرام قطعاً، وكان يمكن أن تفسر بمعنى «من أين»...

وقد دلت السنة النبوية على النهي عن إتيان النساء في محاشهن أو في أدبارهن؛ فعن خزيمة بن ثابت أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن إتيان النساء في أدبارهن. فقال رسول الله ﷺ: «حلال»، ثم دعاه أو أمر به فدعي فقال: «كيف قلت؟ في أي الخربتين أو في الخرزتين أو في أي الخصفتين، أما دبرها في قبلها فنعم، أما من دبرها في دبرها فلا، إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء من أدبارهن».

كما روى الإمام أحمد في مسنده أن الرسول ﷺ قال في الذي يأتي امرأته في دبرها: «**هي اللوطية الصغرى**».

قال الإمام الشافعي في كتابه «الأم»، في معرض حديثه عن الآية: فأما التلذذ بغير إبلاغ الفرج بين الأليتين وجميع الجسد فلا بأس به إن شاء الله تعالى، قال: وسواء هو من الأمة أو الحرة فإذا أصابها فيما هناك لم يحللها لزوج إن طلقها ثلاثاً، ولم يحصنها، ولا ينبغي لها تركه، وإن ذهبت إلى الإمام نهاه، فإن أقر بالعودة له أَدَّبه دون الحد ولا غرم عليه فيه لها لأنها زوجة، ولو كان فِي زنا حُدَّ فيه ـ إن فعله ـ حَدَّ الزنا، وأغرم ـ إن كان غاصباً لها ـ مهر مثلها، قال: «ومن فَعَلَه وجب عليه الغسل وأفسد حجه».

ومعنى كلام الشافعي أن الرجل يستطيع الاستمتاع بالمرأة مقبلة ومدبرة بأية كيفية شاء، واقفاً أو قاعداً أو على جنب.

كما ورد في السيرة النبوية أن الأنصار سمعوا في المدينة عن اليهود أنهم يأتون زوجاتهم على هيئات في الجماع يتلذذون بهن مقبلات أو مدبرات، فكان الأنصار يتحرجون من أن يجامعوا المرأة من دبر أي أن تكون هيئة المرأة من خلفها، فقيل: نزلت الآية في هذا مبيحة هذه الكيفيات من الاستمتاع، وقد نهت عن أن يأتي الرجل المرأة في المكان الذي حرمه الله وهو الدبر وليأت امرأته في الموضع الذي أحله على أي كيفية يستمتع بها.

2 ـ الإتيان في الدبر:

على أن اللواط المعروف الذي هو فعل قوم لوط إنما يكون بين ذكر وذكر، وهو شذوذ كبير في الطبيعة أجمع الصحابة على أن الفاعل والمفعول به يقتلان إذا تواطأ المفعول به مع الفاعل، واختلفوا في كيفية قتل اللوطي.

فأشار ابن عباس أن يلقى من حالق ثم تُدَهْدَهُ وراءه الأحجار، فهم أجمعوا على أن اللوطي يقتل واختلفوا في أسلوب القتل. وإجماع الصحابة هنا كاف في الاستدلال على القتل.

وذلك لأن ثمة أحاديث دلت على القتل فيها خلاف، وبعضها ثابت كما نرى وصحيح.

على أن ما يفعله الرجل بالمرأة أو ما يسمى اللوطية الصغرى لا يدخل في هذا من حيث العقوبة، بل عقوبته متروكة للقاضي ليقدرها تعزيراً في إطار العقوبات التي جاء بها الشرع.

3 ـ الاستمناء باليد:

وأما ما يدعى جلد عُمَيْرَةَ الذي هو الاستمناء باليد أو نكاح اليد فقد ارتأى الشافعي أنه حرام بناء على مطالع سورة (المؤمنون) إلى أن قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: 5 ـ 6] ثم قال: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: 7] وقد قال بعض العلماء بحرمتها استناداً إلى هذه الآيات أو إلى قياس.

ولم يرد نص صحيح أو ثابت يدلُّ على حرمة الاستمناء في سنة رسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم، فالاستمناء مباح بشروط.

وقد أجازه بعض علماء الحنفية إذا خاف المرء على نفسه الفتنة أو الزنا، وهؤلاء أجازوه هكذا بدلالة عقلية ليس لها مستند من نص من كتاب الله أو سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، كما حرموه بالاستناد إلى استنباط غير صحيح.

النظر واللمس وما شابهها!

1 ـ النظر إلى المرأة:

يحرم النظر إلى المرأة بشهوة، وأما النظر بغير شهوة فيجوز أو هو مباح للمرأة الحرة والأمة اللائي ليس فيهن قباحة ظاهرة، وأما الأمة الشوهاء القبيحة فقد ورد النهي عن النظر إليها مطلقاً سواء أكان النظر بشهوة أم بغير شهوة.

فقد روي عن الرسول ﷺ كما جاء في مسند الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال له: **«يا علي، إن لك كنزاً من الجنة، وإنك ذو قرنيها،**

فلا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الآخرة» وهذا القول من الرسول عليه الصلاة والسلام يدل على أن إتباع النظر إنما هو حين يكون حراماً أي بشهوة، والنظرة الأولى قد تجاوز عنها الشرع، وقد قال الله عز وجل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: 30، 31] فالغض هنا شامل قد أوضحته السنة، ودلت بما ذكرنا عن الرسول ﷺ على إباحة النظر إلى وجه المرأة وإباحة المرأة النظر إلى وجه الرجل بغير شهوة.

وكلمة «من» في الآيتين تعني التبعيض؛ مما يعني أن الله لا يأمر بغض البصر كلية بل بغض بعض البصر، وهذا البعض إنما هو مما بينته السنة أنه بشهوة.

من ذلك ما رواه البخاري وأحمد أن رسول الله ﷺ أتته امرأة حُسَّانَةٌ (جميلة) تسأله، وابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ، خلفه على الراحلة، فلوى الرسول ﷺ عنق ابن عمه الفضل، واللَّيُّ هو تحويل وجه الفضل عن النظر إلى المرأة، فإن هذا قد بيَّن فيه الرسول عليه الصلاة والسلام أن كلًّا منهما ينظر إلى الآخر بشهوة، لأنه ذكر أنه رأى شاباً وشابة فلم يأمن الشيطان بينهما، أي أنهما كانا ينظران بشهوة بعضهما إلى بعض.

2 ـ اللمس والمسّ:

وكذلك اللمس والمس والنظر للمرأة لا يجوز بشهوة، بل حتى الغمز إذا كان فيه مقدمة للجماع فإنه لا يجوز، فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يحرم شيئاً بمجرد الشهوة، ولم يرد نص في كتاب الله يدل على تحريم الشهوة أو أن الشهوة هي علة للأحكام أو الأفعال الصادرة عن العباد، كما أنه لم يرد نص فيه ذكر الفتنة علة للأحكام الشرعية إلا ما ذكره بعض الفقهاء في الحواشي خارجين عن نطاق النصوص الواردة.

فقد ورد قول الصحابي في حديث المتعة: «فشكونا العُزْبَةَ» والعزبة هي تحرك الشهوة، ولم ينكر عليهم رسول الله ﷺ هذه الشكوى ولم يعقب عليها. فهذا أمر طبيعي في الإنسان أن تتحرك شهوته.

غير أن الشرع جاء بأفعال مقرونة بالشهوة فحرمها، وليس كل فعل محرماً إذا اقترن بالشهوة، فطلب الشرع عدم النظر إلى المرأة باشتهاء، كما أمر بعدم المصافحة إذا كانت بشهوة، ونهى كذلك عن كل عمل مس للمرأة بشهوة، وذلك بتحريم كل ما يكون من مقدمات الجماع للمرأة الأجنبية، لأنها داخلة في موضوع الجماع فلا يجوز أن يكون حتى الغمز بين الطرفين.

وذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال لماعز حين أقرّه على الزنا (من الإقرار): «**لعلك قبّلت**» وقال له أيضاً: «**لعلك غمزت**» وعلى اختلاف الروايات! «**لعلك صافحت**»، فهذا يحرم إذا كان من وجه أنه يريد المرأة بشهوة.

وأما لو نظر إلى حذاء امرأة فثارت غريزته أو تحركت شهوته فليس هذا مما يدعي مدع أنه محرم، فهذا العمل وإن اقترن بشهوة فالنص لم يأت بحظره ومنعه.

ولذلك فليست الشهوة هي التي تحلِّل وتحرِّم.

وتحرُّك الشهوة ليس المراد منه مجرد شعور قلبي بالإعجاب بالجمال، بل هناك حدث مادي مقترن به حتى يقال: إن هذا النظر بشهوة، وهذا ليس بشهوة، والقرينة هي تحرك الذكر لدى الرجل، وانتحاء جهاز المرأة انتحاء خاصاً بعلامات خاصة مدركة لدى المرأة، تخالف الحالة الطبيعية التي يكون عليها جهازها أو متاعها. وكذلك في كل ما حرم النظر إليه ولمسه وما أشبه من المرأة.

3 ـ النظر إلى الصور والأفلام:

وأما الصورة فالنظر إليها مباح مطلقاً، حتى إن فقهاء الأحناف ممن ذكروا أن الرجل لو نظر في صفيحة الماء ورأى امرأة عارية فالنظر غير محرم ما لم تلتق العينان. وقد كان هذا رأياً فقهياً مذكوراً في بعض كتب الأحناف.

ولكن هنا لدينا قاعدة الضرر الشرعية التي تتكلم على أن أي فرد من أفراد المباح أدى إلى ضرر حرم ذلك الفرد من أفراد المباح وظل المباح مباحاً على أصله. وكذلك مثلها قاعدة الوسيلة إلى الحرام حرام حين يتحقق في الحرام أنه مما حرمه الله ورسوله ثم يكون هذا الحرام حراماً بالفعل، أي أنه أدى إلى

الحرام على نحو فعلي ظاهر عام لا يمكن أن يتخلف عنه، وبناء عليه فالصور العادية حرام بهذه القاعدة الشرعية.

وكذلك الأفلام الخلاعية الإباحية هي حرام لكونها أدت إلى حرام سائد عام؛ وهو إفساد أخلاق شباب المسلمين وشاباتهم، فتحظر وتمنع من التداول.

4 ـ النظر إلى المحارم:

وأما بالنسبة إلى ما يسمح النظر إليه من المرأة من المحارم فهو ما سوى الوجه والكفين من مواضع الزينة، فقد قال سبحانه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:31] وغير أولي الإربة أنما يكونون من الذين انقطعت شهوتهم بالزواج، أو بأنهم ذوو خلق أو دين يمنعانهم من التسلل، أو لا تكون لديهم خساسة والتفات إلى الأمور الجنسية ظاهرياً، وأما أنهم تابعون فهم من الخدم أو الإماء أو العبيد.

والطفل: هم الأطفال، وجعل القرينة عليهم بأنهم صغار غير مميزين أنهم لم يطلعوا على عورات النساء ولا تداولوا شؤون الجنس ولم يعرفوه.

ومعنى مطلع الآية النهي عن إظهار العورة التي هي ما سوى الوجه والكفين، وهو معنى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: 31] التي فسرت عند العلماء والمفسرين بأنها الوجه والكفان. وزينتهن: مواضع زينتهن، وهي ما سوى الوجه والكفين.

وقد دلت السنة على أن عورة الرجال والنساء هي بالسواء، ما بين السرة إلى الركبة، غير أن هذا خاص في النساء على النساء، لأن السنة دلت على أن المرأة لا يصلح أن يرى أجنبي منها ما سوى الوجه والكفين؛ فقد روي عن الرسول ﷺ قوله: «**يا أسماء، إن المرأة إذا عركت لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا**»، وأشار إلى الوجه والكفين. والجملة الأخيرة هي شرح الراوي للإشارة الصادرة عن رسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ومعنى عركت: بلغت المحيض، وقد جاءت رواية أخرى بهذا اللفظ للشارح.

وعليه فإن سن البلوغ الذي يوجب على المرأة التستر هو بلوغ المحيض.

وقد جعل الله سبحانه للبيوت حرمة، فجعل هناك حياة خاصة يحياها الإنسان وهي مفصولة عن الحياة العامة، وهذا ما سنشرحه في بحث الاختلاط.

الاختلاط بين الجنسين

هناك فرق بين الاجتماع والاختلاط، فالاجتماع هو مجرد اجتماع يطلق عموماً على حالة ليس فيها مخالطة، وأما الاختلاط فهو اجتماع الرجال مع النساء في خلطةٍ، وهو المراد بالنهي عنه شرعاً.

فقد جعل الشرع الاختلاط بين الرجال والنساء، ولم يجز في الحياة الخاصة هذا الاختلاط إلا في ظروف معينة. ولشرح هذا لا بد من فهم واقع الحياة العامة.

فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [النور:27-28] فهذه الآية ذكرت البيوت والمقصود بالبيوت أحوالها وسكانها، وليس المراد بها الأحجار، وهو كقوله عز وجل: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82] أي أهل القرية. ولذلك فقد قصدت الحياة وطراز هذه الحياة، وهي حياة خاصة جعل الإذن قرينة عليها في الآية الثانية، ولولا أن الإذن قرينة وليس المراد ما يؤذن فيه وما لا يؤذن لذكره بعد طلبه الأول بدل كلمة «تستأنسوا»، ولكن قصد بالإذن أن يكون قرينة أو أمارة (علامة) على هذه الحياة.

وقد دل الشرع بنص آية النور على الوقائع التي فيها استثناء من الحياة الخاصة، فقال سبحانه: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ

حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور:61] فدلت الآية على استثناء المذكورين من واقع ما يدعى اختلاطاً، فالاجتماع على الطعام جائز ما دام اجتماعاً على طعام، واجتماع ذوي القربى المذكورين جائز دون حرج، كما دلت الآية على واقع الصداقة وجواز الاجتماع فيها، فأما السهرات الخاصة فغير جائزة على الإطلاق لأنها ليست إلا خرقاً للاستثناء، وتظل داخلة في الحظر.

وأما اجتماع السكن فجائز لقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وقوله قبل هذا في نفس السورة: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ فهذا يشمل هذا الوضع الخاص في الآية التي دلت على المستثنيات، ولكن في وضعية الإذن، والتصرف لا في وضعية الاختلاط، غير أن الآية ذكرت ما يملك الإنسان من مفاتح للبيت فهو جائز فيه الاجتماع، وجائز فيه الدخول دون أن يستأذن لنظره.

وقد دلت الآية الكريمة في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النور: 58] دلت على أن العبيد يملكون الإذن مطلقاً في الحياة الخاصة وكذلك الذين هم غير بالغين، وجعل العلة في ذلك بكلمة «طوافون» وهي وصف مناسب يفهم منه علة الطواف بداعي الخدمة، فيقاس عليهم الخدم أيضاً ممن ليسوا عبيداً ملك يمين لوجود علة الطواف فيهم، ولكن الاستثناء للجميع هو في الثلاثة أوقات المذكورة في الآية، يجب فيها على الجميع أن يستأذنوا حين الدخول، هذا واقع الإذن الذي طلبه الشرع هنا.

وأما اجتماع ذوي القرابة فهو جائز بما ذكرناه، ولكن إذا حصلت أمور مخلة بالغطاء للرأس مثلاً فعلى الرجل غض البصر، وعلى المرء أن يجتنب النظر إلى

مواضع الزينة التي نهى الله عنها، ما دام ملزماً بهذه الأوضاع التي تعرض في مجتمعنا للأسف الشديد.

وإذا اجتنب الرجال هذا الوضع فهو أسمى وأحسن.

فالواجب صلة الأرحام، وقد تكون صلة الأرحام بالزيارة أحياناً، والرحم تكون مما يسمى بطن الأم، من خالات وأخوال وأخوات، ولكن العصبة ليست داخلة في الأرحام وهم من العمومة، فلذلك يعدون من القرابة. وأما بنات هؤلاء كلهم فليسوا أرحاماً، والقرابة زيارتها مندوبة، وليست واجبة، كما أن صلة الرحم ليست الزيارة فيها شرطاً لتحقيق صلة الرحم كما يفهم الناس في أيامنا، فقد يكون الإنسان زائراً وقاطع رحم. لأن صلة الأرحام بما دلت عليه النصوص هي الامتناع عن أذى الأرحام بأي سبيل من سبل الإيذاء، وهذا يشمل الدفاع عنهم، وعدم توجيه الأذى من قول أو فعل إليهم، والإساءة هي القطيعة، فلذلك تكون الزيارة مما يحقق الإحسان وليست هي صلة الرحم.

وفي أثناء زيارة الأرحام قد يعرض للمرء ما لا يرغب فيه من انكشاف بنات الخالة أو الخال عليه مما ابتلينا به، وهنا على المرء غض البصر.

وأخيراً بقي أن نذكر حديث ابن عباس الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدركه لا محالة، وزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**» فهذا الحديث فيه أمور عديدة، منها أن قول ابن عباس «اللمم» ليس يعني أن هناك صغائر وكبائر في الشرع، فاللمم الذي ذكره الله في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ **[النجم: 32]** وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ **[الشورى: 37]** وقوله عز وجل: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ **[النساء: 31]** كل هذه الآيات لا تدل على أن هناك صغائر وكبائر.

وكلمة «**زنا**» في الحديث متصلة بما يكون من مقدمات الزنا، ويكون بالنظر بشهوة وكذلك بالقول حين يؤدي الرجل الكلام مع المرأة على وجه يكون فيه ذكر للحرام فيثير شهوتها، أو يدعوها أو يذكرها فتهيج شهوته إزاءها وهي واقفة

أمامه تسمع، فهذا كله من مقدمات الزنا، وهي أمثلة على مقدمات الزنا، وليست كل مقدماته، فلذلك ذكر أن الفرج يصدق ذلك أو يكذبه، ويكون التصديق بدءاً من انتشار الذكر وإنعاظه وانتهاءً بفعل الفاحشة المبينة.

اللباس والزينة

1 ـ لباس المرأة المسلمة:

فرض الله على المرأة لباساً، ولم يفرض على الرجل لباساً معيناً، بل افترض في الرجل أن يستر عورته لأن العورة هي ما بين السرة إلى الركبة، ثم فرض على المرأة لباس الحياة العامة، وحد بينهما علاقة في الحياة الخاصة كما في الحياة العامة، فجعل الأصل فصل النساء عن الرجال في الحياتين الخاصة والعامة، ثم حدد لهذا موضع سكن ذي طراز خاص عاشه المسلمون، فطراز الحياة خاص بسكن خاص، وبلباس خاص، فسمح للمرأة أن تلزم بيتها بلباس البِذْلَةِ والامتهان التي هي الثياب المنزلية العادية التي تتجول فيها أمام محارمها، وألزمها في الحياة العامة بلباس الصيانة والعفاف.

2 ـ لباس الرجل المسلم:

وفرض على الرجل ستر عورته كما ذكرنا، ولكن ليس للرجل أن يلبس ثياباً حريرية، لما روي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «أهديت لرسول الله ﷺ حلة سِيَرَاءُ، فأرسل إلي بها، فلبستها، فأتيته، فرأيت الغضب في وجهه، وقال: إني لم أرسل بها إليك لتلبسها، وأمرني فَأَطَرْتُها بين نسائي» والحلة السيراء: هي المضلعة بالحرير، وقوله: فأطرتها أي شققتها فقسمتها بين النساء، وجعلت لكل واحدة منهن شقة. ولم يرخص للرجال إلا في حالة المرض، وإذا اجتمع أمر ونهي فيحملان على حكم الكراهة، أي يكره التداوي بمحرم.

وكره للرجال أن يلبسوا المعصفر لأنه من ثياب الأعاجم، كما كره للرجال أن يتشبهوا باللباس بالعجم وكذلك في مراكبهم.

3 ـ التشبه في اللباس:

والتشبه لونان وضربان، أحدهما التشبه بما لا يمس الاعتقاد، والآخر التشبه بما يسمى الاعتقاد، فلا يجوز أن يتشبه الإنسان بما يتعلق بعقائد الكافرين من غير المسلمين، فقد نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن أن يكون المرء متناولاً لطعام شابه فيه النصارى، فقال فيما رواه الإمام أحمد: «**لا يختلجن في صدرك طعام ضارعت فيه نصرانية**» والمراد العقيدة والاعتقاد بكلمة «**نصرانية**» فلذلك لا يجوز أن يتناول المرء طعام احتفال بعيد النصارى أو بعيد ميلاد أو نحوه مما يسمى اعتقاداتهم. ومعنى ضارعت: أي شابهت وحاكيت.

وأما النهي عن التشبه بالكفار في حالات معينة كالنهي عن السلام بالإصبع أو بالكف، لأن السلام بالإصبع تحية اليهود، والسلام بالأكف هو سلام النصارى، فهذا يحمل على الكراهة لأنه ليس مما يسمى الاعتقاد، فليس من عقيدة اليهود أن يسلموا هذا السلام المذكور ولا من عقيدة النصارى كذلك السلام المشار إليه.

وأيضاً نهي الرجال عن التشبه بالنساء، ونهي النساء عن التشبه بالرجال، لما روي عن الرسول ﷺ فيما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: «لعن رسول الله ﷺ مخنثي الرجال الذين يتشبهون بالنساء، والمترجلات من النساء المتشبهات بالرجال، والمتبتلين من الرجال الذين يقولون: لا نتزوج، والمتبتلات من النساء اللائي يقلن ذلك، وراكب الفلاة وحده،...» الحديث، وفيه دلالة واضحة عن النهي عن التشبه بالنساء كما فيه النهي عن التشبه بالرجال، وذلك على نحو مطلق. فيجب أن تفصل النساء أنفسهن عن الرجال في اللباس والهيئة والزينة، كما يجب أن يفعل بالمقابل الرجال ذلك.

4 ـ الجلباب الشرعي:

وألزم المرأة بالجلباب في الحياة العامة صيانة لها، ويشترط في الجلباب أن يكون فيه مواصفات أربع هن:

1 ـ أن يكون صفيقاً ولا يحل أن تلبس لباساً يشف عما وراءه، لأن الرسول ﷺ قال في حق اللباس الذي أعطاه الصحابي لزوجه: «**أخاف أن يصف**

حجم عظامها» ويقال في اللغة: الزجاج يصف ما وراءه إذا كان يشف عما وراءه ولا يستره بل يرى من خلاله.

2 ـ أن يكون على وجه غير لافت للنظر، وذلك ألا يكون بلون أو مظهر تقتحمها أنظار الرجال إذا رأوه، وهذا داخل ضمن موضوع فهم التبرج، الذي لا نص من كتاب أو سنة يشرح معنى الكلمة وجب الرجوع إلى أهل اللغة في مدلول الكلمة، فأهل اللغة ينصون على أن التبرج في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: 33] وقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [النور: 60] إنما هو إبداء المرأة محاسنها للرجال الأجانب، وكل ما يتعلق بهيئة المرأة وزينتها بناء على هذا الوصف هو من التبرج، ولكن تقرير ما يعد تبرجاً وما لا يعد يرجع فيه إلى واقع أهل البلد، والجزاء في هذا الشأن. وإذا كان طراز الجلباب مما يكون لافتاً لنظر الرجال فقد سقط عن أن يكون جلباباً. والنهي عن الطيب للنساء، والنهي عن لبس الخلاخيل إنما هو مثال على التبرج وليس كل التبرج.

3 ـ أن يتحقق فيه الإدناء أي الإرخاء إلى الأسفل وذلك لقوله عز وجل: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 59] والإدناء هو الإرخاء إلى الأسفل، وهذا يكفي بالوصول إلى وجه الرجلين في دلالة اللغة.

ومع ذلك فهذا وضع والجلباب وضع آخر.

4 ـ أن يكون فضفاضاً، فإذا كان الجلباب ضيقاً فغير جائز.

وأما الخمار فهو غطاء الرأس في اللغة، فقد طلب الله سبحانه في سورة النور الخمار في قوله سبحانه: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: 31] ولا يدل الخمار إلا على غطاء الرأس ويشترط في غطاء الرأس أن يكون ساتراً، وأن يضرب على الجيب.

5 ـ حجاب المرأة المسلمة

أما الحجاب فهو غير الجلباب إذا دققنا في الفقه، فالحجاب هو لنساء النبي ﷺ خاصة في آية الحجاب: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33] هما خاصتان بنساء الرسول ﷺ بتصريح آية الحجاب إذا تليت جميعاً، وهي آية مرتبطة ببعضها

لفظاً ومعنى، فإن نص الآية هو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53].

ويؤيد كون هذه الآية خاصة بنساء النبي ما روي عن عائشة قالت: «كنت آكل مع النبي ﷺ حيساً في قصعة، فمر عمر فدعاه فأكل، فأصابت إصبعه إصبعي فقال عمر: أواه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، فنزل الحجاب».

وكذلك ما رواه عمر رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو حجبت أمهات المؤمنين، فأنزل الله آية الحجاب».

وما روي أن عمر مر على نساء النبي ﷺ وهن مع النساء في المسجد فقال: «إن احتجبتن فإن لكن على النساء فضلاً، كما أن لزوجكن على الرجال الفضل، فقالت زينب رضي الله عنها: يا ابن الخطاب، إنك لتغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا، فلم يلبثوا يسيراً حتى نزلت». فنص الآية وهذه الأحاديث قطعية الدلالة بأنها نزلت في حق نساء النبي ﷺ ولم تنزل في غيرهن.

وأما آية ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ فهي أيضاً خاصة بنساء النبي ﷺ، ونص الآية كاملاً هو: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 32 ـ 33]. فصدر الآية صريحاً بأنها نزلت في نساء النبي خاصة بهن لأن الخطاب لنساء النبي ﷺ، ولأنه تخصيص بهن ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ولا يوجد أبلغ ولا أدل من هذا النص على أن الآية نزلت في نساء الرسول ﷺ وأنها خاصة بهن، وقد أكد هذا المعنى بآخرها في قوله تعالى في ختام الآية نفسها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وهو صريح بأن هذه الصفة خاصة

بنساء الرسول ﷺ، وقد أكد ذلك في الآية التي بعدها مباشرة، فإنه بعد قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ عقب ذلك فقال: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 34] فذكرهن بأن بيوتهن مهابط الوحي، وأمرهن ألا ينسين ما يتلى فيها من القرآن.

فهاتان الآيتان صريحتان بأنهما لنساء الرسول ﷺ وأنهما خاصتان بنساء الرسول ﷺ، فلا دلالة في أيٍّ منهما على حكم للنساء المسلمات غير نساء الرسول ﷺ.

وهكذا يسقط الاستدلال الزاعم بأن الوجه والكفين عورة، كما يسقط الادعاء بأن المرأة يجب أن تلازم منزلها. كما يسقط الادعاء بأن الفتنة هي التي تحرم أو تحلل، أو أن الشهوة لها مدخل في التحليل والتحريم وحدها. ولم يرد في نص واحد ذكر الفتنة مربوطة بالوجه والكفين.

على أنه يمكن القول: إن القول بأن الوجه والكفين عورة هو قول فقهي له ولو شبهة الدليل، فإذا التزمت به امرأة فلا يجوز منعها إذا غلب على ظنها أن هذا هو حكم الشرع في حقها، فهي تلتزم بحكم شرعي وإن كان زوجها يرى أن هذا القول ليس له دليل، فلا يحل له أن يفرض عليها ما لا تراه حكماً شرعياً في حقها، خصوصاً إذا كانت المسائل تتعدد فيها ثمرات الاجتهاد وفيها أكثر من رأي.

كلام في تعدد الزوجات

يعيش الرجال والنساء في واقعنا المعاصر حالة من الميوعة الفكرية بسبب تسلط الأفكار الغربية الغريبة عن فطرة الحياة التي فطر الإنسان عليها. ومن هذه الأفكار استنكارُ تعدد الزوجات، وكأن الرجال يجدون أن هذا عائب على الإسلام، والإسلام يعلو ولا يُعلى عليه.

فما دام يقيننا بأن الله شرَّع هذا الشرع فلا نكترث لقول أحد بعد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: 105]

فالآية يراد منها أن يكترث المسلمون ويهتموا بإخوانهم في الإسلام، دون أن يلتفتوا إلى الذين ضلوا (وهم الكافرون). وما دامت الآية صريحة بالطلب الذي يفيد الإباحة في قوله عز وجل: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: 3] فأباح أن يجمع بين اثنتين وثلاث ثم يجمع بين الأربع على الإطلاق، ودلت السنة على ما يجوز الجمع بينهن وما لا يجوز الجمع بينهن في العقد. ودلالة النصوص في السنة دلالة واضحة على جواز الجمع مطلقاً دون حرج ما دام المرء مقيماً للعدل بين الأطراف.

وأما ما جاء في الآية بعد هذا الإطلاق للعدد من قوله عز وجل: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء:3] فهو اتفاق العلماء والمفسرون أن المراد هو العدل في النفقة والمال، ولهذا فقد دعا الرسول ﷺ ربه قائلاً: **«اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك»** وما لا يملك إنما فسر بالحب والجماع، فهذا لا مدخل له في الآية كما أن رسول الله ﷺ كان يعدل في قسمته بين الزوجات، أي يجعل لكل واحدة منهن دوراً في يوم يبيت فيه عندها؛ فقد روى الإمام أحمد عن عطاء قال: «حضرنا مع ابن عباس جنازة ميمونة زوج النبي ﷺ بِسَرِفَ، قال: فقال ابن عباس: هذه ميمونة، إذا رفعتم نعشها فلا تزعزعوها ولا تزلزلوها، فإن رسول الله ﷺ كان عنده تسع نسوة، وكان يقسم لثمان، وواحدة لم يكن ليقسم لها. قال عطاء: التي لم يكن يقسم لها صفية» فصفية رضي الله عنها كانت قد تنازلت عن يومها لضرائرها.

وأما ما رواه الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال: **«من كانت له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى، جاء يوم القيامة يجر أحد شقيه ساقطاً أو مائلاً»** فهو في العدل بينهما في النفقة أصلاً لأن الرسول ﷺ قد بيَّن الموضوع فيما ذكرنا وأوضحنا أنه فيما عدا الحب والجماع.

القسم الثاني

العلاقة بين الزوجين
الروحية والمادية

الباب الأول
في الحب والعشق

رأي الإسلام في الحب

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا قال: يا رسول الله! في حجري يتيمة قد خطبها رجل موسر ورجل معدم، فنحن نحب الموسر وهي تحب المعدم! فقال رسول الله ﷺ: «لم ير للمتحابين مثل النكاح!».

فقد أقر رسول الله ﷺ الحب الفطري الطبيعي، وجعل الزواج أفضل طريقة لتتويج هذا الحب.

فالحب عاطفة عفوية تنشأ في صدر الرجل نحو امرأة يأنس فيها من الصفات والسلوك والشكل والأخلاق ما يشده نحوها أو ينشأ في نفس الفتاة التي تجد في رجل ما تلك الصفات والسلوك والشكل الذي تعجب به وتنشد نحوه.

وليس المراد بالحب حب الشهوة العارمة والرغبة الجنسية العابرة، واللذة

---

(1) أخرجه ابن ماجه في الجزء الأول، باب ما جاء في فضل النكاح، ح1847، عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ «لم نر (ير) للمتحابين مثل النكاح»، وفي الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات. ولفظ متحابين يحتمل التثنية والجمع. وأخرجه أيضاً الحاكم النيسابوري في المستدرك، والبيهقي والطبراني وغيرهم. . .وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. والحديث حسن بمجموع طرقه. ورواه التبريزي في المشكاة ج 2/ 930، رقم 3093، وذكره الشيخ ناصر الدين في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» رقم 5200 . قالت هند بنت المهلب: ما رأيت لصالحي النساء وشرارهن خيراً من إلحاقهن بمن يسكن إليه من الرجال، ولرب مسكون إليه غير طائل والسكن على كل أوفق.

القوية فإنه حب كاذب سرعان ما يزول، تاركاً بعده أسوأ النتائج وأفدح المآسي.

بل المراد الحب المبني على أسس عقلانية ملموسة وواقعية حقيقية، مثل التقارب الفكري والتشارك المزاجي والخُلُقي، أي المقصود هو المودة والانجذاب الذي يرتكز على أسس معقولة ذات مضمون واقعي، كما جاء في الحديث الشريف الصحيح عن عائشة ﵂ قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: **«الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف»**.

وليس المقصود بهذا الحب هوى المراهقين الذي لا ينبني إلا على مجرّد النزوات العابرة التي تحركها الشهوة المحمومة، أو إشباع العقد النفسية أو الإعجاب النفسي بالظاهر دون أن ينبني على أساس متين من التوافق الفكري والتشارك الديني والاجتماعي والأخلاقي، والتقارب في الصفات والأخلاق الحميدة.

جاء في كتاب «كيف تبني حياتك الزوجية» [ص24]:

الحب الذي تصوره لنا القصص ما هو إلا نسيج الأحلام. إنه ينشأ عن الأماني والتصورات. إنه يجعل الإنسان يرى فيمن أحب: صورة للرجل المثالي أو المرأة المثالية، التي لا يمكن أن يحياها في عالم الواقع. والحقائق تقف حجر عثرة في سبيله. ومن أجل ذلك كان هذا الحب أعمى. إنك عندما تفكر في الزواج، عليك أن تميز بين ما هو خيالي في الحب، وما هو حقيقي.

ينمو الحب الحقيقي بين الزوجين على مر الأيام، وتدعمه العشرة والصحبة، إنه يحل تدريجياً محل الحب الخيالي، كلما ازدادت العشرة والصحبة . . . وليس معنى ذلك أنه لا يصح الزواج بين غير المتحابين، فإن الحب ـ غالباً ـ يتولد بعد الزواج نتيجة تبادل المودة وحسن التفاهم والمعاملة الطيبة، وإنكار الذات[1].

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وأبو داود في سننه وأحمد في مسنده وغيرهم.

(2) انظر كتاب «تحفة العروس: الزواج الإسلامي السعيد»، تأليف محمود مهدي الإستانبولي، ص58 ـ 66، بيروت، العالمية للطباعة والنشر.

ومن صور الحب العارم في زمن النبي ﷺ حب العبد مغيث لزوجته الحرة بريرة بعد فراقها له بناء إلى إصرارها بتطليقه لها، وقد صارت أجنبية عنه، وكانت دموعه تسيل على خدّيه، فقال النبي ﷺ: «**يا ابن عباس! ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً؟!**» ثم قال ﷺ لها: «**لو راجعتِهِ**». فقالت: أتأمرني[1]؟ فقال: «**إنما أنا شافع**». قالت: «لا حاجة لي فيه»[2].

قال الإمام ابن القيم تعليقاً على هذا الحديث:

«.. ولم ينهه الرسول ﷺ عن عشقها في هذه الحال، إذ ذلك شيء لا يملك...» وقال أيضاً: «..فهو شفاعة من سيد الشفعاء لمحب إلى محبوبته. وهي أفضل الشفاعات وأعظمها أجراً عند الله! فإنها تتضمن اجتماع محبوبين على ما يحب الله ورسوله. فلهذا كان أحب ما لإبليس وجنوده التفريق بين هذين المحبوبين».

وفي حادثة أخرى روتها كتب السنة أيضا أنه شكا إلى النبي ﷺ رجلٌ أن امرأته لا ترد يد لامس! فقال: «**طلقها**». قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إن عندي امرأة هي من أحب الناس إلي وهي لا تمنع يد لامس، قال: «**طلِّقْها**»، قال: لا أصبر عنها، (وفي رواية أنه قال: إني أخاف أن تتبعها نفسي)، فقال له ﷺ: «**فاستمتع بها!**»[3].

جاء في كتاب «روضة المحبين» للإمام ابن القيم:

«قال بعض أهل العلم: راعىٰ النبي ﷺ دفع إحدى المفسدتين بأدناهما، فإنه

---

(1) جاء في كتاب «حجة الله البالغة» [2/ 714] وصف لقصة بريرة أنها أعتقت، وكان زوجها عبداً، فخيرها رسول الله ﷺ فاختارت نفسها. أقول السبب في ذلك أن تكون الحرة فراشاً للعبد عار عليها، فوجب دفع ذلك العذر عنها إلا أن ترضى به، وإنصافاً لأمة تحت يد مولاها ليس رضاها ـ أي بالنكاح ـ رضا حقيقة. وإنما النكاح بالتراضي. فلما أعتقت كان أمرها بيدها، ووجب ملاحظة رضاها..

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق / 15، باب شفاعة النبي ﷺ على زوج بريرة.

(3) أخرجه النسائي في سننه وضعّفه وأحمد في مسنده.

لما شكا إليه أنه لا يصبر عنها، ولعل حبه يدعوه إلى معصية، أمره أن يمسكها مداراة لقلبه ودفعا للمفسدة التي يخافها، باحتمال المفسدة التي شكا منها».

وقد فسر بعضهم هذا الحديث بصور كثيرة، وأصحها ما ذكره الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه السابق فقد قال:

«إن الرجل لم يشك من المرأة أنها تزني بكل من أراد ذلك، ولو سأل عن ذلك، لما أقره رسول الله ﷺ على أن يقيم مع بغي! ويكون زوج بغي ديوثاً! وإنما شكا إليه أنها لا تجذب نفسها ممن لاعَبَها ووضع يده عليها، أو جذب ثوبها، ونحو ذلك، فإن من النساء من تلين عند الحديث واللعب ونحوهما، وهي حصان عفيفة إذا أريد منها الزنى! وهذا كان عادة كثير من نساء العرب، ولا يعدون ذلك عيباً» انتهى [ص130].

مراتب الحب والمحبين(1)

الحب في الاصطلاح هو ميل الطبع في الشيء الملذّ، وهو عاطفة مركبة، منها الهوى وهو التوجه للمحبوب، والعلاقة وهي الحب يلزم صاحبه، وسميت علاقة لتعلّق النفس بالمحبوب، ثم الكَلَف وهي المرتبة الثالثة في الحب، وأصلها من الكلفة وهي المشقة، ثم العشق وهو فرط الحب، والشغف وهو الحُرقة يجد فيها المحب لذته في الحب، واللوعة مثل الشغف، ثم الجوى وهو الهوى الباطن وشدة الوجد من العشق، ثم التتيُّم وهو أن يستعبده الحب، ثمّ التَبَل وهو أن يُسقمه الحب، ثم الوَلَه وهو ذهاب العقل في الهوى. وفي الحب تكون الصبابة وهي رقة الشوق إلى المحب، والوَمَق وهو شدة المحبة، والوَجْد وهو الحب الذي يتبعه حزن، والشَجَن وهو حب فيه الهَمّ. والشوق والاشتياق نزاع النفس إلى الشيء، والوَصَب ألم المحبة. والسهر والأرق والكَمَد قد تكون

(1) الموسوعة النفسية الجنسية 138 ـ 153.

من لوازم الحب والشوق. والخُلّة توحيد المحبة وهي رتبة لا تقبل المشاركة، والوُدُّ خالص المحبة، والغرام هو الحب اللازم للشخص.

وكل هذه الأسماء مظاهر سلوكية وحالات سيكولوجية لشيء واحد، أو عاطفة مفردة تعني التأثر الوجداني بالمحبوب، والإحساس بالترابط مع شخصه، والشوق والحنين إليه.

وقد يكون الحب لإنسان أو حيوان أو شيء. والحب إذا قوي وتأكد فهو العشق، وقيل في التفرقة بينهما أن الحب أو المحبة يكون بلا شهوة، بينما العشق يُقرن بالشهوة. وقيل إن عنصر الشهوة موجود بالحب دائماً، وقيل إنه ليس شرطاً أن يحوي الحب عنصراً شبقياً، وأنه يكفي أن يكون عاطفة أغلب وجداناتها المحبة، وتستهدف الارتباط بشخص آخر أو شيء مشخّص، وطلب الخير والسعادة لذلك الشخص.

وقيل إن المحبة قد تتسامى فتخلو من كيفية جنسية، وقيل إن المحبة معناها صوفي أو ديني أكثر منه علمي، وحقيقة المحبة عند الصوفية هي أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء، والعشق عندهم أقصى درجات المحبة، ومعناه اتحاد ذات المحبوب بذات المحب، اتحاداً يوجب غفلة المحب، شُغلاً بشهود محبوبه في ذاته بذاته، ولذا قيل إن العشق أقصى مقامات الذهول والغيبة، وأولاها الغرامُ وهو الانتشاء من خمر المحبة، ثم الافتتان وهو خلع العذار وعدم المبالاة بالخَلْق، ثم الوَلَه وهو مقام الحيرة، ثم الدهش وهو الذهول، ثم الفناء عن رؤية النفس، وهو أن يكون العاشق لا يسمع إلا لمحبوبه، ولا يبصر إلا به، ولا يدرك إلا به وله، ومنه فناء به عن نفسه وعن الأشياء كما كان قيس ابن الملوح المسمى مجنون ليلى.

والحب عند العرب يختلف عنه عند الغربيين، وهو عندهم قد بلغ من الفن درجة يتجاوزها أي وصف. وبينما لا نجد في كل لغات العالم للحب إلا كلمة أو اسماً واحداً (في الانكليزية love وفي الفرنسية amour وفي الإيطالية amore وفي الألمانية libé) نعثر في مخصص ابن سيده على أربعة عشر اسماً له، فهو العشق، والعلاقة، والولوع، والهوى، والجوى، واللعج، والشغف، والتيم،

والتبل، والتدلّه، والهيام، والصبوة، والوجد، والغرام. وليس في أي لغة أخرى ما يضاهي هذه الكثرة من الأسماء للحالات النفسية المختلفة للحب، والتي تدل على دراية وعلم بها عند العرب لم يتسن لغيرهم من الشعوب.

وفي مخصص ابن سيده أبواب لصفات وأسماء أعضاء الذكورة والأنوثة، ونعوت النساء في الجماع وذلك دليل انشغال بأمور الحب الجسدية وغير الجسدية لم نعرفه في ثقافة أخرى من الثقافات. وليس في الثقافات الأخرى بقدر ما في الثقافة العربية من أوصاف لحالات الوجد الصوفي، وليس فيها هذا الكم الهائل من المتصوفة وشعراء الصوفية.

ولا نعرف شاعراً عربياً إلا وقد كتب في الغزل قديماً، وكان الغزل والتشبيب بالنساء مجالاً مشتركاً في كل قصيدة حتى وإن كانت في الهجاء أو الرثاء.

وفي الأدب العربي ملحمة كبرى في الجنس هي «ألف ليلة وليلة». وهناك من الكتب ما تخصص في أغاني الحب والعشق وأشعاره، مثل «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، ومن الكتَّاب من لا عمل له إلا الكتابة عن الجنس، كالجاحظ حين يكتب عن النساء والقيان والجواري والغلمان. وبعض هذه الكتب قد تفرغ للمُلَح الجنسية أمثال: «الزهرة» لابن داود، و«الموشّى» لابن إسحق الوشّاء، و«اعتلال القلوب في أخبار العشاق» لابن الخرائطي، و«طوق الحمامة» لابن حزم، و«مصارع العشاق» لجعفر السرَّاج، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة، و«مطالع البدور في منازل السرور»... وغيرها الكثير من كتب التراث.

وحتى ما عرف في الأدب العربي باسم الحب الصوفي، كان اتجاهاً من الصوفية إلى شحن مفهوم الألوهية جنسياً، وإلى توجيه الطاقة الجنسية ناحية التعبد. وقد جاءت مصطلحات الصوفية لهذا السبب ذات طابع شبقي.

ورغم أن الرواية العربية والمسرحية حديثتان، إلا أن الجنس منذ البداية كان المحور الذي تدوران عليه. وهكذا كانت «زينب» للدكتور هيكل، و«دعاء الكروان» لطه حسين. ولم تكن «الأيام» لطه حسين، وهي سيرة ذاتية، بمنأى عن

الجنس، فلقد انتهى أمر الفتى بطل الأيام إلى حب ارتفع به إلى مكانة اجتماعية عالية.

ولربما كان هذا الاتجاه المتسامي هو بعض ما اتجه إليه كاتب رومانسي مثل محمد عبد الحليم عبد الله، غير أن الواقعية سادت أخيراً في الرواية العربية، واتخذت أحياناً شكلاً وجودياً كما عند غادة السمان، وشكلاً إباحياً كما عند إحسان عبد القدوس.

وتميزت الاتجاهات الجديدة في الرواية والمسرح والشعر بتحرر في مناقشة الجنس، ولعل الشعر يكثف التجربة الجنسية، بينما الرواية تسهب في طرحها.

وهناك من الشعراء من ألف دواوين بأكملها في النساء والجنس مثل نزار قباني. وأيضاً هناك من الروائيين من يتجه بكامله إلى الجنس مثل إحسان عبد القدوس. وعلى أي الأوضاع فإن بعض هذه الاتجاهات مأخوذ عن الغرب، والبعض أصيل فينا.

كيف يقع الحب؟!

أردت في هذا الفصل والذي يليه أن أعرض جانباً من مضمون كتاب «طوق الحمامة» وأبين منهجه في التناول وطريقته في التحليل والتعليل والاستشهاد، واجتزأت في ذلك بهذين الفصلين، حتى لا يطول الأمر بعرض أفكار ابن حزم وأغراضه جميعاً.

وقد بحث ابن حزم الأسباب التي ينشأ عنها الحب، إذ «لا بد لكل حب من سبب يكون له أصلاً»[1].

وجرى في عرضه لتلك الأسباب على الترقي في مراتبها، فيذكر الأبعد والأهون، ثم الأقوى والأشهر، ليحاكي بذلك المراتب الواقعية ويصطحب معه

(1) طوق الحمامة: 19.

تجربته ومشاهدته مهما خالف ذلك المشهور المعلوم، فيبدأ بسببٍ لولا أنه شاهده لم يذكره لغرابته، فقد دخل يوماً على أبي السريّ عمار بن زياد مولى المؤيد فوجده مفكراً مهتماً، فسأله عما به، فتمنع ساعة ثم قال: لي أعجوبة ما سُمِعَت قط، فحكى له أنه رأى في نومه جارية فاستيقظ وقد ذهب قلبه فيها وهام بها. فبقي أياماً كثيرة تزيد على الشهر مغموماً مهموماً لا يهنئه شيء وجداً، إلى أن نصحه ابن حزم ألا يشغل نفسه بغير حقيقة وألا يعلق وهمه بمعدوم لا يوجد.

وتعليل ذلك عند ابن حزم أنه من حديث النفس وأضغاثها، وهو داخل في باب التمني وتخيل الفكر[1].

ولكن هذا السبب الذي يبدأ به ابن حزم نادر لا يستحق أن يترجم له بباب وليس من الشائع أو المأثور، ولكن ابن حزم لا يهمل من الواقع شيئاً مهما صغر، ولا يسقط من تجربته جانباً وإن قل.

فابن حزم يرعى الواقع ويهتم بأي شاردة يلمُّ بها فيجعل لها مكاناً في دراسته لعلها أن تكون عارضاً يلم بغيره في أي زمان أو مكان.

أما غيره من الأدباء الذين تناولوا موضوع الحب بالدراسة، فما كان ليلقى بالاً إلى مثل هذه الحادثة النادرة، فلا يشغل بها حيزاً ولا يضع لها عنواناً حتى لا ينقد بإيراد شيء ليس له صداه في الأدب من قبله ولا في الواقع من حوله، وهذا يؤكد أن ابن حزم طراز فريد في تناوله لموضوع الحب جديد في رواية أخباره.

وبعد ذلك يترقى ابن حزم درجة في أسباب الحب، فمن العشق في النوم إلى العشق بالوصف، وهذا في نظره من غريب أصول العشق، وقد رأى منه ابن حزم ما وقع لغير ما واحد، ولكنه يرى أنه «بنيان هارٍ على غير أسس»[2].

إذ إن الذي «أفرغ ذهنه في هوى من لم ير، لا بد له إذ يخلو بفكره أن يمثل

(1) طوق الحمامة: 20 .
(2) طوق الحمامة: 20 .

لنفسه صورة يتوهمها وعيناً يقيمها نصب ضميره... فإن وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية، وكلا الوجهين قد عَرَض وعُرِفَ»[1].

ويقول ابن حزم في الأساس الذي يقوم عليه الحب بالوصف:

ويا من لامني في حبْـ ... ـبِ من لم يَرَه طَرْفي

لقد أفرطتَ في وصفـ ... ـك لي في الحب بالضعفِ

فقل هل تُعرف الجَنَّـ ... ـة يوماً بسوى الوصف

ولكن ابن حزم لا يقتنع بهذا السبب، بدليل أنه ينظم شعراً في ضد هذا المعنى فيقول:

وصفوكَ لي حتى إذا أبصرتُ ما ... وصفوا علمتُ بأنه هذيانُ

فالطبل جلدٌ فارغ وطنينه ... يرتاع منه ويَفْرَق الإنسانُ[2]

وحتى الآن لم يرتق ابن حزم إلى الأسباب الحقيقية التي ينشأ عنها الحب، إذ التزم أن يعرض أولاً أوهى الأسباب حتى يصل إلى أقواها.

والسبب الطبيعي لنشوء العاطفة النظر، فهو الذي ينشأ عنه الاستحسان والميل، وقد رأينا أن ابن داود جعل سبب العشق النظر والسماع.

وحين يصل ابن حزم إلى أن النظر سبب وقوع الحب يبدأ بأضعف أحواله، وهو وقوعه في نظرة واحدة.

فيرى أن ذلك كثيراً ما يقع، غير أنه ربما يقع لغير معروف الاسم والمكان والمنشأ كأن يتعلق الإنسان بمن لا يعرفها، ثم تغيب عنه ويبقى ذكرها في فؤاده، وقد يقع لمن هي معروفة الاسم والمكان والمنشأ.

وفي رأي ابن حزم «أن من أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر ومخبر بسرعة السلو، وشاهد الظرافة والملل،

---

(1) طوق الحمامة: 21.

(2) طوق الحمامة: 21.

وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نمواً أسرعها فناءً، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاداً»[1].

أما الذي يراه ابن حزم دائماً ثابتاً لا يحيك فيه مر الليل فهو الذي يقع بعد طول المخافتة وكثير المشاهدة ومتمادي الأنس[2]، فإن ما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً. هذا مذهب ابن حزم ويستشهد له بما حُدِّثَه عن شيوخه أنه جاء في الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسد آدم وهو فخار فهاب وجزع: ادخل كرهاً واخرج كرهاً.

أما هذه القاعدة التي يستشهد لها ابن حزم فما أراها ثبتت باستقراء ولا استحكمت بدليل، ولكنها مذهبه في الحكم على جميع الأشياء في نموها وفنائها، واستشهاده عليها بما جاء في الأثر لا يهبها قوة ولا حياة، فكثيراً ما يقع الشيء بعد عناء ثم ينقضي أسرع من لمح البصر في الأشياء المادية والمعنوية على السواء، وكل ما نتفق مع ابن حزم فيه أن العشق لا يقع إلا مع التعرض لأسبابه وطول الوقوف على أبوابه، وأن الادعاء بوقوعه من أول لمحة توهم أو مغالطة، وأن بإمكان الإنسان أن يتجنبه بتجنب أسبابه والعزوف عن مظانه، كما يحكي ابن حزم عن بعض من رآهم أن أحدهم إن أحس من نفسه بابتداء هوى، أو توجس من استحسانه ميلاً إلى بعض الصور استعمل الهجر وترك الإلمام، لئلا يزيد ما يجد، فيخرج الأمر عن يده، ويحال بين العَير والنَّزوان.

وهذا التجنب والمباعدة يدل في رأي ابن حزم على لصوق الحب بأكباد أهل هذه الصفة، وأنه إذا تمكن منهم لم يحل أبداً، وفي ذلك يقول ابن حزم:

سأبعد عن دواعي الحب إني	رأيت الحزمَ من صفة الرشيدِ
رأيت الحب أوله التصدي	بعينك في أزاهير الخدودِ
فبينا أنت مغتبِط مخلى	إذا قد صرتَ في حَلَق القيودِ[3]

(1) طوق الحمامة: 21 .
(2) طوق الحمامة: 23 ـ 24 .
(3) طوق الحمامة: 25 .

أما ادعاء العشق من نظرة واحدة فإن ابن حزم يعجب منه ويطيل العجب ولا يكاد يصدقه ولا يجعله إلا ضرباً من الشهوة: «وأما أن يكون في ظني متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً في حجاب القلب فما أقدر ذلك»[1].

ويحدثنا ابن حزم عن نفسه ليدعم رأيه بتجربته، فيخبر أنه ما لصق بأحشائه حب قط إلا مع الزمن الطويل، وبعد ملازمة الشخص له دهراً وأخذه معه في كل جد وهزل.

ويبدو أن حديثه هنا يشمل المودة والصحبة، وكذلك هو في السلوّ والتوقّي، ما نسي ودًّا له قط، بل ما طاب عيشاً بفراق زمن أو مفارقة عهد، وهذا يؤكد ما ذكره من أن ما يبطؤ نموه يبطؤ فناؤه ويعسر[2].

لكن حديث ابن حزم عن أسباب وقوع الحب وتفاوتها يشعر بتناقض مع رأيه الذي أعلنه من قبل في باب ماهية الحب، وهو أن الحب اتصال بين النفوس في عالمها العلوي، فإن مقتضى ذلك القول أن الحب حقيقة ثابتة لا تكتسب بطول اللقاء ولا يزيدها الوداد ولا ينقصها الجفاء.

وقد تنبه لذلك ابن حزم وحاول الاحتراز عن هذا الاعتراض بأن ذلك ليس مخالفاً لقوله المسطر في صدر الرسالة، بل هو مؤكد له[3].

ويشرح ذلك بأن «النفس في هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب ولحقتها الأعراض وأحاطت بها الطبائع الأرضية الكونية، فسترت كثيراً من صفاتها وإن لم تُحلْه لكن حالت دونه، فلا يرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له بعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها ومقابلة الطبائع التي خفيت بما يشابهها من طبائع المحبوب، فحينئذ يتصل اتصالاً صحيحاً بلا مانع»[4].

---

(1) طوق الحمامة: 25 .
(2) طوق الحمامة: 25 .
(3) طوق الحمامة: 26 .
(4) المصدر السابق.

ولكن هذا الاحتراز غير مقنع، بل هو خلط للمعاني بالماديات وتصوير للأعراض الحسية بصورة الحقائق النفسية، فادعاء ستر جوهر النفس بالحجب - إن صح - لا يفيد معه أن تزول تلك الحجب بإدمان النظر وكثرة اللقاء، وهما من قبيل الماديات لا سبيل لهما إلى رياضة النفس، وذلك يجعلنا نسأل ابن حزم: ما دام الحب لا يقع إلا مع المطاولة وكثرة التعرض لأسبابه، فلم لا يكون عرضاً مكتسباً تشترك الحواس مع الخيال في صنعه ونموه، كنبات يبذر فلا يزال يتعهد بالرعاية حتى ينمو؟

وما دامت الحواس - وخاصة السمع والنظر - هي طريق وقوع الحب، فما الذي يجعله اتصالاً بين أجزاء النفوس وتمازجاً بين أجزائها في أصل عنصرها الرفيع؟

علامات الحب

من المعهود في أشعار المحبين وصفُهم لأحوالهم وذكرهم للعوارض التي تصيبهم عند رؤية أخلائهم، من الرعدة أو البهتة، أو الوجل والذهول وغير ذلك.

أما ابن حزم فإنه في ذكره لعلامات الحب لم يسر في طريق التقليد فيسرد هذه الأحوال كما تصورها أشعار السابقين، ولكنه اعتمد على الملاحظة التي تقودها الفطنة، ويهدى إليها مراعاة الواقع.

وقد استشهد على تلك العلامات بأشعاره، كما التزم في كتابه، وقد أفردنا للشعر فصلاً خاصاً، فلا نذكر هنا الملاحظات التي تتبدى للناظر في شعر ابن حزم، وخاصة في باب علامات الحب. وفي ذكر ابن حزم لعلامات الحب نلحظ بينها علامات تقليدية أثبتها الشعراء والمتكلمون في العشق من قلبه، كالاضطراب الذي يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه، أو عند سماع اسمه فجأة. وهذا المعنى شهير وأثير في أشعار مجنون ليلى. ويستشهد له ابن حزم من شعره بقوله:

إذا ما رأت عيناي لابسَ حُمْرة تقطَّع قلبي حسرةً وتفطَّرا
غدا لدماء الناس باللحظ سافكاً وضرَّج منها ثوبه فتعَصْفرا[1]

وكالبهت والرعدة التي تبدو على المحب من تجربته ومشاهدته، وليس لها شواهد في الأشعار المأثورة، ومنها:

أن يجود المرء ببذل كل ما يقر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك؛ كل ذلك ليبدي محاسنه ويرغب في نفسه، «فكم من بخيل جاد، وقطوب تطلّق، وجبان تشجَّع، وغليظ الطبع تطرَّب، وجاهل تأدب»[2].

ومن هذا النوع الذي يسجله ابن حزم من تجربته ومشاهدته علامات قد لا تتفق مع مذهبه في العفاف، ولا تتسق مع قوله بأن امتزاج الروح هو حقيقة الحب. والذي دعا ابن حزم إلى إيراد هذه العلامة هو حرصه على تسجيل الواقع واعتبار المشاهدة، بعيداً عن التصنع والتأليف، ومن تلك العلامات: «الانبساط الكثير الزائد، والتضايق في المكان الواسع، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما، وكثرة الغمز الخفي، والميل بالاتكاء، وتعمد لمس اليد عند المحادثة، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة..»[3] وهكذا يعمد ابن حزم إلى إثبات ما يظهر للناس من علامات الميل بقطع النظر عن دلالتها، فهو لا يحكي أحوالاً سمعها ولكنه يعول على تجربته ومشاهدته في كل موقف ثم على خبر الثقة من أهل زمانه.

ولا نعدم لابن حزم في باب علامات الحب أخباراً يؤيد بها ملاحظاته أو يستفيد منها، ومن ذلك ما يذكره عن بعض من يعلم: كان محبوبه يعده في الزيارة، فما كان يراه ابن حزم إلا جائياً وذاهباً لا يقر به القرار ولا يثبت في مكان واحد قد استخفه السرور بعد ركانة، وأشاطه بعد رزانة. وما حرص ابن

(1) طوق الحمامة: 12.
(2) طوق الحمامة: 13.
(3) المصدر السابق.

حزم على إثبات مثل هذا الخبر مع أنه لا يفيد جديداً ولا يثبت عجيباً إلا لالتزامه باستخراج الأحوال من الأخبار واستقراء المعاني من الوقائع، فقد كان صاحب منهج دقيق ينفر من التقليد ويسأم من الرواية دون فحص أو إثبات، وذلك هو المنهج العلمي السليم.

وهكذا نرى في هذين المثالين اللذين أوردتهما من طوق الحمامة نموذجاً يوضح لنا كيف تناول ابن حزم موضوع الحب، وكيف اصطحب معه تجربته ومشاهدته في كل مجال، وكيف نفر من رواية الأخبار المتوارثة والأشعار الشائعة وأفسح المجال لشعره فحسب، وكيف كان حريصاً على الجدل والاحتراز؛ يؤيد رأيه ويستدل عليه بشواهد من العقل والتجربة.

وهو تناول جديد وفريد لموضوع الحب، يجعل ابن حزم نمطاً متميزاً بين الدارسين للعاطفة، والكاتبين في معانيها.

الرحمة بالمحبين والشفاعة لهم

يقول الله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء: 85]. ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: 2].

ويقول عليه أفضل الصلاة و السلام: «**اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما أحب**»[1].

وقد تقدم معنا في قصة بريرة في الفقرة السابقة كيف حاول النبي أن يشفع لزوجها عندها ويدعوها لأن ترجع إليه.

وجاء في الحديث الصحيح أنه: «زوَّج رجل على عهد رسول الله ﷺ ابنةً له، وكان خطبها قبل ذلك آخر فبلغ النبي ﷺ أنها كارهة هذا الذي زوجها

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، وأبو داود والترمذي والنسائي.

أبوها، وأنه كان يعجبها أن يزوجها بالآخر، فأهدر ﷺ نكاح أبيها وزوَّجها من تريد»(1) وروي الحديث بألفاظ أخرى.

مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خلافته بطرق من طرق المدينة، فإذا جارية تطحن برحاها وتقول:

وهويتُهُ من قبل قطع تمائمي ... متمايساً مثلَ القضيب الناعم

وكأن نور البدر سُنَّة وجهه ... ينمي ويصعد في ذؤابة هاشم

فدقَّ عليها الباب فخرجت إليه فقال: ويلك أحرة أنت أم مملوكة؟!

فقالت: بل مملوكة يا خليفة رسول الله. قال فمن هويت؟! فبكت ثم قالت: بحق الله سألتك إلا انصرفت عني قال: لا أريم أو تعلميني.

فقالت:

وأنا التي لعب الغرام بقلبها ... فبكت لحب محمد بن القاسم

فصار أبو بكر إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه، وبعث إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب وقال: هؤلاء فتن الرجال. وكم مات بهن من كريم، وعطب عليهن من سليم!

وقد روى الإمام ابن حزم قصة غريبة في الشفاعة التي نحن بصدد الكلام عليها فقال: «باع رجل أندلسي جارية، وكان يحبها كثيرا، لفقر أصابه، من رجل من أهل ذلك البلد، ولم يظن بائعها أن نفسه تتبعها بعد البيع، فلما صارت عند المشتري كادت نفس الأندلسي تخرج. فأتى الذي ابتاعها منه وحكمه في ماله أجمع فأبى عليه، فوسط أهل البلد فلم يفلح فشكى أمره إلى الملك، فلما مثل بين يديه أخبره بقصته واسترحمه وتضرع إليه، فرق له الملك فأمر بإحضار الشاري فحضر فقال له الملك:

هذا رجل غريب، وهو كما تراه، وأنا شفيعه إليك. فأبى هذا الشاري وقال: أنا أشد حبا لها منه. فاعتذر الملك من الأندلسي. فما كان منه إلا أن

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، والنسائي وابن ماجه في سننهما.

ألقى بنفسه من أعلى العلية إلى الأرض، فارتاع الملك وصرخ فابتدر الغلمان من الداخل فأنقذوه وأعادوه إلى الملك، فهم أن يرمي بنفسه ثانية فمنع. فالتفت الملك إلى المشتري وقال له: إن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته وقذف بنفسه يريد الموت. فأنت قم فأثبت حبك وترمَّ من أعلى هذا العلية كما فعل صاحبك، فإن مت فبأجلك، وإن عشت كنت أولى بالجارية. فتردد الشاري وقبل إعادتها فاشتراها منه الملك ودفعها إلى بائعها العاشق»[1].

هدي النبي ﷺ في علاج العشق

العشق مرض من أمراض القلب مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكن واستحكم عز على الأطباء داؤه وأعيا العليل دواؤه، وإنما حكاه الله سبحانه في كتابه عن طائفتين من الناس من النساء وعشاق الصبيان المردان؛ فحكاه عن امرأة العزيز في شأن يوسف وحكاه عن قوم لوط فقال تعالى إخباراً عنهم لما جاءت الملائكة لوطاً: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ **[الحجر: 67 ـ 72]**.

وأما ما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله ﷺ حق قدره أنه ابتلي به في شأن «زينب بنت جحش» وأنه رآها فقال: سبحان مقلِّب القلوب، وأخذت بقلبه وجعل يقول لزيد بن حارثه أمسكها حتى أنزل الله عليه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ **[الأحزاب: 37]**، هذا الزاعم أن ذلك في شأن العشق، وصنّف بعضهم كتاباً في العشق وذكر فيه عشق الأنبياء وذكر هذه الواقعة. وهذا من جهل القائل بالقرآن وبالرسل وتحميله كلام الله ما لا يحتمله ونسبته إلى

(1) روضة المحبين بتصرف واختصار ص 375 ـ 382.

رسول الله ﷺ إلى ما برَّأه الله منه. فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ قد تبنَّاه وكان يدعى زيد بن محمد، وكانت زينب فيها شمم وترفُّع عليه فشاور رسول الله ﷺ في طلاقها فقال له رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**»، وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد؛ وكان يخشى من قالة الناس أنه تزوج امرأة ابنه لأن زيداً كان يدعى ابنه. فهذا هو الذي أخفاه في نفسه، وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له، ولهذا ذكر سبحانه هذه الآية يعدد فيها نعمه عليه، لا يعاتبه فيها، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أحل الله له وأن الله أحق أن يخشاه فلا يتحرج مما أحله له لأجل قول الناس. ثم أخبره أنه سبحانه زوَّجه إياها بعد قضاء زيد وطره منها لتقتدي أمته به في ذلك ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبني لا امرأة ابنه لصلبه، ولهذا قال في آية التحريم محدِّدًا: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء: 23] وقال عزّ وجلّ في مكان آخر: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب: 40]، وقال في أولها: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ [الأحزاب: 4]، فتأمَّل هذا الذب عن رسول الله ﷺ ودفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق.

نعم كان رسول الله ﷺ يحب نساءه وكان أحبهن إليه عائشة رضي الله عنها ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد سوى ربه نهاية الحب، بل صح أنه قال: «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً**» وفي لفظ: «**وإن صاحبكم خليل الرحمن**»(1).

وعشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى المعرضة عنه المتعوضة بغيره عنه. فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقائه دفع ذلك عنه مرض عشق الصور، ولهذا قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]. فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: ج1/ 46 باب الخوخة والممر في المسجد ح 455 عن ابن عباس، ومسلم في صحيحه: ج1/ ح 532، وج4 باب فضائل أبي بكر الصديق، كما رواه الترمذي في سننه أيضاً، وغيرهم.

فصرف المسبب صرف لسببه، ولهذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ يعني فارغاً مما سوى معشوقه، قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ [القصص: 10]، أي فارغاً من كل شيء إلا من «موسى» لفرط محبتها له وتعلق قلبها به.

والعشق مركَّب من أمرين: استحسان للمعشوق، وطمع في الوصول إليه، فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق.

وقد أعيت علة العشق على كثير من العقلاء وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن ذكره إلى الصواب فنقول: قد استقرت حكمة الله عز وجل في خلقه وأمره على وقوع التناسب والتآلف بين الأشباه، وانجذاب الشيء إلى موافقه ومجانسه بالطبع، وهروبه من مخالفه ونفرته عنه بالطبع، فسر التمازج والاتصال في العالم العلوي والسفلي إنما هو التناسب والتشاكل والتوافق، وسر التباين والانفصال إنما هو بعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر؛ فالمثل إلى مثله مائل وإليه صائر، والضد عن ضده هارب وعنه نافر وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]، فجعل سبحانه علّة سكون الرجل إلى امرأته كونها من جنسه وجوهره فعلة السكون المذكور وهو الحب كونها منه فدل على أن العلة ليست بحسن الصورة ولا الموافقة في القصد والإرادة ولا في الخلق والهدي وإن كانت هذه أيضاً من أسباب السكون والمحبة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«الأرواح جنود مجنَّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»**[1]، وفي مسند الإمام أحمد وغيره في سبب هذا الحديث أن امرأةً بمكّة كانت تضحِكُ الناس فجاءت إلى المدينة فنزلت على امرأة تضحك الناس فقال النبي ﷺ: **«الأرواح جنود مجندة...»** الحديث.

وقد استقرت شريعته سبحانه أن حكم الشيء حكم مثله فلا تفرق شريعته بين متماثلين أبداً ولا تجمع بين متضادين، ومن ظنَّ خلاف ذلك فإما لقلّة علمه

---

(1) متفق عليه: رواه البخاري بسنده عن عائشة، ومسلم بسنده عن أبي هريرة.

بالشريعة، وإما لتقصيره في معرفة التماثل والاختلاف، وإما لنسبته إلى شريعته ما لم ينزل به سلطان، بل يكون من آراء الرجال، فبحكمته وعدله ظهر خلقه وشرعه، وبالعدل والميزان قام الخلق والشرع وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين. وهذا كما أنه ثابت في الدنيا فهو كذلك يوم القيامة قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 22 ـ 23]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعده الإمام أحمد رحمه الله: «أزواجهم أشباههم ونظراؤهم». وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: 7]، أي قرن كل صاحب عمل بشكله ونظيره، فقرن بين المتحابين في الله في الجنة، وقرن بين المتحابين في طاعة الشيطان في الجحيم، فالمرء مع من أحب شاء أو أبى. وفي مستدرك الحاكم وغيره عن النبي ﷺ: «**لا يحب المرء قوماً إلا حشر معهم**»(1).

والمحبة أنواع متعددة فأفضلها وأجلها المحبة في الله ولله وهي تستلزم محبة ما أحب الله وتستلزم محبة الله ورسوله ﷺ. ومنها محبة الاتفاق في طريقة أو دين أو مذهب أو نحلة أو قرابة أو صناعة أو مراد ما. ومنها محبة لنيل غرض من المحبوب إما من جاهه أو من ماله أو من تعليمه وإرشاده أو قضاء وطر منه وهذه هي المحبة العرضية التي تزول بزوال موجبها، فإن من وَدَّكَ لأمر وَلَّى عنك عند انقضائه.

وأما المحبة المشاكلة والمناسبة التي بين المحب والمحبوب فمحبة لازمة لا تزول إلا لعارض يزيلها، ومحبة العشق من هذا النوع فإنها استحسان روحاني وامتزاج نفساني ولا يعرض في شيء من أنواع المحبة من الوسواس والنحول وشغل البال والتلف ما يعرض من العشق، فإن قيل: فإذا كان سبب العشق ما

(1) رواه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد: المجلد العاشر: 41 ـ كتاب الزهد/ 73 ـ أبواب في المحبة، 13 ـ باب المرء مع من أحب. ح رقم 18021 . وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ هن حق: لا يجعل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له، ولا يتولى الله عبد فيوليه غيره، ولا يحب رجل قوماً إلا حشر معهم**». رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن ميمون الخياط وقد وثق.

ذكرتم من الاتصال والتناسب الروحاني فما باله لا يكون دائماً من الطرفين بل تجده كثيراً من طرف العاشق وحده فلو كان سببه الاتصال النفسي والامتزاج الروحاني لكانت المحبة مشتركة بينهما؟؟ فالجواب أن السبب قد يتخلف عنه مسببه لفوات شرط أو لوجود مانع وتخلّف المحبة من الجانب الآخر لا بد أن يكون لأحد ثلاثة أسباب:

الأول: علة في المحبة وأنها محبة عرضية لا ذاتية، ولا يجب الاشتراك في المحبة العرضية بل قد يلزمها نفرة من المحبوب.

الثاني: مانع يقوم بالمحب يمنع محبة محبوبه له إما في خَلْقِه أو في خُلُقِه أو هديه أو فعله أو هيئته أو غير ذلك.

الثالث: مانع يقوم بالمحبوب يمنع مشاركته للمحب في محبته ولولا ذلك المانع لقام به من المحبة لمحبه مثل ما قام به بالآخر.

فإذا انتفت هذه الموانع وكانت المحبة ذاتية فلا يكون قط إلا من الجانبين ولولا مانع الكبر والحسد والرياسة والمعاداة في الكفار لكانت الرسل أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم. ولمَّا زال هذا المانع من قلوب أتباعهم كانت محبتهم لهم فوق محبة الأنفس والأهل والمال.

والمقصود أن العشق لما كان مرضاً من الأمراض كان قابلاً للعلاج وله أنواع من العلاج، فإن كان مما للعاشق سبيل إلى وصل محبوبه شرعاً وقدراً فهو علاجه كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**». فدل المحب على علاجين أصلي وبدلي وأمره بالأصلي وهو العلاج الذي وضع لهذا الداء فلا ينبغي العدول عنه إلى غيره ما وجد إليه سبيلاً.

وروى ابن ماجه في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**لم نرَ للمتحابين مثل النكاح**». وهذا هو المعنى الذي أشار إليه سبحانه عقيب إحلال النساء حرائرهن وإمائهن عند الحاجة بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ

ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: 28]. فذكر تخفيفه في هذا الموضع وإخباره عن ضعف الإنسان يدل على ضعفه عن احتمال هذه الشهوة وأنه سبحانه خفف عنه أمرها بما أباحه له من أطايب النساء مثنى وثلاث ورباع، وأباح له ما شاء مما ملكت يمينه، ثم أباح أن يتزوج بالإماء إن احتاج إلى ذلك علاجاً لهذه الشهوة وتخفيفاً عن هذا الخلق الضعيف ورحمة به.

وإن كان لا سبيل للعاشق إلى وصال معشوقه، قدراً أو شرعاً، أو هو ممتنع عليه من الجهتين وهو الداء العضال، فمن علاجه إشعار نفسه اليأس منه فإن النفس متى يئست من الشيء استراحت منه ولم تلتفت إليه، فإن لم يزل مرض العشق مع اليأس فقد انحرف الطبع انحرافاً شديداً فينتقل إلى علاج آخر وهو علاج عقله بأن يعلم بأن تعلق القلب بما لا مطمع في حصوله نوع من الجنون، وصاحبه بمنزلة من يعشق الشمس وروحه متعلقة بالصعود إليها والدوران معها في فلكها. وهذا معدود عند جميع العقلاء في زمرة المجانين.

وإن كان الوصال متعذراً شرعاً لا قدراً، فعلاجه بأن ينزله منزلة المتعذر قدراً إذ ما لم يأذن فيه الله فعلاج العبد ونجاته موقوف على اجتنابه فليشعر نفسه أنه معدوم ممتنع لا سبيل له إليه، وأنه بمنزلة سائر المحالات فإن لم تجبه النفس الأمارة فليتركه لأحد أمرين: إما خشية وإما فوات محبوب هو أحب إليه وأنفع له. فالعاقل متى وازن بين نيل محبوب سريع الزوال بفوات محبوب أعظم منه وأدوم وأنفع وألذ أو بالعكس ظهر له التفاوت، فلا بد أن يتبع لذة الأبد التي لا خطر لها بلذة ساعة تنقلب آلاماً وحقيقتها أنها أحلام نائم، أو خيال لا ثبات له، فتذهب اللذة وتبقى التبعة وتزول الشهوة وتبقى الشقوة.

وثمةَ أمرٌ آخر هو: حصول مكروه أشق عليه من فوات هذا المحبوب، بل يجتمع له الأمران أعني فوات ما هو أحب إليه من هذا المحبوب وحصول ما هو أكره إليه من فوات هذا المحبوب، فإذا تيقن أن في إعطاء النفس حظها من هذا المحبوب هذين الأمرين، هان عليه تركه ورأى أن صبره على فواته أسهل من صبره عليهما بكثير. فعقله ودينه ومروءته وإنسانيته تأمره باحتمال الضرر اليسير الذي ينقلب سريعا لذة وسروراً وفرحاً لدفع هذين الضررين العظيمين، وجهله

وهواه وظلمه وطيشه وخفته يأمره بإيثار هذا المحبوب العاجل بما فيه جالباً عليه ما جلب والمعصوم من عصمه الله.

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء ولم تطاوعه لهذه المعالجة فلينظر ما تجلب عليه هذه الشهوة من مفاسد عاجلة وما تمنعه من مصالحها فإنها أجلب شيء لمفاسد الدنيا وأعظم شيء تعطيلاً لمصالحها؛ فإنها تحول بين العبد وبين رشده الذي هو ملاك أمره وقوام مصالحه.

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء فليتذكر قبائح المحبوب وما يدعوه إلى النفرة عنه، فإنه إن طلبها وتأملها وجدها أضعاف محاسنه التي تدعو إلى حبه، وليسأل جيرانه عما خفي عليه منها فإن المحاسن كما هي داعية الحب والإرادة فالمساوئ داعية البغض والنفرة، فليوزان بين الداعين وليحب أسبقهما وأقربهما منه باباً، ولا يكن ممن غره لون الجمال على جسم أبرص مجذوم وليجاوز بصره حسن الصورة إلى قبح الفعل، وليعبر من حسن المنظر والجسم إلى قبح المخبر والقلب.

فإن عجزت عنه هذه الأدوية كلها لم يبق له إلا صدق اللجأ إلى من يجيب المضطر إذا دعاه، وليطرح نفسه بين يديه على بابه مستغيثاً به متضرعاً متذللاً مستكيناً. فمتى وفق لذلك فقد قرع باب التوفيق فَلْيَعِفَّ وليكتم، ولا يشبب بذكر المحبوب ولا يفضحه بين الناس ويعرضه للأذى، فإنه يكون ظالماً معتدياً.

بطلان حديث «من عشق فعفّ مات شهيداً»

لا يغترّ بالحديث الموضوع على رسول الله ﷺ الذي رواه سويد بن سعيد عن علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، ورواه عن أبي مسهر أيضاً عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عن النبي ﷺ. ورواه الزبير بن بكار عن عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي حازم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «من عشق فعف فمات فهو شهيد»، وفي رواية: «من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له

وأدخله الجنة». فإن هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ولا يجوز أن يكون من كلامه، فإن الشهادة درجة عالية عند الله مقرونة بدرجة الصديقية، ولها أعمال وأحوال هي شرط في حصولها، وهي نوعان: عامة وخاصة فالخاصة الشهادة في سبيل الله، والعامة خمس مذكورة في الصحيح ليس العشق واحداً منها!

وكيف يكون العشق الذي هو شرك في المحبة وفراغ القلب عن الله وتمليك القلب والروح والحب لغيره، تنال به درجة الشهادة؟ هذا من المحال فإن إفساد عشق الصور للقلب فوق كل إفساد بل هو خمر الروح الذي يسكرها ويصدها عن ذكر الله وحبه والتلذذ بمناجاته والأنس به، ويوجب عبودية القلب لغيره، فإن قلب العاشق متعبد لمعشوقه بل العشق لب العبودية، فإنها كمال الذل والحب والخضوع والتعظيم. فكيف يكون تعبد القلب لغير الله مما تنال به درجة أفاضل الموحدين وساداتهم وخواص الأولياء، ولا يحفظ عن رسول الله ﷺ لفظ العشق في حديث صحيح ألبتة. ثم إن العشق منه حلال ومنه حرام فكيف يظن بالنبي ﷺ أنه يحكم على كل عاشق يكتم ويعف بأنه شهيد، فترى من يعشق امرأة غيره أو يعشق المردان والبغايا ينال بعشقه درجة الشهداء، وهل هذا إلا خلاف المعلوم من دينه بالضرورة؟ كيف والعشق مرض من الأمراض التي جعل الله سبحانه لها الأدوية شرعاً وقدراً؟ والتداوي منه إما واجب إن كان عشقاً حراماً وإما مستحب.

وأنت إذا تأملت الأمراض والآفات التي حكم رسول الله ﷺ لأصحابها بالشهادة وجدتها من الأمراض التي لا علاج لها كالمطعون والمبطون والمجنون والحريق والغريق وموت المرأة يقتلها ولدها في بطنها. فإن هذه بلايا من الله لا صنع للعبد فيها ولا علاج لها، وليست أسبابها محرمة، ولا يترتب عليها من فساد القلب وتعبده لغير الله ما يترتب على العشق، فإن لم يكف هذا في إبطال نسبة هذا الحديث إلى رسول الله ﷺ فقلد أئمة الحديث العالمين به وبعلله فإنه لا يحفظ عن إمام واحد منهم قط أنه شهد له بصحة بل ولا بحسن، كيف وقد أنكروا على سويد هذا الحديث ورموه لأجله بالعظائم واستحل بعضهم غزوه لأجله؟

قال أبو أحمد بن عدي في كامله: هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد، وكذلك قال البيهقي إنه مما أنكر عليه، وكذلك قال ابن طاهر في الذخيرة، وذكره الحاكم في تاريخ نيسابور وقال: أنا أتعجب من هذا الحديث فإنه لم يحدث به عن غير سويد وهو ثقة، وذكره أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب الموضوعات وكان أبو بكر الأزرق يرفعه أولاً عن سويد فعوتب فيه فأسقط النبي وكان لا يجاوز به ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن المصائب التي لا تحتمل جعل هذا الحديث من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ، ومن له أدنى إلمام بالحديث لا يحتمل هذا ألبتة ولا يحتمل أن يكون من حديث الماجشون عن ابن أبي حازم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً وفي صحته موقوفاً على ابن عباس نظر.

وقد رمى الناس سويد بن سعيد راوي هذا الحديث بالعظائم وأنكره عليه يحيى بن معين وقال: هو ساقط كذاب لو كان لي فرس ورمح كنت أغزوه. وقال الإمام أحمد: متروك الحديث: وقال النسائي: ليس بثقة. وقال البخاري: كان قد عمي فيلقن ما ليس من حديثه. وقال ابن حبان: يأتي بالمعضلات عن الثقات يجب مجانبة ما روى. انتهى.

وأحسن ما قيل فيه قول أبي حاتم الرازي: إنه صدوق كثير التدليس، ثم قول الدارقطني: هو ثقة غير أنه لَمَّا كبر كان ربما قرىء عليه حديث فيه بعض النكارة فيجيزه. انتهى.

وعيب على مسلم إخراج حديثه وهذه حاله، ولكن مسلماً روى من حديثه ما تبعه عليه غيره ولم ينفرد به، ولم يكن منكراً ولا شاذاً، بخلاف هذا الحديث والله أعلم.

الباب الثاني

الاتصال الجنسي وأهمّيته في حياة الزوجين

تمهيد[1]

عندما نتحدث عن بدء المعرفة الجنسيّة نتناول أولاً السنّ الذي يبدأ المرء يشعر فيه بمطالب جنسيّة.

ولقد حدّد العلم هذه السنّ بالثالثة عشرة والرابعة عشرة، ولكنّ هذا لا يعني أنّه أصبح بإمكان هذا المرء مزاولة العمل الجنسيّ.

لأن ممارسة العمل الجنسيّ تختلف كثيراً عن الشعور به، أو تلطيفه، إن النظريّة المغلوطة والتي لازالت حتى الآن سائدة في بعض طبقات مجتمعنا تعتبر في الحقيقة جناية لا تغتفر، ومغايرة للحياة الجنسيّة، وهي تلك الرابطة، رابطة الزواج التي تتحقق في الرابعة عشرة، فيجد هؤلاء الفتيان والفتيات أنفسهم يمارسون العمل الجنسيّ دونما أن يكتمل تركيبهم الفسيولوجي التناسلي.

إن الرغبة في المعرفة، ثم المقدرة على فهم تفسيرات حول هذه الأمور لهما قيمة مفيدة. ولا يخفى أيضاً أن العاطفة الجنسيّة تلعب دوراً هامّاً في نمو العقل الإنساني وتطوره.

---

(1) هذا الفصل مستفاد من كتاب «تحفة العروس: الزواج السعيد في الإسلام» تأليف مجدي محمد الشهاوي، وعزيز أحمد العطار، القاهرة: المكتبة التوفيقية، بلا تاريخ.

ولذلك يفسر العلماء ويضعون العاطفة الجنسيّة في المقدمة، بل الأصل الذي يتقدّم كل عاطفة، وكل شعورٍ في حياتنا العقليّة والعاطفيّة[1].

معتقدات خاطئة وخرافات عن الجنس

لعل المتزوِّجين صغار السن، سواء أكانوا من الذكور أو الإناث، في أي بلدٍ شرقيّ على الأخصّ، لا يتلقَّون ثقافة جنسِيّة سليمة في الوقت المناسب، فتمتلئ أذهانهم ونفوسهم بالخزعبلات، والأقاصيص والتهويلات التي يتوارثونها عن الأجيال السابقة، أو يسمعونها من الخادمة.

وكثيراً ما يكون هذا سبباً في إفساد السعادة الكبرى المنتظرة[2]. فكم يخطئ الزوج وشريكته في فهم عدد المرات التي يمارس غيرهما من الأزواج الجنس، وسوء الفهم يفرض ضغطًا إضافيّاً على الرجل فيفقد ثقته وشجاعته، ولهذا فإن المعلومات عن عدد المرات قد تعود عليه بالفائدة.

ولا يوجد من يعلم علم اليقين كم مرة في الأسبوع يمارس الرجل المتوسّط الجنس، ومن الصعب جمع الإحصاءات.

ولذا فإن الممارسة الجنسِيّة تختلف وتتباين باختلاف وتباين العمر، فالفتاة الصغيرة السن أكثر نشاطاً في ممارستها من الفتاة الأكبر سنّاً.

مثال ذلك: أثبتت الدراسات أن 44% من الرجال يمارسونها 3 أو 4 مرات أسبوعيّاً، متى ناهزوا الثلاثين من عمرهم.

وأن 5% من الذين تتراوح أعمارهم بين 50 أو 60 سنة يمارسونها 3 أو 4 مرات أسبوعياً.

وأن 16% يمارسونها مرة واحدة أو مرتين في الأسبوع.

وفي العقد الثامن أقل من 1% يمارسها 3 أو 4 مرات في الأسبوع.

---

(1) المعرفة الجنسيّة، د. كليفورد أدامي، ص 54.

(2) «أسرار الحياة الزوجية»، محمد رفعت، ص 84.

وأن أقل من 5 % يمارسونها مرة أو مرتين، وهذه المعلومات بنيت على أسس وطيدة من الدراسة والإحصاء.

وما أكثر الذين يظنّون أن العزّاب من الرجال أنشط جنسياً من المتزوّج، وأنه يسرف ولا يتورع، بيد أنه ثبت بعد التجربة والاختبار أن المتزوج أكثر نشاطاً[1].

ولقد تأكد أن المرأة لا تفقد نشاطها وميولها الجنسِيّة بعد بلوغ سنّ اليأس، وذلك على الرغم من التغيرات الفيزيولوجية المتعددة التي تعيبها، مثل: بطلان الدورة الشهرية، والدوخة، والهبات الساخنة، والصداع، ثم ضمور أنسجة المهبل وقلة إفراز غدده.

ولا تدل جميع هذه التغيرات، ولا تشكل أي دليلٍ على أن مشاعر المرأة الجنسِيّة قد خفت أو بردت، ولإعادة البهجة والنشاط إلى المرأة يجدر تشجيعها على بناء ثقافة جنسِيّة واعية، وإعطاؤها بعض هرمونات الأنوثة والذكورة، مع إقناعها بأنها ما زالت تتمتع بجميع صفات الأنوثة[2].

فيزيولوجية الأعضاء التناسلية وسيكولوجية الجنس

الشهوة الجنسية جزء من تركيب النفس الإنسانية، خلقها الله تعالى لحفظ النوع. قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران: 14].

والإسلام لا يستنكر الشهوة الجنسية أو يستقبحها، ولكن ما يستنكره الإسلام أمران[3]:

1 ـ تصريف الشهوة بطريق الحرام.

2 ـ المبالغة والإسراف ولو بطريق الحلال.

---

(1) واجبات الزوج، إميل خليل، ص 40.

(2) المرأة في رحلة العمر، غسان الزهيري، ص 277.

(3) المعلومات في هذا الفصل مستقاة من كتاب «آداب الحياة الزوجية في ضوء الكتاب والسنة»، تأليف الشيخ خالد عبد الرحمن العك، وهي من توجيه وإرشاد دكتورة اختصاصية بأمراض النساء والتوليد وجراحتها، هي الدكتورة فاطمة السكاف، نشر دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

وقد عالج الإسلام قضية الشهوة الجنسية بطريقتين لا تغني أولاهما عن الأخرى:

1 ـ الزواج المبكر.

2 ـ تقوية باعث الدين، وإضعاف باعث الشهوة؛

من أجل تقوية باعث الدين: أوجب التربية الدينية منذ الصغر، وغرس خلق الحياة في نفس الطفل، كما فرض العبادات والعمل منذ سن البلوغ. ومعلوم أن تحمل المسؤولية يجعل الروح الإنسانية تتسامى فوق شهواتها... وقد قال أحد المفكرين: «إن نقص الإحساس بالواجب يؤدي إلى تفتّح الشهوة الجسديّة». كما أوجب الإسلام مراقبة الولد، واختيار الأصدقاء الصالحين.

ومن أجل إضعاف باعث الشهوة: أوجب الإسلام غض البصر ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: 30]، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: 31].

ويتبع ذلك عدم النظر إلى العورات، وعدم مشاهدة الأفلام الماجنة، أو المجلات المثيرة.

كما فرض الإسلام الحجاب، ومنع الاختلاط.

إن إضعاف الشهوة يستوجب مجاهدة النفس من أجل الكف عن المحارم، ومن أجل الالتزام بالطاعات. قال أحد العارفين: «لا نوم أثقل من الغفلة، ولا رق أملك من الشهوة، ولولا ثقل الغفلة ما ظفرت بك الشهوة»!! وقال أحد العارفين: «لا تزول الشهوة إلّا بشوق مقلق، أو خوف مفزع»!!

وهناك تعليمات طبية تساعد على إضعاف باعث الشهوة:

1 ـ الإكثار من الحمامات الباردة صيفاً، وعدم النوم في غرفة دافئة شتاءً.

2 ـ عدم الإكثار من البهارات والتوابل.

3 ـ عدم الإكثار من المنبهات كالشاي والقهوة.

4 ـ عدم الإكثار من اللحوم والبيض، والعسل.

5 ـ عدم النوم حاقناً.

6 ـ عدم النوم على البطن.

[وهذا موجه للشباب والشابات قبل الزواج، أما بعد الزواج فالشأن مختلف...].

مكانة الغريزة الجنسية في نظام الخلق وسنة الله في تكاثر الإنسان

من بدائع نعمة الله تعالى أن خلق من «الماء» بشراً فجعله نسباً وصهراً[1]!! وفرض على عباده أي قدّرها قدراً كونياً فجعلها غريزة متأصلة في أصل الفطرة البشرية شهوة الجنس، فاضطرهم بها إلى التناسل والتكاثر طوعاً أو كرهاً، ثم عظّم سبحانه أمر النسب وجعل له قدراً، وحرّم الزنا والبغاء وجعله من أقبح القبائح ووضع له عقوبات ردعاً وزجراً... ورغب في النكاح، أي الزواج، وحثّ عليه بكلّ وسيلة بدءاً من الأنبياء، عليهم السلام، حتى أدنى البشر قدراً، وبث بذور النطاف في أرحام الأمّهات بعد النكاح لحفظ النسل جبراً!! تنبيهاً على أن بحار المقادير فياضة على العالمين نفعاً وخيراً... وطيًّا ونشراً...

إن الحياة الجنسية التناسلية، لدى الزوجين، سرٌّ عظيم من أسرار الله الكبرى في حياة مخلوقاته، ولقد أرشدنا الحقّ سبحانه إلى ذلك في كتابه الحكيم، وأمرنا أن نمعن الفكر والنظر فيها بلفتات كريمة في آياته المحكمات، فقال تعالى:

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: 45 ـ 46].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [فاطر: 11].

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2].

(1) من تقديم الدكتور عبد الرؤوف عباس لكتاب «فيزيولوجيا العلاقة الجنسية» للدكتور محمد صالح الأصيل، بتصرف يسير.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة: 7 ـ 9].

ونحن إذا أردنا أن نمعن النظر ونجول الفكر في بعض ما جاء في كتاب الله سبحانه، وعلى لسان رسوله ﷺ، مما يتعرض للحياة الجنسية التناسلية؛ نجد أن الله جل جلاله قال في محكم كتابه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ [النور: 32]. وقال: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ [البقرة: 232] وهذا منع من العضل ونهي عنه.

والعضل: منع الأيم من الزواج ظلماً.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ [الرعد: 38]. فجعل من سنن الأنبياء الزواج. ومدح سبحانه أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ [الفرقان: 74].

والرسول ﷺ قال: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(1).

والباءة: الجماع. والوجاء: كسر الشهوة والحد من هيجانها.

وقال ﷺ: «**من رغب عن سُنَّتي فليس منِّي**» لمن قال من أصحابه: لا أتزوج النساء؛ فأجابه: «**لكني .. أتزوج النساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس منِّي**»(2)، وفي هذا تهديد ووعيد لمن ترك الزواج وهو قادر عليه بماله وصحته. وقال: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»(3).

والأصل في الزواج استمتاع الزوجين بالجماع، ويتحقق به شيئان: أحدهما

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم، رقم 5066، وأخرجه مسلم في صحيحه رقم 1400.

(2) رواه مسلم في صحيحه رقم 1401.

(3) رواه مسلم في صحيحه رقم 1467.

حفظ النسل. والثاني إزالة الاحتقان. وقد جعل الله سبحانه من ورائه حصول اللذة وإشباع الغريزة، ليحث الكائن الحي على استعماله.

إن الحق تبارك وتعالى وضع سراً عظيماً في الحياة الجنسية التناسلية، فإذا لم يدرك البشر وظيفتها وقيمتها العظمى، وخرجوا فيها عن حدود ما سنّه الخالق العظيم، دخلوا مداخل الشقاء والهلاك، فكم تهدّمت دول وأمم وشعوب لسوء تفهّمها وظيفة هذه الحياة، فانحطّت من أزواج رفعتها، وتحطّمت بعد سموّ مكانتها، وفسدت بعد صلاحها، وإنّ التاريخ لشاهد عيان، وحسبنا ما الحال عليه في عصورنا الأخيرة، وعلى الأخصّ بعد اكتشاف مرض عدم المناعة المكتسب «الإيدز».

إن استعمال هذه الوظيفة باعتدال وضمن إطار الخلق القويم، والدين الحنيف، ينبوع الحياة، والفوضى فيها خروج عن ناموس الحياة، وكل خروج عن الناموس يصيب قوى الإنسان بالضعف والوهن إذ تضعف الأبصار، وتخور القوى، وترتجف الأيدي، وتغور الصدور، وتحدودب الظهور... ويندم الإنسان حيث لا يفيد الندم..

وبعد: إن أبحاث هذا الفصل للتثقيف والإرشاد، وليست للإثارة والإفساد، فهذه الإشارة لمن يطلع عليها من الشباب والشابات قبل الزواج، وهي للمتزوجين والمتزوجات معلومات هامة لواقع الحياة الزوجية.

العلاقة الجنسية بين الزوجين وما يعقبها من وظائف بيولوجية واجتماعية

إن العلاقة الجنسية بين الزوجين من أخص أنواع المشاركة الإنسانية بين البشر، إنها تمتاز بخصائص فريدة من بين سائر العلاقات البشرية.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

إن الحياة الجنسية بين الزوجين تشمل نواحيْ الوجود الإنساني: الروح والنفس والجسد، فتوحد بينها في وظيفة واحدة، هي من خير الوظائف الإنسانية.

ولذلك كانت المشاركة الجنسية كاملة تامة في الزواج، لاكتسابها الديمومة والاستمرار، وآثار البقاء من الذرية، من البنين والحفدة، ولن يتحقق هذا بغير الزواج الذي شرعه الله تعالى لعباده.

فالاتصال الحرام بين الرجل والمرأة له آثار سلبية موحشة، وآلام نفسية خطيرة؛ فإن كان بسبب حبّ بينهما فإن هذا الاتصال المؤقت المحفوف بمخاوف الفضيحة، لن يجعلهما يحظيان بسعادته. وإن كان بسبب تفريغ لطاقة الغريزة والشهوة، فإن كلًّا من الرجل والمرأة في بحث مستمر لتجديد الشريك لقضاء هذا الوطر المتدنّي، وهذا ليس فيه من آثار السعادة النفسية إلا بمقدار الوقت الذي انقضى ومضى مع ذلك اللقاء الحيواني الذي انعدمت فيه الروابط الإنسانية الكريمة.

وأخطر ما في الاتصال الجنسي المحرم، ما يترتب عليه من عدم الاعتراف بحق ما يتولد منهما، فالرجل سرعان ما يبادر إلى إنكار هذا المولود أن يكون منه، لما يعلم من هذه المرأة التي طاوعته في الحرام، أن تكون مطاوعة لغيره منه.

والمرأة أمام هذا ليس لها خيار بين أمرين: إما أن تحمل هذا المولود بعاره وشناره، وإما أن تلقيه في طريق العامة ليلتقطوه.. وهي في هذا تقدم للمولود بالحرام حرماناً أبدياً من عطف الأبوين ورعايتهما الحانية الرحيمة، إضافة إلى حرمانه من النسب الذي يفتخر به كافة البشر، وفوق ذلك حرمان على طول الحياة من القرابة العصبية والقرابة الرحمية، فلا أب له ولا جد ولا أعمام ولا جدة ولا عمات، ولا خال له ولا خالات، فهو مقطوع أبتر.

وهنا يتوجه السؤال إلى أصحاب هذه الجريمة النكراء: ما الذي جناه هذا المولود لينال كل هذا الحرمان الجائر؟؟ فهل من مجيب؟ كلا!! لأن الإنسان إذا

فقد كرامته وشرفه وعرضه، فلن يستطيع أبداً أن يمنح ذلك لأحد حتى ولو كان متولداً منه تولداً غير شرعي....

وهنا نستشعر عظمه قول ربنا تبارك وتعالى في تحريمه للفاحشة حيث يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32].

وقوله تعالى في رفع شأن الزواج وقيمته: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ [النحل: 72].

ومن هنا يتوجب علينا فهم العلاقة الزوجية الكريمة المباركة الباقية المستمرة، التي يتوجها الدافع الجنسي، أو العشق الجنسي بين الزوجين.

إن الغريزة الجنسية لدى الزوجين خاصة تشبه غريزة الإشباع العضوي في الجسم البشري، بل ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً، فالجوع والعطش عاملان أساسيان في إرواء الجسد وتغذيته، فلا يمكن استمرار حياة الإنسان بدونهما، وإن الغدد التي يتعلق بها النمو الجنسي لدى الرجل والمرأة متعلقة بالإشباع العضوي في الجسد، الذي يُعتبر ضرورياً لاستمرار الحياة، وهذا ما يضطرنا إلى تزويد الجسد بالكميات اللازمة والهامة من الغذاء.

ومن هذا الغذاء تتكون في الجسم طاقات حرارية يجب صرفها في الاتجاه الصحيح والسليم في الحياة المعيشية، فكان من ذلك العمل والسعي في طلب الرزق، فالطاقة تولد الحركة، والحركة تولد الكسب لجلب الرزق.

ومن الطاقة المتولدة من الغذاء الطاقة الجنسية المستوجبة للصرف الصحيح المتزن، ولا سبيل لذلك إلا بـ «الزواج»!!.

وإن شهية الغريزة الجنسية عبارة عن إحساسات بالمثيرات المتعلقة بذلك، وهي تحقق ميول الرجل إلى المرأة، وميول المرأة إلى الرجل. وهذا ما يدفعهما إلى التزاوج إن أرادا اختيار السبيل السليم لذلك.

فبالزواج يستمتع كلا الزوجين بشهوة الغزيرة الجنسية في حياة ملؤها الحب والمودة والعطف والحنان.

والإنجاب، والذي بدونه تتعطل أكبر جوانب العطاء لدى الزوجة، فإذا

فاتتها الفترة الزمنية الزاهرة لتحقيق ذلك، وجدناها ذابلة خاملة لم تزوّد أحداً بشذا الحياة.

وعلى العكس تماماً نجد المرأة المتزوّجة قد تبوّأت منزلةً عاليةً لدى زوجها، ومكانةً ساميةً لدى أبنائها.

إنها بزواجها أتحفت زوجها بسعادة الأبوّة، وأطفالها بأريج البنوّة، وقدّمت للحياة زهوراً بشرية متفتحة من جديد!!

كما أتحفت نفسها بأغلى أمنية لدى نساء العالمين، بأن نالت شرف الأمومة التي هي مدرسة الحياة الأولى، والخالدة!! وفي هذا قال أحد الحكماء: وراء كل عظيم امرأة!! نعم! هي الأم ولدت ثم ربت ثم أنشأت رجالاً عظماء!!

وهنا نستشعر عظيم شأن الأم في قول رسول الله ﷺ حين سأله أحد أصحابه:

من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»! قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»!! قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»!!! قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»![1].

ويعرف أحد الأطباء بعض الحالات التي تدل بصورة مدهشة على أن اللذة الجنسية وثيقة الصلة لدى المرأة بالوظيفة البيولوجية[2].

وقد سمعنا عن نساء متزوجات كن يعشن الحياة السعيدة في حياتهن الجنسية خلال سنوات الإنجاب، فلما علمن بأنهن لا يمكن أن ينجبن أطفالاً أصبحن باردات جنسياً، لخلو اللقاح من الفاعلية في الميدان البيولوجي.

وإلى هذا يمكن عزو البرود الجنسي لدى الزوجات اللائي يئسن من الإنجاب، وذلك في سن الخمسين فما فوق.

على أن كثيرات من المتزوجات يرغبن في الجماع في سن الإياس، لفراغ أفكارهن من الحمل والولادة والإرضاع، وما يصاحب ذلك من عناء...

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه رقم 5971، ومسلم في صحيحه رقم 2548.

(2) البيولوجيا: علم الكائنات الحية، ويتضمن علم الخلايا والأنسجة والتشريح.

والعنصر الثاني الانفعالي من الحياة الجنسية هو الحب!!

إن الحياة الزوجية حقل زاهر وروضة غناء بأريج الرابطة الدائمة والمستمرة بين الزوجين، التي تحفل بالنشاط والحيوية والعطاء!!...

ولا أَصْدَقَ من قول رسول الله ﷺ في ذلك: **«لم ير للمتحابين مثل الزواج»**[1]!!

فالزوجان المتحابان يشعران حين يستيقظان من نشوتهما أنهما قد تجددا وبُعثا من جديد، وإذا بهما ينظران إلى بعضهما كأنهما في ليلة الزفاف يرشفان من غدير الحب المتدفق عبر حناياهما، وهما يشدوان ألحان الصدق والوفاء!!

وإن الحب الصادق الذي يتأجج من لمسات اللقاء الجنسي يفيض عليهما صبغة فريدة من النشوة في السعادة الزوجية!!

وإن الدافع الجنسي والحب في طبيعتهما يربطهما بعلاقة متبادلة، تجعل كلًّا منهما يتعلق بصاحبه من غير كلل أو ملل!!

وعلى هذا فإن العلاقة الجنسية الصرفة بين الزوجين، والتي تهمل فيها رابطة الحب الصادق، هي علاقة شهوانية بحتة، سرعان ما تندثر آثارها، وتنعدم معطياتها.

فكان على الزوجين لزوم تصعيد مراحل الحب عن طريق العشق الجنسي فيما بينهما، لإقامة حياة زوجية متكاملة ملؤها المودة والحنو والألفة!

المداعبة

من سنن الإسلام مداعبة الزوجة. والمرح معها وملاعبتها، فقد كان رسول الله ﷺ يمزح مع نسائه، إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق حتى روى

---

(1) رواه ابن ماجه في سننه رقم 1847، ورواه التبريزي في المشكاة ج2/ 930، رقم 3093، وذكره الشيخ ناصر الدين في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم 5200 .

النسائي وأبو داود وابن ماجه أنه كان يسابق عائشة في العدو؛ فسبقته يوماً، ثم سبقها في بعض الأيام فقال: «**هذه بتلك**»[1].

وقال عمر بن الخطاب ـ بالرغم من خشونته المعروفة ـ: ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي، فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلاً.

وفي الصحيحين من حديث جارية بن وهب الخزاعي «**ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر**»، وفي رواية لأبي داود: «**لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري**» أي الشديد على أهله، المتكبر في نفسه، وفي حديث النبي ﷺ لجابر: «**هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك**».

ولكن التوسط في المداعبة خير، كالتوسط في كل الأمور ويستحب أن يبدأ باسم الله تعالى، ويقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ **[الإخلاص: 1]** أولاً، ويكبر ويهلّل. ويقول: باسم الله تعالى العلي العظيم، اللهم اجعلها ذرية طيبة إن كنت قدرت أن تخرج ذلك من صلبي.

وقال عليه السلام فيما يرويه الشيخان عن ابن عباس: «**لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: اللهم! جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا. فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان**».

وإذا قربت من الإنزال فقل في نفسك ولا تحرك شفتيك: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ **[الفرقان: 54]**.

ثم ينحرف عن القبلة ولا يستقبل القبلة بالوقاع إكراماً للقبلة.

ثم إذا قضى وطره فليتمهّل على أهله حتى تقضي هي أيضاً نهمتها. فإن إنزالها ربما تأخر فيهيج شهوتها... ثم القعود عنها إيذاء لها. والاختلاف في طبع الإنزال يوجب التنافر مهما كان الزوج سابقاً إلى الإنزال. والتوافق في وقت الإنزال ألذ عندها، وليشتغل الرجل بنفسه عنها فإنها ربما تستحي.

(1) المرأة في التصور الإسلامي، لعبد المتعال محمد الجبري (75) ط. مكتبة وهبة، القاهرة.

ولا يأتيها في المحيض، ولا بعد انقضائه وقبل الغسل، فهو محرم في القرآن والسنة.

والعلم الحديث أثبت أضراراً جسيمة تتعرض لها المرأة والرجل إذا التقى ختاناهما في المحيض أو النفاس. كما أن إزالة غشاء البكارة قد يصحبه تسرب بعض الميكروبات إلى الدم، مما يؤدي إلى إصابة الصمامات التالفة بالالتهاب الخبيث وما جرى عليه العوام من إزالتها بالإصبع بوحشية عمل غير إسلامي.

قال الغزالي: «وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض، ولا يأتيها في الدبر فهو أشد تحريماً من إتيان الحائض» وقوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223] يعني أي وقت شئتم. وله أن يستمني بيديها. وأن يستمتع بما تحت الإزار بما يشتهي سوى الوقاع أي الجماع. وينبغي أن تتزر المرأة بإزار من حقوها أي الخصر، إلى فوق الركبة في حال الحيض، فهذا من الأدب. وله أن يؤاكل الحيضى ويخالطها في المضاجعة وغيرها. وليس عليه اجتنابها.

أقول: ويأثم من أتى امرأته في دبرها ولكنها لا تطلق، كما هو مفهوم العوام، ولم يخرج بعمله من الإسلام ما لم يستحل ذلك بعد علمه بالتحريم، بل هو مذنب عليه أن يستغفر الله. وفعله شذوذ في العلاقة الجنسية وعقوق لحق الأنثى.

ثم قال الغزالي: «وإن أراد أن يجامع ثانياً بعد أخرى. فليغسل فرجه أولاً، تنشيطاً لنفسه. وإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول».

ومن الآداب ألا يعزل بل لا يسرح إلا إلى محل الحرث، وهو الرحم، «**فما من نسمة قدر الله كونها إلا وهي كائنة**» كما قال رسول الله ﷺ، فإن عزل نفسه عند الإنزال فقد ضيع على نفسه ثواب الولد يربيه ليجاهد في سبيل الله[1].

ومن الآداب استذكار ما يحب الرجل أن يكون له من زوجته، وما تحب المرأة من زوجها.

---

(1) الحديث من رواية جابر: «**اعزل عنها إن شئت، فإنه سيأتيها ما قدر لها**» أخرجه مسلم في صحيحه، مختصر مسلم للشيخ ناصر برقم 834 .

القُبلات الحارة لغة التفاهم

حديث بلغة الشفاه يترجم عن دفين العواطف، ومكنون الأحاسيس وتوقيع بالشفاه الأولى على ميثاق الشوق ومعاهدة المحبة...

وهمزة وصل بين قلبين متحابين... تلك هي القبلة. وقبلة الزوج لزوجته وهي القبلة التي أولاها الإسلام عناية بالغة، فقال عليه السلام: «**لا يقعنَّ أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة، وليكن بينهما رسول**». قيل: وما الرسول؟ يا رسول الله! قال: «**القبلة والكلام**».

والرسول بذلك الحديث الاجتماعي النفسي يقنن مبدأ من أهم مبادئ الحياة الجنسية العملية القويمة... فلا بد للنتيجة من مقدمة وللغاية من وسيلة وطريقة، وأوّل طريقة للتجاوب الجنسي السعيد، قبلاتٌ وكلماتٌ، وهمسات تهيّئ الجسد... وتوحّد الرغبة... وتوصل للامتزاج والتجاوب الحقّ، والعمليّة الجنسيّة إذا كان فيها تجاوب ووفاق حجبت كلّ ما يقف في طريق الحياة الزوجيّة من عقبات، وذلّلت كل صعب، وسارت سفينة الحياة الزوجيّة ثابتة وسط الأنواء والأعاصير...

أما إذا انعدم التجاوب جدَّت المشاكل ووجدت المشاكسات والمنازعات وكثير من المشاحنات والاهتزازات الأسرية، ولاسيما في بدء الحياة الزوجية، مردّها إلى اضطرب الحياة الجنسية... فكم من أسر تقوضت، لأن التوافق الجنسي والتكافؤ الجسدي معدوم بين الزوجين، أو لأن معاشرتهما الجنسية قائمة على الفوضى وعدم الانسجام... فلا وسائل ولا مقدمات، بل قسر، وتوحش واغتصاب أو أنانية؛ يقضي الرجل وطره من زوجته ويتركها قبل أن تقضي وطرها منه مخالفاً بذلك قول الرسول: «**إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها... ثم إذا قضى قبل أن تقضي حاجتها فلا يعجلها حتى تقضي حاجتها**»[1].

---

(1) رواه الحافظ السيوطي في الجامع الصغير وحكم على سنده بالضعف، ورواه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد وقال عنه: «رواه أبو يعلى في مسنده وفيه راو لم يسمّ، وبقية رجاله ثقات».

وملاعبة الرجل امرأته من أهم المسائل التي عني بها علماء فلسفة التناسليات في العصر الحديث، ووضعها الإسلام قبلهم بأكثر من ثلاثة عشر قرناً، وذلك لتنبيه الغافلين إلى أمور تتحقق بها السعادة الزوجية، وتزكو بها نار الحب عند الزوجة وتجعل العلاقة بين القرنين أرفع من أن تكون مجرد عمل آلي بعيد عن العطف والمودة، عار من الحب والحنان. قال جابر بن عبد الله: «نهى رسول الله ﷺ عن المواقعة قبل الملاعبة».

والقبلة الزوجية عند الفراق ولدى اللقاء، ليست وليدة المدنية الحاضرة، ولا نابعة من عادات الغرب، إنما هي تقليد إسلامي حرص عليه كثير من المسلمين الأوائل، وبخاصة بعد أن جعل الإسلام القُبلة لا تفسد صوماً ولا تنقض وضوءاً.

قالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ ينال مني القبلة بعد الوضوء، ثم لا يعيد الوضوء». وكذلك قالت أم سلمة زوج الرسول أنه كان يقبلها وهو صائم ثم لا يفطر ولا يجدد وضوءاً.

قال عمر بن الخطاب: هششت فقبلت وأنا صائم، فقلت: يا رسول الله، صنعت اليوم أمراً عظيماً: فقبلت وأنا صائم. فقال ﷺ: **«أرأيت لو مضمضت من الماء وأنت صائم؟»** قلت: لا بأس. فقال صلوات الله عليه وسلامه: **«فمه؟»**.

آداب المرأة في غريزتها الجنسية

حياء المرأة الذي تتلقاه من الطبيعة أنها تخجل من مفاتحة الرجل بدوافعها الجنسية، وتنتظر المفاتحة من جانبه، وإن سبقته إلى الحب والرغبة. وشأنها في ذلك كشأن جميع الإناث في جميع أنواع المخلوقات، فإنها تنتظر ولا تتقدم، أو تتعرض ولا تهجم، ويمنعها أن تفعل ذلك مانع من تركيب الوظيفة لا يصدر عن وازع أخلاقي، ولا عن أدب من آداب السلوك. إذ كان مانعاً يتساوى فيه الحيوان العاقل وغير العاقل، كما يتساوى فيه النوع الذي ينقاد وحده، والنوع الذي يراض على سنة من سنن الحياة الاجتماعية... فإنما خلق تركيب الأنثى

للاستجابة ولم يخلق للابتداء والإرغام، وسر هذا الخلق أن تزويد الأنثى بوظيفة الابتداء والإرغام عبث مضيع لغاية النوع، متى شغلت بالحمل والرضاع، كما تشغل بهما حسب استعدادها في معظم الأوقات[1].

وهذا الحياء الطبيعي لا يحسب من القيم الخلقية التي تريدها المرأة، وتمليها على نفسها وعلى غيرها، ولكنه عمل من أعمال التكوين يصطبغ بالصبغة الخلقية، كلما وافقت آداب الاجتماع.

وإنما يحسب من القيم الخلقية ذلك الحياء الذي تمليه الآداب، ويتصل بالإرادة والاختيار، لا فرق في ذلك بين الإرادة الجامعة وإرادة الأفراد المتفرقين...

وهذا الحياء الذي تمليه الآداب تدين به المرأة على قدر اتصاله بشعور الرجل نحوها ونظرته إليها، فإذا اجتمع النساء معاً بعيداً عن أعين الرجال، نسينه ولم يكترثن له، ولم يبالين شيئاً مما يبالينه وهن بأعين الرجل في المحضر والمغيب.

فالمرأة لا تتوارى عن المرأة في الحمام، ولا يعنيها أن تستر عضواً من أعضائها[2]، إلا أن تستره مداراة لعيب وخوفاً من منافسة النظائر والأتراب، ولم يعهد في الحرائر الخفرات أنهن في الأمم التي استخدمت الخصيان كن يحجمن عن مس الرجل لهن وإطلاعه على أعضائهن وهن عاريات، ويسوغ للنساء أن يذهبن معاً إلى ضروراتهن، ولا يسوغ ذلك في عرف الرجال، إلا من تكرههم عليه الطوارئ في غير المعيشة المعتادة.

---

(1) المرأة في القرآن، عباس محمود العقاد، ص 31، ط. دار الهلال، مصر.

(2) وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي والحاكم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «..ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام ....» صحيح الجامع الصغير رقم 6506 .

توجيه العلاقة الجنسية بين الزوجين

لم يهمل الإسلام التعرض لعلاقة الغريزة بين الزوجين، فهي هدف من أهداف الزواج، لا ينبغي إغفاله أو تجاهله(1).

وجملةً، يصور الإسلام علاقة الغريزة الزوجية تصويراً عاماً يوحي بالامتلاك والتمكن، واستطاعة الإشباع كلما أريد.

يقول الله سبحانه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223]. ليشعر المرء أنه لا حجر ولا تقييد، فهو قد حبس نفسه عن الخطيئة وكفها عن الفاحشة، وابتغى الحلال الطيب بالزواج، فلا حائل بينه وبين ما يملك ويحوز.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: 5 ـ 6].

فهنا لا لوم ولا كبت ولا تضييق.

بل لقد اهتم القرآن بدفع شبهة كان يذيعها اليهود في المدينة تضيق على الناس بعض صور الملاقاة. وذلك قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، كيف شئتم بعيداً عن الشذوذ.

وأيضا صور القرآن علاقة الغريزة وأثرها بين الزوجين، بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187] وهذا أوسع مدى للامتزاج والائتلاف.

أما الحق والواجب في هذا المجال فقد بينه الإسلام. فإن على الزوجة أن تستجيب لزوجها، ما دامت في حال لا تمنع من ذلك شرعاً...

قال رسول الله ﷺ: «**إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة**» رواه الشيخان. ولا يحل لها أن تفوت على زوجها قصده وتحول بينه وبين رغبته فتزج بنفسها فيما يمنعه منها، بلا ضرورة، حتى في مجال العبادة النافلة إلا

(1) الأسرة في الإسلام، عرض عام لنظام الأسرة في ضوء الكتاب والسنة، الدكتور مصطفى عبد الواحد، ص 66 ـ 69، ط. مكتبة المتنبي، القاهرة.

بإذنه: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه**» رواه الشيخان وأحمد. ورَبْطُ الأمر بالإيمان بالله واليوم الآخر يدل على مدى اهتمام الإسلام بتنظيم العلاقة بين الزوجين. وعليها أن تبدو لزوجها في أجمل حال يحبها الرجل من المرأة، كي تكون كما ذكر الحديث: «**وإن نظر إليها سرته**» وعلى الرجل لزوجته في هذا المجال حق.

فعليه إعفاف زوجته وتلبية رغائبها، فإنه يعجبها منه ما يعجبه منها، وللمرأة غريزة كما للرجل.

وليس له أن يضارها بالحرمان، ففيه تضييع حقها. روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟**» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «**فلا تفعل. صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً**»!!

فقد ذكر في هذا حق الزوجة، وأنه لا ينبغي له أن يجهد نفسه في العبادة حتى يضعف عن القيام بحقها، وبهذه القواعد والأحكام يتحقق للزوجين تلبية الغريزة وإشباعها في إطار الزواج... فالحمد لله الذي جعل في الحلال ما يُغني عن الحرام!!!!.

الحوافز الجنسية لدى الزوجين

إن الحافز الجنسي الأول في الزوج ذي القوة البدنية والاستعداد الطبيعي في الغدة الصماء إنما هو حافز عقلي واستجابة لإمكانية أو نذر الجماع أو رؤية مثيرة للشهوة، ويسمى هذا أحياناً، إثارة المراكز العليا.

وتنتقل النبضات في نفس الوقت من المخ إلى المركز العصبي الذي يسيطر على الانتصاب لدى الزوج، وعلى التهيج لدى الزوجة، في الانتفاخ القطني من حبل النخاع الشوكي، وتمضي النبضات في مجموعة متشابكة معقدة من الأعصاب والغدة الليمفاوية والعضلات حتى تصل إلى عضوي الزوجين، ويندفع الدم إلى الحوض الإسفنجي للقضيب عند الزوج بسرعة أكبر من تدفقه عند

خروجه منه، ويبدأ القضيب عند الزوج والبظر عند الزوجة، في الانتفاخ والحساسية الشديدة والانتصاب لدى الزوج ثم يسرع فيما بعد أثناء العملية الجنسية بالاستجابة إلى الإحساس البدني المباشر، ولكن العوامل النفسية في المراحل الأولى من الانتصاب لدى الزوج هي أهم العوامل في العملية الجنسية التي يرغب فيها الزوجان عند الجماع.

ويزيد من هذا الانتصاب في المهبل الاحتكاك الناجم عن عملية الإيلاج عند الزوجة، فحالة اللذة الجنسية عند الزوجة أصعب وصفاً مما هي عند الزوج، وطريقتها أكثر تعقيداً، فالزوجة السريعة التهيج يمكنها أن تصل إلى ذروة اللذة بضع مرات قبل وصول زوجها إلى ذروة لذته.

إن الزوجة بحاجة ملحة إلى تهييجها بشكل متقن، فالأعضاء التناسلية عندها تتوتر طويلاً، والنفس والعقل يستمر توترهما دون ارتخاء، ويستمر الانبساط والتلهف دون انقطاع.

إن الزوجة تتأثر جنسياً نتيجة تأثر المخ في فترة التمهيد الجنسية، فتنبه الأعصاب الحسية التشابك في البظر تنبيها آلياً بالملامسة، أو نتيجة التأثر النفسي بالمهيجات الجنسية، ويؤدي ذلك إلى تفتح الأنسجة في أعضائها التناسلية، فتمتلئ بالدم الوارد إليها فينتصب البظر بعض الشيء، وتبرز قمته لتتلقى مزيداً من الإثارة بالملامسة ويزداد التهيج.

وتنشط غدد «سكن وبارتولان» فتفرز مادة شفافة رقيقة ولزجة في تليين الفرج لعملية الإيلاج. وتحيط بثغر الفرج فتحة المهبل، وهي تزيد مشاعر الاستمتاع لدى الزوجين، وتتضخم أعضاء الفرج وتبرز مستعدة للجماع، وينكمش النسيج العضلي المهبلي، وينبسط المهبل وتنفرج جدرانه بإيلاج ذكر الزوج، وتنقبض العضلات الخاصة بمجموعة العضلات الرحمية فتجذب الجزء الأسفل منه إلى أعلى وإلى خلف.

وتلعب العضلات دوراً معقداً يحتاج إلى تعاونها وانسجامها حالة الجماع، فبعضها يحدث إرادياً وبعضها الآخر انعكاسياً، حتى إن هناك تشنجات تحدث أثناء بلوغ ذروة اللذة، وأهم الأمثلة عليها حركات الأجفان اشتداد حاسة

الملامسة للشفتين، واشتداد حاسة الشم عند الزوجة، وهي أوضح عندها من الزوج، فإنها تزداد إرهافاً عند النشوة الجنسية. وكذلك تشتد حاسة اللمس وهو أمر ملحوظ أثناء التمهيد للجماع، ويزداد بالتدريج حتى يبلغ أشد درجات الإرهاف عند ذروة اللذة.

وإن انفعالات الرعشة الجنسية لدى الزوجين لتنسيهما كل شيء من الآلام النفسية والجسدية، فيعيشان أحلى لحظات الحياة بعيدين كل البعد عن هموم الحياة ومتاعبها.

ومن هنا كان لقضاء هذه الشهوة لدى الزوجين آثار طيبة ومباركة على نفسيهما، فهي مجددة للنشاط ومنعشة للحياة، وصدق الله العظيم حيث يقول في محكم كتابه الكريم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

وتتسرع حالة التنفس لدى الزوج أكثر منها لدى الزوجة، وتتوتر الأعصاب وتشتد عضلات الجسم، ويرتفع الإحساس والتوتر إلى القمة، وعند درجة التهيج القصوى يصل الإشباع الجنسي ذروته، عند ذلك يتم تفريغ تجمع الطاقة الجنسية وتوتراتها في تقلصات عضلية عنيفة وتهيج عنيف، ويتم قذف المني.

وأما الحالة التي تكون عليها الزوجة عند الجماع فإنه تتهيج الأعضاء النسوية لديها بالملامسة والإيلاج فتتلقى قدراً أكبر من الدم وتبدأ في التضخم، وينفتح الشفران الخارجيان للفرج ويتباعدان، فيكشفان البظر والشفرين الصغيرين تحته، وأما الغدد فترطب الفرج بإفرازها الخاص اللزج الصافي الرائق.

ويحظى البظر لدى الزوجة بمعظم هذه المداعبات والملامسات، فهو العضو الذي يبرز في وسط الفرج الخارجي نتيجة تضخمه بتوارد الدم إليه، ولا يخطئ الإصبع في تمييز هذه النقطة المرهفة الحس أكثر من غيرها، ويزيد هذه الأحاسيس هذا العضو النسوي الدقيق. وينبسط المهبل وتنفرج جدرانه بعضو الزوج الداخل، وتنقبض العضلات الخاصة بمجموعة العضلات الرحمية المتهيجة، فتجذب الجزء الأسفل منه إلى أعلى وإلى الخلف.

إن عضلات المهبل تنكمش أو تنقبض أو يتهيج الجدار البطني وعضلات الحوض فيهبط الرحم قليلاً من موضعه، وبذلك تقترب فوهة الرحم من السائل المنوي الذي يقذفه عضو الزوج، وأخيراً يكون الإفراز المتمدد جاثماً عند عنق الرحم ليسهل صعود الحيوان المنوي إلى عنق الرحم ثم إلى بوق أحد المبيضين لتلقيح البويضة الناضجة هناك ثم العود إلى الرحم للاستقرار.

وإن لحظات التهيج الجنسي قوية ولكنها قصيرة عند الزوج وأطول عند الزوجة، وعلى الفور تعود العضلات والأعضاء والغدد إلى حالتها الطبيعية. ويحل الاسترخاء والاستراحة محل الانفعال، ويملأ جوانب النفس سكينة الاستقرار، ومودة الحب، وطمأنينة المودة التي جعلها الله تعالى بين الزوجين.

وليست العملية الجنسية لدى الزوجين بالعملية السهلة، إنها عملية معقدة يشترك فيها أغلب حواس الجسم، وينفق الجسم من خلالها طاقة كبيرة من الجهد والبذل، ولذلك كان على الزوجين الاهتمام بها والتحضير لها، وألّا تكون على هامش الحياة والعِشرة الزوجية.

وإن على الزوجة أن تعلم أن الحافز الجنسي لدى زوجها أعظم قوة مما لديها، فإنها ترى زوجها بعد الجماع في شعور عميق بالتعب والإنهاك، قد يعقب ذلك نوم عميق، ولكن هذه الفترة إذا ما انقضت ونال راحته فإن من الممكن أن يرغب في المعاودة إلى الجماع مرة أخرى. وعلى الأخص بعد الاغتسال. وهذه المعاودة تكون أطول من الأولى، وهذه الحال تغري الكثيرين من الأزواج لنيل حظ أكبر من اللذة والمتعة. وعلى هذا فإن الزوجة التي تنبذ زوجها في هذه الحالة تعرضه إلى حالة اكتئاب وألم نفسي، فعليها أن ترضيه بالمعاودة مطاوعة له ومنسجمة معه.

كما أن على الزوج الذي يلاحظ رغبة من زوجته للمعاودة؛ أن يستجيب لها فيما إذا نال قسطاً جيداً من الراحة، وعلى الأخص فيما إذا لم تنل حظها من اللذة في الجماع الأول بسبب عدم تهييجها، أو بسبب سرعة الإنزال لديه. وهذه الملاحظة يجب على الزوج مراعاتها حفاظاً على حق زوجته من المتعة الزوجية واللذة الجنسية.

كما أن على الزوجين أن يتنبها لجميع الإحساسات القوية ـ أو ردة الفعل ـ في الممانعة أو في الكبح والإجبار، في العملية الجنسية، فإن الصدمات المفاجئة تؤثر على نبضات القلب، وحتى الحياء والخجل لدى العروس ليلة زفافها يؤديان إلى تمدد في الأوعية الدموية، وبالمثل فإن الأعصاب المتصلة بالأعضاء التناسلية ليست بمانعة من آثار الإحساسات القوية، بل إنها أكثر تأثراً بها من أي عضو آخر من أعضاء الجسم، للرابطة الوثيقة التي تربطها بحالات الإنسان النفسانية وحياته العاطفية.

ولذلك كان على الزوجين مراعاة كلٍّ لبعضهما بالتفهم العميق لحاليهما، وعدم اللجوء إلى الممانعة التي لا سبب لها، أو إلى الإجبار الذي لا مبرر له. والحياة الزوجية مشاركة بين الزوجين لأحاسيس ومشاعر بعضهما البعض!!!

سرعة القذف وعلاجه

تعد سرعة القذف حالة من حالات عدم الكفاية الجنسية وهي حالة يحدث فيها القذف أو الإنزال قبل أوانه، أي قبل أن يريد الرجل ذلك، أو قبل أن يفي بمتطلبات زوجته، ويقسم القذف غير الطبيعي إلى ثلاثة أنواع:

القذف السريع: وهو حدوث القذف أو الإنزال بعد الدخول في المهبل في وقت أقل من المعتاد.

القذف المبكر: وهو حدوث القذف بمجرد ملامسة العضو لفرج الزوجة.

القذف المبكر جداً: وهو يحدث بمجرد تفكير الرجل في العملية الجنسية أو عند المداعبة والتقبيل.

أما عن أسباب سرعة القذف فهي تنقسم إلى:

أسباب نفسية: مثل التوتر، والقلق، والاضطراب العصبي، والخوف من الإخفاق في العملية الجنسية. وهذه الأسباب قد عرضتها بشيء من التفصيل في معرض الحديث عن العجز الجنسي.

وأسباب عضوية: مثل شدة حساسية أعصاب رأس القضيب وأي احتكاك به

قد يؤدي إلى الانتصاب والقذف، والاختلاف في إفرازات الغدد الصم، والتهاب أو احتقان البروستاتا أو الحويصلات المنوية أو مجرى البول الخلفي، كذلك وجود أوارم التهابية في مجرى البول الخلفي والتقرحات في هذه الأماكن.

هذا عن أنواع غير الطبيعي أو السريع، وأسبابه النفسية والعضوية، أما العلاج فيجب الالتجاء فوراً إلى طبيب من أهل العلم والاختصاص، وحذار من الأخذ بتوجيهات الأصدقاء أو الزملاء المتحذلقين في مثل هذه الأمور، لأن هذا قد يؤدي إلى نتائج مضادة تماماً.

ولقد وقفت على بحث في مجلة طبيبك فحواه:

إن القذف المبكر هو أكثر المشاكل الجنسية شيوعاً بين الرجال، وهو من أعظم أسباب الشقاء في الحياة الزوجية. إن معظم حالات القذف المبكر ناشئ عن ازدياد حساسية الجهاز الجنسي المبكر.. قد تكون الحساسية الشديدة جسدية، وعندها تحدث الرعشة بمجرد الاتصال. وقد تكون عاطفية، فالرجل الممعن في عاطفته، والرجل الذي يعاني شيئاً يسيراً، من القلق فيما يتعلق بأمور الجنس، كلاهما قد يكون غير قادر على تحمل عنفوان الإثارة الجنسية العنيفة إلا فترة زهيدة.

إن الشباب الحديث السن الذي يقذف مبكراً بسبب الإثارة العنيفة، لا يعاني مشكلة حقيقية نظراً لأنه يستطيع أن يعيد الكرة بعد فترة وجيزة، والمعاشرة الثانية تستمر فترة أطول بصورة عامة.

أما بالنسبة لغيره من الرجال فالسعي مستمر في سبيل إيجاد الحلول.

وقد كانت المراهم المخدرة مفيدة بالنسبة لبعض الرجال، إذ يدهن العضو المذكر بها قبل المباشرة فيصبح أقل حساسية وقادراً على تحمل الاحتكاك الطويل.

وقد اكتشف الدكتور جيمس أحد أساتذة الطب في جامعة ديوك طريقة لمعالجة سرعة الإنزال، وهي تتطلب من الزوجة أن تحرض الذكر بيدها حتى

يتولد الإحساس عند الزوج بقرب حدوث القذف، فيشير إلى زوجته بأن تتوقف. وعندما يزول الإحساس تعيد الزوجة الكرة ويتكرر التوقف بإشارة من الزوج.

إن تكرار هذه العملية يولد في نفس الزوج شكلاً معيناً من الاستجابة الجنسية تصبح الإشارة فيه أمراً يمكن تحمله، ويصبح لديه عادة في ضبط نفسه، وبذلك يتأخر القذف، وسرعان ما يجد نفسه قادراً على تأخير القذف حسب رغبته.

اضطراب الوظيفة الجنسية عند الزوجين

ينسب الباحثون الضعف الجنسي وفتوره عند الزوجين أو أحدهما إلى عوامل عدة منها إلى علل مرضية أو نفسية.

ومرجع العلل المرضية في ذلك يعود إلى ضعف الأعصاب أو قصور في عمل الغدد، وأكثر النتائج التي يمكن أن تعزى إلى الأعصاب هي الانحطاط العصبي والعقلي، والاختلالات الحادة في بعض الأعضاء.

والإعياء الناشئ عن الجهد العقلي سريع الزوال في العادة، وكثيراً ما يكون بين الذين يكون تفكيرهم منتجاً، أو بين الذين يمتهنون مهناً لا تتلاءم مع رغباتهم ولا تتفق مع أطباعهم.

والعمل العقلي بحد ذاته سبب ضعيف من أسباب الإعياء العصبي، في حين أنّ الهمّ والقلق اللذين يساوران المشتغلين في المجالات العقلية والفكرية، مضافاً إليهما إهمال العناية بالجسد، الذي يقوِّض الصحة، ويسلب العافية، ويؤدي إلى الإعياء.

وإن الرجل الذي يؤدّي عمله دونما همٍّ أو قلق نادراً ما يقع ضحية الإعياء العصبي. وأما الذي يعييه التعب بعيداً عن الهم والقلق، وهو يتوق للجوء إلى الراحة فإنه سرعان ما يستعيد طاقته المفقودة.

والزوج المصاب بالعجز الجنسي الذي يعود إلى سبب فيزيولوجي عضوي

من مثل مرض في الخصيتين أو التهاب في البروستاتة، أي غدة المثانة، يجب أن يعالج من قبل طبيب مختص في المسائل والأمراض الجنسية، وهي معالجة صعبة ودقيقة، وإنما يتوقف نجاحها على طبيعة المرض وشدته أو خفته.

وأما العجز النفساني فيعود إلى اختبار ما في حياة الإنسان جعله يفقد الثقة في قوته الجنسية، ومثل هذا العجز ليس له أساس عضوي مرضي، بل إن أساسه فكرة معقدة أو ملازمة تعمل في أعماق النفس، أي العقل الباطن، فالمصاب به يخشى أن يكون ضعيفاً جنسياً، أو يتوهم أنه كذلك، ويكون هذا الشعور في العادة سيئاً بحيث يطغي على قدرته الجنسية.

فالزوج المصاب بذلك عليه أن يعيد إلى ذهنه لزوم التفكير باستعادة ما فقده من جراء تلك الظنون والأوهام، وأن يجعل اهتمامه في التفكير بقدرته على ذلك، فهذا ما يجعله يتماثل إلى الشفاء شيئاً فشيئاً.

وكذلك قد يكون عجز الزوج عن القيام بالجماع مع زوجته قلة اهتمامه بزوجته، أو من قلة اهتمامها بزوجها، فيحدث الفتور المؤدي إلى تسبب الضعف.

فعلى الزوجين إزاء هذه الحالة الطارئة أن يقوما بالعناية ببعضهما بعضاً، لإزالة أسباب هذه العوارض.

وهناك نوع آخر من الإحساسات التي تؤثر في قدرة الزوج الجنسية وتورثه عجزاً أو نقصاً، هو فيما إذا كان عضوه التناسلي صغيراً، فليس في هذا ما يستوجب فقد القدرة الجنسية إذا ما كان عضوه قادراً على الانتصاب، ولقد توجه الكثير من الأزواج إلى سؤال الأطباء عن آثار صغر العضو التناسلي، وأنه ربما يكون سبباً لعدم الإنجاب، فكانت إجاباتهم أن لا تأثير لذلك على عدم الإنجاب، وبالتالي لا تأثير على عدم الجماع، إذا سلك الزوج مع زوجته أسباب التهيج الجنسي لديه ولدى زوجته.

وهنا يلزم إيضاح أسباب عدم الإنجاب، أي العقم، لإزالة تلك التوهمات المؤدية إلى قلة الرغبة الجنسية التي تؤدي إلى ضعف.

إن سبب العقم عند الزوج يعود إلى أحد أمور أربعة:

الأول: انسداد في البربخ أو القناة الناقلة للمني، يمنع مروره عبر منفذه الطبيعي إلى رحم زوجته.

الثاني: فقدان النطف، أو ضعفها الذاتي.

الثالث: نقص في نمو الخصيتين، أو إصابتهما بأذى.

الرابع: مرض البروستاتة، أو الحويصلتين المنويتين.

كما يكون إرجاع عدم الإنجاب من الزوج إلى التهاب الغدة النكافية قرب الأذن، فإذا ما التهبت هذه الغدة ـ كما يحدث عادة للأولاد الكبار أو الرجال ـ التهبت الخصيتان وانتفختا. وقد يحدث العقم عند الكبار حتى ولو أصيبت هذه الغدة بالالتهاب في سن الصغر، وهذا ما يؤكد الصلة العجيبة بين الغدة النكافية وبين الأعضاء التناسلية. وهذا النوع يمكن شفاؤه بالمعالجة الطبية المركزة. مع الإشارة إلى أن بعضه لا يمكن شفاؤه.

البرود الجنسي لدى الزوجين

وإن مما يسبب البرودة الجنسية لدى الزوجة، عدم إثارتها من قبل زوجها قبل الجماع، فإن هذا يؤدي إلى الجماع المؤلم للزوجة، وهذا يؤدي إلى شكل من أشكال البرودة الجنسية لديها؛ فالمرأة الباردة اللامبالية تعبر عن ثورتها على زوجها أو كرهها لجماعه لها بالبرودة وعدم الرغبة فيه، والزوجة التي تتألم عند الجماع يجب العناية بها عناية فائقة ولو أدى ذلك إلى عرضها على طبيبة أخصائية بأمراض النساء.

كما أن من أسباب البرود الجنسي لدى الزوج إحساسه بعدم رغبة زوجته في الجماع، كأن يراها مبتذلة غير متزينة له ولا متعطرة، فإن هذا من عوامل فتور الزوج عن الاهتمام بزوجته.

ولقد ذكر الباحثون أن ضعف رغبة الزوج في جماع زوجته، أو ضعف الانتصاب لديه لا يكون بسبب مرضي(1) بقدر ما هو ناتج عن وجود المؤثر النفساني، فالزوج العادي يثير حافزه الجنسي وجود امرأته متزينة متعطرة له، إذ يتلقى جهازه العصبي، بواسطة حواس البصر والشم واللمس والسمع، من المؤثرات الجنسية ما ينعكس فيحدث الانتصاب لديه والرغبة في جماع زوجته، وفي الوقت نفسه يحدث هذا التهيؤ في نفس الزوجة ما يحدث في نفس زوجها من حب اللقاء الجنسي العارم.

فعلى هذا . . فإنه يجب على الزوجة أن تكون شديدة العناية والاهتمام بنفسها والتحضير للقاء زوجها ،اللقاء الذي يجعله أكثر قبولاً لها وأشد إقبالًا عليها، وأقوى انفعالاً بحبها والتعلق بها!! . . . .

مرض العنانة الجنسية

العنة مرض يسبب العجز عن القيام بالجماع لعيب تكويني أو اكتسابي في أعضاء التناسل، أو لعدم انتصاب القضيب، أو لسرعة ارتخائه بالإنزال قبل الإيلاج أو بعده فوراً.

وعيوب أعضاء التناسل الداخلية التي تنعكس آثارها على عضو التناسل. ومن العيوب التكوينية ضمور القضيب والخصيتين أو انعدامهما، وينجم منه الافتقار إلى إفرازهما الداخلي الذي يتوقف عليه انتصاب القضيب.

وثمة غدد صم أخرى يؤدي النقص في إفرازاتها أيضاً إلى عدم الانتصاب، وقد تنجم العنة من عدة أسباب أخرى؛ كالأمراض العصبية، وأمراض الكلى، ومرض السكر، والأمراض المزمنة المنهكة، وإدمان الخمر والمخدرات والإفراط في الجماع، والإجهاد في الأعمال الفكرية، والصدمات النفسية،

(1) أي مرض العنّة، ويعالج بهرمون الذكورة «التيسترون» ومثيلاته.

والاضطرابات العاطفية، ومن أشهر أنواع العنّة، العنّة النفسانيّة، وهي من اضطرابات نفسانيّة تحدث في مرحلتي الطفولة والمراهقة، وعلاجها يحتاج إلى طبيب مختص.

وأما الفتور الجنسي لدى الزوجات الطاعنات في السنّ، فيرجع لعدّة أسباب، منها: فقد الزوجة لجاذبيتها الأنثوية، وانقطاع الطمث لديها، ونقص هرمونات الأنوثة، وحدوث سنّ اليأس، وجفاف المهبل وضموره وتشنّجه الناجم عن الألم لعدم مرونته بسبب نقص هرمونات المبيض، وجميع ذلك يحدث لدى الزوجة فتوراً جنسياً وعدم الرغبة في الجماع، وهذا يعكس على نفسية الزوج ذات الآثار من البرود الجنسي وعدم الرغبة في الجماع.

وفي هذه الحالات تكثر الخلافات الزوجية لأتفه الأسباب، وهي تخفي وراءها كبتاً جنسياً للرجل يصعب على الرجل الإفصاح عنه في معظم الحالات، وخاصة إذا كان عمر الزوجين متساوياً، أو أن الزوجة تزيد على زوجها في العمر.

ومن الأمراض التي تؤثر في الزوج فتسبب له الضعف الجنسي تعاطيه بعض الأدوية التي تحدث اضطراباً في استقلاب الهرمونات الجنسية:

أ ـ الداء السكري: وهو يؤثر على استقلاب الأغذية بأنواعها فيحدث اضطراباً في صناعة الهرمونات في الخصية، كما يحدث تصلُّباً في شرايين العضو التناسلي وتضيقاً، فيخف تدفق الدم إليه وتنقص صلابته عند العملية الجنسية، كما تتأثر الأعصاب وهي تؤثر في الأعضاء التناسلية فتنقص من فاعليتها.

ب ـ ارتفاع الضغط الشرياني وتصلب الشرايين: يعتبر ارتفاع الضغط الشرياني المتوسط والشديد، وإصابة الشرايين بالتصلب العصيدي عاملاً هاماً في حدوث الضعف الجنسي. ومن جهة ثانية إن معظم الأدوية التي تعطى لمعالجة ارتفاع الضغط يؤثر في استقلاب هرمونات الذكورة، فتؤدي إلى

العنانة والضعف الجنسي، ومن هذه الأدوية المدرات التزايدية والسبيرونولاكتون، وأدوية الضغط كالمتيل دوبا.

ج ـ استعمال الأدوية المسكنة للمفاصل، كمركبات الأندوميتاسين، ومثيلاتها، والمسكنات العصبية.

د ـ الإصابة بخناق الصدر، والربو، واحتشاء العضلية القلبية.

هـ ـ الإصابة ببعض الأمراض التي تؤثر في الخصية كالنكاف، والإصابة بالفيروسات، وسل الخصية، ودوالي الحبل المنوي، ورضوض الخصية، وغيرها من الأمراض التي تؤثر في النسيج الخصوي وخلايا لايدك، المفرزة لهرمونات الذكورة.

التدخين وآثاره الخطيرة على الغدد التناسلية

تصاب شرايين القضيب عند الزوج المدخن بالتصلب؛ لذلك يضعف الانتصاب لديهم، ويحدث لديهم ضعف جنسي نتيجة نقص الأوكسجين في الغدد التناسلية.

ولقد أثبتت الإحصائيات الحديثة وجود علاقة وثيقة بين التدخين وتصلب الشرايين، وأمراض القلب، وارتفاع الضغط الشرياني، والخطورة في ذلك عند زيادة التدخين يومياً.

والتدخين له علاقة وثيقة باحتشاء العضلة القلبية، أي الجلطة، المسبب للموت المفاجئ.

كما أن للتدخين آثاراً خطيرة على الحمل فيما إذا كانت الأم مدخنة، حيث ينقص الأوكسجين في دم الجنين، كما يحدث تصلباً في العروق الدموية عند الجنين وعروق المشيمة، لذلك تكون وظيفة هذه العروق غير طبيعية، وكمية الدم التي تروي الجنين، وكذلك كمية الأوكسجين أقل من الطبيعي، فيحدث عند الجنين نقص في النمو، وقد يؤثر ذلك في بنية دماغه، فيكون الذكاء أقل من الطبيعي.

لذا... ينصح الزوجان بعدم التدخين، أو تخفيفه إلى أدنى حدّ نحو ثلاث سجائر في اليوم لمن لا يستطيع تركه والعدول عنه.

البرود الجنسي وعلاجه

البرود الجنسي: هو حالة تكون فيها المرأة فاقدة للحساسية الجنسية، وعاجزة عن أداء دورها الطبيعي في عملية الجماع، وحالتها هذه تشبه حالة عجز الرجل، في كون الدم لا يملأ أعضاءها الجنسية. وامتناع الأوعية الانتصابية عن التصلب، كما يظل بظرها كامناً... وغددها لا تفرز... ومدخل المهبل جافاً، غير أنها تختلف عن الرجل في أنها تستطيع أن تشارك في العملية الجنسية، ولكن بطريقة آلية خالية تماماً من الفاعلية والإيجابية.

وللعلماء آراء مختلفة في أسباب البرود: فمنهم من يرى أن سببه دافع خفي، كظن المرأة (نتيجة للتربية السيئة) أن الجماع خطيئة، ولو كان بطريقة مشروعة. ومن العلماء من يرى أن خوف المرأة من الحمل له تأثير في إيجاده. وقد يكون بسبب خلل في الوظائف الجنسية. وقد يكون السبب هذه الأسباب مجتمعة أو غيرها.

وعلى كل حال، فهي تشبه الأسباب التي تؤدي إلى عجز الرجل، ولذا فإن أساليب العلاج متشابهة إلى حد كبير.

فعلى الزوج، وهو الذي عليه العبء الأكبر في علاج زوجته، أن يدرس سمات وخصائص أعضاء زوجته طبعاً بطريقة مناسبة ولبقة، حتى يستطيع التمكن من معرفة المواضع الحساسة فيها واستثارتها، لأنه في الغالب لا توجد امرأة تفقد حساسيتها تماماً، وكل ما في الأمر أن المرأة المصابة عادة لم تكتشف بعد طريقة استثارتها[1].

---

(1) يتوجب على الزوجة إزاء فتورها وضعفها الجنسي أن تسترخي وأن تستجيب للمثيرات من قبل زوجها بشكل حر، لتنال من ذلك متعة جنسية كافية. وللقلق آثره في عدم رغبة الزوجة=

ولقد وضع السيد مرتضى الحسيني الزبيدي حلاً وعلاجاً عمليين لبرود المرأة في كتابه «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» للغزالي، فقال: «إذا كان الزوج سريع الإنزال والزوجة بطيئة. فعليه أن يطيل مداعبتها على الفراش، ويكثر من التزامها (حضنها)، ومص شفتيها، والعبث بثدييها، وتحسس أليتها، وأعلى ظهرها، وجنبيها، فإذا بدا عليها التغير دلك بظرها برأس ذكره الهوينى، ويستمر على هذه الحالة دون إيلاج، فإذا ارتعدت وتغير لونها وتقلص وجهها، والتزمته، أولجه رويدا رويداً حتى يصل إلى الآخر، ويحرّكه داخلها بشدة دون إخراج، فإنه لا توجد امرأة بطيئة إلا أنزلت في هذه اللحظة».

هذا ما قاله مرتضى الحسيني الزبيدي، وهو يتفق مع المعارف الحديثة، إذ جاء بحث طريف في مجلة طبيبك تحت عنوان: «زناد الارتعاش عند المرأة» ونعني بذلك البظر، وهو القسم الزائد من الفرج، ويقابل القضيب عند الرجل. وهو عضو غني بالأعصاب، له شبكة دقيقة من الأوعية الدموية الدقيقة إذا أثيرت باللمس أو التهييج الجنسي امتلأت بالدم وانتفخ البظر.

والبظر نقطة مركزية لإثارة المرأة من الناحية الجنسية ووصولها إلى رعشة الجماع.. وما دام البظر على مثل هذه الأهمية في حياة المرأة، فعلى كل زوج أن يحرز معرفة تامة بالدور الذي يلعبه البظر، وأن يتقن فنون إثارته أثناء المداعبة التي تسبق عملية الجماع، فلا بد من الاهتمام بالبظر قبل الإيلاج لتستكمل المرأة شبقها الجنسي.

وإثارة البظر يجب أن تكون بكل لطف!!! لأن هذا العضو حساس جداً إلى درجة يكاد لا يصدقها العقل. إن معظم الزوجات الطبيعيات يرحبن بمداعبة البظر قبل الجماع، وقد يكون من المستحب استئناف مداعبة البظر عقب الجماع لاستكمال اللذة عند المرأة، إذ ربما لا تكون قد استنفدت لذتها. ويحدث أحياناً

= بزوجها، وكذلك الحزن، ولذا فإن على الزوجة أن تبعد عن حياتها عامل القلق والحزن، لتكون شريكة زوجها في السعادة الزوجية الكاملة.

أن يسبق الرجل فيقذف وتبقى المرأة شَبِقة متهيجة، فيتركها الرجل وحالها تعاني توتراً في الأعصاب كما يفعل كثيرون من الأزواج القساة؟!..

يجب على هؤلاء أن يتريثوا حتى تقضي الزوجة وتهدأ، فقد روي في الحديث أنه: «**إذا جامع أحدكم أهله** (أي زوجته) **فليصدقها، ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يعجلها حتى تقضي حاجتها**»[(1)]!! وعلاج البرود عند المرأة لا يقع كل أعبائه على الرجل فحسب، بل للمرأة ذاتها دور هام وحيوي.

ولا شيء أضمن للسعادة الزوجية ولا آمن على رجولة وإخلاص الزوج، غير خبرة الزوجة في فن الحب، والوفاق الذي يتم في الليل نادراً ما تزول سعادته في وضح النهار، لذلك على المرأة أن تذعن وتصبر بسهولة، وأن تزيل الحواجز التي حصنتها في صغرها، وأن تستسلم لكل الهياجات الجنسية التي ترافق الحياة الزوجية، دون أن تنسى أن الأجهزة العصبية لا تقوم بوظائفها فوراً طالما كانت راقدة قبل الزواج، بل إنها تنشط وتزداد حساسية مقتربة من الهدف كلما تكرر الجماع، وعليها أن تكتشف الأوضاع والهياجات التي تثيرها أكثر من سواها، وأن تحاول التمرن على انقباضات المهبل وألعابه الموزونة كي تسهل الرعشة الكبرى مع زوجها.

وقد لا تنجح التجارب الأولى، غير أن الممارسة المستمرة ستحسن النتيجة بالتدريج، فتزداد سرعة رعشتها، ويأتي يوم تشرق فيه السعادة على البيت الزوجي، إذ تجد المرأة نفسها موازية لشهوة الرجل وسائرة معه جنباً إلى جنب... ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: 21]!!..

---

(1) ذكره الحافظ السيوطي في جمع الجوامع برقم 1616، وذكره الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في إرواء الغليل ج7/ 73، وقال: إسناده ضعيف. وذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج4/ 295، وقال في عزوه له: رواه أبو يعلى، وفيه راو لم يسم، وبقية رجاله ثقات.

أسباب العجز الجنسي للرجل

1 ـ الأسباب النفسية:

الأسباب النفسية للعجز الجنسي هي الأكثر شيوعاً بلا شك، والقلق هو أهم هذه الأسباب ـ كما أسلفنا ـ ولأن القلق يبلغ أشده في شهر العسل فإن العجز الجنسي يكثر في هذه الفترة.

ومن الأسباب النفسية أيضاً للعجز الخوف من الأمراض التناسلية أو الحمل أو الخجل أو الارتباك، أو الحب الزائد للمشاركة، أي الزوجة، أو الرقة الزائدة والخوف من الإيذاء، أو الجهل التام بأي ثقافة جنسية؛ لكن هناك نوع دائم ويسببه الاكتئاب النفسي، والقلق والشذوذ الجنسي وضعف الأعصاب وعدم الثقة بالنفس كالخوف البالغ من الإخفاق في ليلة الزفاف أو الخوف من أن يصاب بالعجز، أو الشعور بالألم والندم نتيجة مزاولة عملية الجماع.. إلخ.

ويلعب الجهل والخجل من الجنس دوره في العجز أو الضعف الجنسي كسبب نفسي، فإن الكثيرين ممن لا يعلمون شيئاً عن الجنس يعانون من الضعف، وكذلك الذين يصيبهم الخجل من كل ما يتصل بموضوع الجنس دون أن يكون لديهم أسباب مرضية، والإصابة بالصدمات النفسية تؤدي إلى ضعف القدرة الجنسية.

ويلعب الوهم والخوف من الربط[1] دوراً مهماً، فمن يعتقد أنه مربوط أو ضعيف أو أنه سيخفق في الجماع فإنه لا يمكنه أداء العملية الزوجية بصورة كاملة أو طبيعية.

ويلحق بهذا الأشكال الاجتماعية والأسرية وخلافها من مسببات القلق والتوتر، وهو ما يؤدي إلى عدم القدرة الجنسية، فالأداء الجنسي الجيد ـ بصفة عامة ـ لابد أن يصاحبه استقرار نفسي وهدوء بال وطمأنينة وثقة بالنفس.

---

(1) نوع من السحر يعرف بالعقد يمنع الرجل من إتيان زوجته، ولا نتكره هنا، وإنما نقول: إن الخوف من الربط يعمل على ضعف القوة الجنسية، حتى ولو لم يكن الشخص مسحوراً فعلاً.

وكذا الإحباط الناتج عن الإصابة بمرض مزمن أو الخوف من الموت أو وجود عيوب خلقية معينة يتشكك معها الزوج في قدرته تؤثر بالضرورة في أدائه.

وكذلك الإخفاق في ممارسة الجنس في مرة سابقة على الزواج، والخوف من تكرار الإخفاق في ممارسة الجنس ـ بالذات ليلة الزفاف ـ مع الخجل وعدم الثقة بالنفس من أكثر الأسباب شيوعاً للضعف الجنسي، مع ما يصاحب ذلك من الرهبة من ليلة الزفاف وما سمعه الزوج من حكايات عجيبة عن ليلة الزفاف وإخفاق هذا أو ذاك.

وكثيراً ما تتداخل عدة عوامل مع الأسباب النفسية فتسبب العجز الجنسي للرجل، فالقلق مع الإرهاق والتوتر وعدم الخبرة بالممارسة الجنسية كل هذه الأشياء قد توجد في وقت واحد فتؤدي إلى العجز، فكثيراً ما يقترب الرجل من الزوجة بقلق يؤدي إلى عجزه عن الانتصاب، أو يحدث له القذف المبكر، فيتضاعف القلق، وهكذا.. إلى أن يثبت في ذهنه أنه غير طبيعي.

ويحدث في أحيان أخرى أن ترتبط في اللاشعور صورة الزوجة بصورة الأم أو الأخت، فيتكون في نفس الرجل شعور داخلي يفقده القدرة على الانتصاب، مخافة أن يقترف إثماً بسفاح ذوي القربى المحرم زواجهن... وهناك نسبة أخرى من الرجال يربطون بين العملية الجنسية والعنف والعدوانية، ولفرط خوفهم من العنف والقسوة ومع حبهم الزائد لزوجاتهم فإنهم يصابون بالعجز.

ويمكن تلخيص أسباب هذا الإخفاق كما يلي:

أ ـ التعب والإجهاد:

إذا عانى الرجل يوم زفافه، من تعب شديد وإجهاد نفسي وجسدي مرهق نتيجة الحركة المستمرة لعدة أيام قبل الزفاف مباشرة في تأمين حاجيات تلك الليلة المنتظرة، فالأفضل، والحالة هذه، ألا يحاول البدء بالعمل الجنسي في ذلك اليوم لأن تعبه الشديد قد يجلب عليه تجربة لا تنجح في المرة الأولى، وذلك يسبب له في أعماق نفسه شعوراً بالخيبة والمرارة وتكون ردة فعله لإثبات

رجولته أن يحاول من جديد ويحدث إخفاقاً جديداً آخر ربما يسبب له آلاماً نفسية تحدث عنده شعوراً بالخوف والرهبة من معاشرة زوجته، وقد ترافقه تلك الحالة شهوراً عديدة أو ربما لسنوات.

والمرأة الناضجة هي التي تعي مثل هذه الأمور وتستطيع مساعدة زوجها وعدم إحراجه دون إيذاء شعوره، وعند الضرورة يمكنها أن تلجأ إلى أمها أو من هي في مقامها لا إلى صديقاتها العازبات لأنهن أشد منها جهلاً في هذه الأمور.

ب ـ الخوف من الإخفاق:

يعتبر الخوف من الإخفاق العدو الأكبر للرجل ليلة زفافه، ويزداد احتمال وقوع الإخفاق كلما ازداد التفكير بهذه الليلة والتخوف منها، وعندما تحين الساعة الموعودة سيجد الرجل نفسه مخفقاً رغم أنه يتمتع بكامل صحته ونشاطه، وغالباً ما يؤدي الإخفاق الأول إلى إخفاق تالٍ بسبب الاضطراب النفسي والارتباك الناتجين عن الإخفاق الأول، يضاف إليهما عنصر الخوف الموجود سلفاً مما يزيد الحالة تعقيداً.

لذلك، من الأفضل للرجل أن يهدئ من روعه وينظر إلى ليلة زفافه نظرته إلى أية ليلة عادية، ويعتبر العملية الجنسية الأولى بسيطة لا تعقيد فيها ولا صعوبات ويبعد عن تفكيره كل المخاوف والهواجس، وبذلك يضمن لنفسه تجربة ناجحة لا مشاكل فيها ولا تعقيدات.

جـ ـ الضعف الجنسي عند الرجل:

هذا ما يطلق عليه اسم العنة، وهو عدم تمكن الرجل من القيام بالعملية الجنسية بالشكل الصحيح بسبب عدم حدوث الانتصاب أصلاً أو حدوث انتصاب جزئي غير كامل لا يمكنه من فض غشاء البكارة.

هذا النوع من الرجال لديهم الرغبة الجنسية كاملة ويميلون إلى ممارسة الجنس ميلاً طبيعياً، ولكنهم يكونون غير قادرين على تحقيق ذلك بالشكل المطلوب، مما يسبب للرجال آلاماً نفسية قاسية قد تحدث عنده عقدة تترك أثرها على سلوكه طوال حياته.

د ـ خوف الزوجة:

تخاف بعض النساء خوفاً شديداً لدرجة الهلع من الاتصال الجنسي الأول مع أزواجهن، فتقاوم الزوجة زوجها ليلة زفافها بشكل علني مفضوح أو بأشكال ظاهرة غير معلنة تعبر عنها لا شعورياً ببرودها وسلبيتها وعدم تجاوبها، وأحياناً تحدث عندها بعض التقلصات في عضلات المهبل، أو في عضلات جسمها عامة فتصاب بحالة من التشنج والهستيريا .... وهذا يكفي لوقوع الإخفاق معها في المعاشرة الأولى.

ولتجنب هذا الموقف أو لمعالجته عند حدوثه، يقوم الأهل بتوعية الفتاة وشرح الأمر لها وتسهيله عليها، ويمكن استعمال بعض المهدئات الخفيفة كالفاليوم والمزلجات الموضعية ريثما تنتهي العملية الأولى، وتدرك الفتاة من نفسها أن الأمر طبيعي للغاية ولا يستدعي ذلك الخوف والارتباك العظيمين.

وينصح الرجل دائماً أن يكون هادئاً ولطيفاً وألا يلجأ إلى العنف والقسوة.

2 ـ أسباب عضوية:

في بعض الحالات تكون جميع الأمور طبيعية، ومع ذلك لا يتمكن الزوج من إتمام العمل الجنسي فيخفق العمل الجنسي وتخفق جميع المحاولات للوصول إلى ذلك، هنا يمكن التوجه إلى الطبيب المختص لاستشارته، فإذا كان السبب ضيق في المهبل أو صلابة في غشاء البكارة يجري الطبيب ما يلزم من توسيع أو جراحة بسيطة تحت التخدير الموضعي أو العام وينتهي الإشكال[1].

دور الزوجة في العملية الجنسية

في الاتصال الجنسي ينبغي أن يساهم كل من الزوج والزوجة لإتمامه بنجاح وبمتعة وهذا يستدعي من الزوجة ألا تظل شريكاً سلبياً بل شريكاً فعالاً يندمج اندماجاً روحياً وجسدياً تشترك فيه جميع وجوده النشاط.

(1) الثقافة الجنسية وتنظيم الحمل، د. هاني عرموش، ص 54، 56، دار النفائس، بيروت.

وهذا الاندماج كفيل بأن يضفي على الاتصال لوناً من المتعة واللذة من جميع النواحي.

أما إذا ما ظلت الزوجة سلبية التصرفات ـ كما يعتقد الكثير من النساء أن واجبهن أن يكن كذلك ـ وإذا ما تركت زوجها وحده يمثل الشريك النشط فإن كثيراً من نواحي التعبير عن الحب تكون ناقصة كما أن الاتصال نفسه يفقد الكثير من كماله ومن متعته.

وينتهي الاتصال الجنسي ـ بالنسبة للرجل ـ بما يعبر عنه بالرعشة أو هزة الجماع أو ذروة التهيُّج الجنسي (أورجازم Orgasm). ويصاحب هزَّة الجماع هذه اندفاع مفاجئ قوي للسائل المنوي الذي يدخل إلى مهبل الزوجة. وفي بعض الأحيان وتحت ظروف خاصة يدخل جزء من هذا السائل الحيوي إلى رحم المرأة مباشرة.

وتحدث الرعشة أو هزة الجماع لدى المرأة كما تحدث لدى الرجل، وإذا ما حدثت للمرأة فإنها تزيد إلى حد كبير من المتعة ومن التنفيس لكل من الرجل وزوجته. وفي الغالبية العظمى من النساء لا تحدث الرعشة وذروة التهيج الجنسي بنفس السرعة التي تحدث بها عند الرجل، وهذه الحقيقة يجب أن يجعلها الزوج نصب عينيه أثناء الاتصال الجنسي فتحدو به إلى ضبط نفسه على قدر إمكانه حتى يتمكن من تأخير حالة الرعشة أو هزة الجماع لديه ـ في حدود قدرته ـ وبذا يقدم لزوجته فرصة الوصول إلى قمة المتعة الجنسية في نفس اللحظة التي يصل هو فيها أو قبلها بوقت قصير.

وهناك نساء حبتهن الطبيعة بميول جنسية قوية عن المعتاد وهؤلاء يمكنهن أن يصلن إلى قمة المتعة الجنسية قبل أزواجهن، بل قد تستطيع إحداهن الإحساس بحالة الرعشة وذروة التهيّج الجنسي عدة مرات متتالية قبل أن يصل الزوج إلى حالة الرعشة وهزة الجماع للمرة الأولى.

وحالة الرعشة أو هزة الجماع عند المرأة، لا يصاحبها نزول سائل حيوي كما هو الحال بالنسبة للرجل. ولو أنه قد شوهد في بعض النساء ـ وخصوصاً السمراوات منهن ـ أن الوصول إلى قمة المتعة الجسدية ينجم عنه نزول سائل من

المهبل يشبه إلى حد كبير السائل المنوي للرجل ولو أنه ـ بطبيعة الحال ـ ليس له معنى حيوي. ويصاحب الرعشة عند المرأة حدوث انقباض ثم ارتخاء في عضلات المهبل مصحوبة بطرقات خفيفة في أعضاء التناسل شبيهة بتلك الطرقات أو التشنجات اللذيذة التي تحدث للرجل عند الإنزال.

ويحدث للرجل ـ عقب تفريغ سائله المنوي ـ ارتخاء تام في العضلات مع ارتخاء أعضاء التناسل وغياب تام في الرغبة الجنسية بحيث يتعذر إتمام الاتصال مرة ثانية إلا بعد مرور فترة من الزمن، وفي المرأة كذلك ـ عقب حدوث حالة الرعشة وبلوغ الذروة ـ يشاهد ارتخاء جميع العضلات التناسلية التي كانت ـ أثناء الجماع ـ متوترة ومليئة بالدم.

وقد يحدث ألا تحس بعض العرائس بحالة الرعشة والذروة، إلا بعد انقضاء زمن ما على الاتصال الجنسي الأول بسبب بعض المشاعر النفسية التي تسبب العصبية أو الخجل أو تمنع المرأة من الاستجابة التامة للشعور الجنسي، مما يؤخر أو يمنع حدوث الرعشة والوصول لقمة التهيج.

وإذا ما توقف الرجل عن الاستمرار في الاتصال الجنسي قبل أن تصل المرأة إلى قمة المتعة الجسدية، فإن ذلك قد يحدث أضراراً غير مرغوب فيها، إذ قد تظل المرأة مهتاجة المشاعر متوترة الأعصاب، وهذه الحالة تحتاج إلى وقت ـ قد يكون طويلاً ـ قبل أن تزول.

ونتيجة لهذا ـ بطبيعة الحالة ـ تصبح المرأة عصبية للغاية متوترة الحس ينتابها شعور بالتعاسة فضلاً عما يحدث بها من نتائج سيئة من الوجهة الفسيولوجية والنفسية[1].

(1) الزواج والجنس، د. ماري ستوبس، ص 63 ـ 65.

زوجي ضعيف..... فماذا أفعل؟

نعني بالضعف العجز الجنسي وعدم قدرة الرجل على إتمام العملية الجنسية، وينشأ هذا العجز عن انتصاب غير تام أو انعدام الانتصاب كلياً.

وفي جهاز الانتصاب تشبه الغدة التناسلية المخزن الكهربائي، فهي تفرز الهرمون الجنسي في الدم لينقله هذا بدوره إلى الدماغ كي يزود مصابيحه بالطاقة وسرعان ما يتهيج ويقع تحت تأثير جنسي. فالصور الجنسية المثيرة كالضغط الذي تمارسه على زر الجرس الكهربائي، إذ إنها ترسل تياراً كهربائياً في الأعصاب الجنسية، حيث يمر في المخ متابعاً سيره نحو النخاع الشوكي. ويتمثل هذا الهياج بكرة حديدية تعترضها حواجز عدة تنجح في اجتيازها وتنطلق في سيرها حتى تصل إلى مراكز الانتصاب، حيث تنتقل إلى الأعصاب هناك فتقوم هذه بتمديد الأوعية الدموية في الحشفة وتملؤها بالدم الذي يسبب انتصاب القضيب. وكلما حصل حادث مفاجئ لأحد أجزاء هذا الجهاز يصاب الرجل بالعجز.

وهناك عجز ينشأ عن ضعف الغدد التناسلية، فضعف الغدد التناسلية هو سبب العجز الرئيسي لأن قلة الهرمون تؤخر وظيفة الدم في حدوث الانتصاب، وفي هذه الحالة يعجز المغناطيس الكهربائي عن تسيير الكرة الحديدية، وعندما يشيخ الرجل يقل إفراز غدده التناسلية وينعدم الهرمون تدريجياً حتى يصاب بالعجز الكلي، ويتجدد نشاطه إذا أعطاه الطبيب المختص دفعات من الهرمون الجنسي، ويزول النشاط حين يزول مفعول الهرمون المحقون.

وقد يحصل العجز عن إثارة جنسية غير كافية، فكما تحتاج الأجراس الكهربائية عموماً لضغط على أزرارها ريثما يسير التيار ويشغلها، كذلك يحتاج جهاز الانتصاب إلى ضغط ليشتغل، وعادة يكتفي الشبان الأصحاء الأقوياء البنية بأقل اهتياج ليثاروا، بينما يتطلب الرجال الأكبر سناً هياجاً أقوى وأطول مدة لتثار فيهم شهوتهم.

وفي الحياة الزوجية تقل قدرة الرجل على الجماع بمرور الوقت لأنه يألف

مداعبة زوجته ويعتاد على اللذة التي تصبح روتينية بالنسبة إليه، ومع تقدمها في السن يتطلب هياجها مدة أطول من السابق فتتبدل المعادلة الزوجية بينهما، وهناك رجال كثيرون قصروا في حياتهم الزوجية عن بلوغ الرعشة الكبرى، بينما ظلوا نشيطين مع مومسات مجربات.

وهذا ما دفع بعضهم إلى القول إن الإخلاص الزوجي مدعاة إلى السقوط في العجز.

وفي سبيل الشفاء من هذا العجز على المرأة أن تبدل من عادتها الجنسية تماماً وأن تتقن فن الحب والغرام، والمرأة لم توجد لتقتفي أثر الرجل وتقلده فيما يفعل، بل إن الطبيعة وهبتها طابعاً أنثوياً مميزاً وعليها معرفة تقنية العلاقة لتحصل على اللذة، ويتميز هذا الطابع بالمغامرات والأحداث والواجبات التي تدعوها حباً وزواجاً وأمومة وتربية أولاد، وكي تستعد الفتاة جيداً لهذه المهمة عليها أن تتعلم أشياء عديدة في السنوات التي تسبق الزواج.

وهذا العمل يشجع الشباب على ربط مصيرهم بزوجات متدربات حقيقيات بعد أن كانوا تحت رحمة القدر في الحصول على فتيات ضعيفات العقل سطحيات التفكير يجهلن القضايا الجنسية عموماً.

ويجب أن نعتبر تدريب الفتيات قانوناً مهماً في فن الهوى وأسلوب العشق، فننتزع من رؤوسهن الفكرة السيئة العالقة في أذهانهن عن أن الحب عمل شائن ونفهمهن أنه عمل شريف طبيعي، كما نعلمهن طريقة إرضاء الأزواج وأسرهم إذا حاولوا الإفلات من الفراش الزوجي.

ولكي يصبح الزواج موفقاً يجب أن ينتصر على عدو يدمر شيئاً ألا وهو العادة، والمرأة هي المعنية بشن الهجوم على هذا العدو لتزيل العقبات الزوجية، والحياة العصرية قد أضرت المرأة كثيراً من هذه الناحية، إذ هي أصبحت شبيهة بالقماش الذي تعلقه على شباك الدار، فيرى الناس زركشته وألوانه الجميلة من الخارج، بينما يكتفي ساكن المنزل برؤية القفا المبطن بالورق أو المقوى.

فالمرأة العصرية لا تتزين إلا ساعة خروجها، وليتها تبرّجت ساعة الدخول

إلى عشها الزوجي، كما تجدها لا ترتّب أثاث المنزل ولا تتبرج إلا إذا دخل عليها ضيف ما فتقدم أطيب أطباق الحلوى وتتزين بأثمن الحلي والحلل، وعلى العكس من ذلك فهي لا تهتم لأمر زوجها بل تسرح شعرها بمشط وتقدم إليه الطعام في صحف قديمة، وتترك المنزل على إهماله لأن «الكلفة زالت بينهما» وهذا الخطأ نفسه الذي يوقع الحب في الهوى.

على المرأة أن تعتني ببيتها وتعتبر زوجها الضيف المفضل، وتحضر له الطعام الفاخر، لأن أفضل علاج هو اجتذاب الرجل دوماً ومجامعته، ولا يحق للمرأة العصرية أن تلوم زوجها إذا خافها أو قصّر قبل الأوان لأنّ السَّبب عائد إلى إهمالها لوظيفتها.

وأما العجز الناجم عن نقص في هياج موضعي فهو لا يقتصر على قدرة الرجل على التهيج والتأثيرات النفسية قبل الجماع، بل على الهياج الآلي الموضعي في أثناء الاتصال الجنسي المتوجّب تنويعه من حيث الشكل والإحساس، وفي هذا الميدان أيضاً، على المرأة أن تمتلك النقاط الاستراتيجية لشن هجومها على العدو الكامن في طريق السعادة الزوجية وهو الملل، وأن تبذل جهدها للحفاظ على متانة ومرونة جهازها الجنسي[1].

الزوجة الخجولة

تخجل المرأة من الليلة الأولى للزفاف وتخشاها، لا خوفاً من الألم فحسب، ولكن بدافع الحياء، ورغبة فطرية في الاحتفاظ بشيء كانت تعتز بالاحتفاظ به طيلة حياتها السابقة.

ولهذا يجب على الرجل الفطن أن يقترب منها في لباقة وحذر، وألا يفرض عليها فرضاً في وقت معين، وأن ينتظر ويتمهل حتى تتهيأ عواطفها للحالة الجديدة المقبلة، ويتم بينهما التعاطف والانسجام الجسدي والنفسي حتى ولو

---

(1) المشكلات الجنسية، د. إدوارد بريمن، ص 131 ـ 133.

طال الانتظار عدة أيام أو بضع أسابيع كي لا تصاب العروس بهزة نفسية تنفرها من العملية الجنسية أبد العمر[1].

فمن العسير أن نتصور في هذا العصر كثيرات من المتزوجات حديثاً ينتابهن الخوف من أزواجهن في الليلة الأولى، لدرجة تجعلهن يهربن إلى غرفة أخرى، ويقفلن الباب وراءهن.

غير أنه مما لا شك فيه أن الكثير من العذارى يتوقف مستقبلهن الجنسي على الأسلوب الذي يتبعه معهن أزواجهن في ليلة عرسهن الأولى.

والواقع أنه ما يزال في الدنيا فتيات خجولات ومحافظات ينبغي للزوج أن يتبع معهن أسلوباً في غاية اللباقة والرقة، وأكثر من هذا.

إن بعض الفتيات اللعوبات يكتشفن ليلة الزفاف، أنهن يقفن على عتبة عالم مجهول فينتابهن الهلع، ويفقدن كل ما ظنن أنهن تعلمنه.

ومهما يكن من أمر، فإن على الزوج أن يبدي في الليلة الأولى كثيراً من الرقة والصبر، فما أندر النساء اللواتي يرغبن في أن تتخذ عملية فض غشاء بكارتهن مظهر الاغتصاب[2].

القوة الجنسية للرجل

سؤال مهم: ما هي القوة الجنسية للرجل؟ وما هي مقوماتها؟ وكيف يصل الرجل إليها؟.

وقبل الإجابة على هذا السؤال وما يتعلق به لا بد من توضيح مقدمات ضرورية، فالجنس هو وظيفة هامة من الوظائف العديدة التي يؤديها جسم الإنسان، ولكي يؤديها الجسم على الوجه الأكمل فإنه لا بد أن تتوافر عدة عناصر معينة، ومن هذه العناصر:

(1) تمتع بالحب، د. أوستاس، ص 157.
(2) الموسوعة الجنسية، حسين سليم، ص 119.

1 ـ لا بد أن تكون الخصيتان في حالة طبيعية وسليمة:

أ ـ من حيث التركيب.

ب ـ من حيث إفراز المني، وهو السائل المنوي الذي يؤدي ـ بإذن الله ـ إلى حدوث الإنجاب.

جـ ـ ومن أهم وظائف الخصية إفراز الهرمونات التي تسيطر على القوة الجنسية للرجل، وتُفرز هذه الهرمونات بواسطة خلايا خاصة في الخصيتين، فإذا قل هذا الهرمون أو انعدم قلت أو انعدمت القوة الجنسية، من هنا فإن أهم عنصر من القوة الجنسية للرجل هو إفراز هذا الهرمون بطريقة طبيعية.

2 ـ يجب أن يحدث الانتصاب بطريقة طبيعية:

نتساءل هنا: كيف يحدث الانتصاب؟.

ونجيب: إن الجهاز العصبي هو الذي يتولى السيطرة على النشاط الجنسي مثلما يسيطر على أي نشاط آخر بالجسم.

وفي الجهاز العصبي مركزان:

الأول: في المخ.

الثاني: في الجزء القطني من النخاع الشوكي.

والذي يحدث هو أنه عندما يثار الرجل، فإن صورة الإثارة ترتسم في المخ، فيتأثر المركز العصبي الخاص بالنشاط الجنسي في المخ ويترتب على ذلك وصول إشارات إلى أعصاب النخاع الشوكي، والتي تقوم بدورها بإرسال التنبيهات إلى أعصاب الأوعية الدموية الخاصة بعضو التناسل، عندئذ تتفتح وتمتلئ بالدم فيحدث الانتصاب.

3 ـ إلى جانب ما سبق هناك عوامل مساعدة:

وهي عوامل ضرورية في تشكيل القوة الجنسية للرجل ومنها:

أ ـ العامل النفسي: وهو عامل في القوة الجنسية، فلا يتم اللقاء على الوجه الأكمل بدون استقرار وهدوء نفسي، ولا يتم إلا بوجود الحب والرغبة

القوية بين الزوج وزوجته وأن يكون هذا الحب هو أساس العلاقة بينهما.

والمعروف أن المشاكل النفسية والاجتماعية والقلق والتوتر من أكبر المعوقات لأداء الرجل لدوره المنوط به، وتؤثر كلها في القدرة الجنسية.

ب ـ الغذاء الذي يتناوله الشخص: فالجسم السليم يحتاج إلى أغذية وعناصر ضرورية لأداء كافة الوظائف الحيوية على الوجه الأكمل بما فيها الوظيفة الجنسية، والمعروف أيضاً أن الإصابة بالضعف والهزال أو الأمراض التي تسبب له الضعف والهزال تؤثر كلها في القدرة الجنسية.

جـ ـ وهناك أيضا عامل الوراثة: فإن الشخص يرث من صفات والديه الجسمية والعضوية صفاتهما الجنسية من حيث التركيب والقدرة على الأداء أو الضعف.

د ـ والبيئة: لها أثر واضح لا يقل أهمية عما سبق، فالتربية الجنسية السليمة تقود الشخص إلى بر الأمان، فإن الانفتاح أو الانغلاق بالنسبة للجنس وتعبير المجتمع عنه، وتناول المجتمع له، كل هذا يؤثر في تكوين المعرفة لدى الشخص عن الجنس، فقد يؤدي الكبت إلى انفلات العيار، بينما تؤدي التربية السليمة والمعرفة الجنسية، في حدود الآداب والشرائع والقوانين، إلى أن يكون كل شيء آمنا وطبيعياً. والمعروف أيضاً أن الأشخاص الذين لا يعلمون شيئاً عن الجنس، أو بمعنى آخر: الذين لهم نصيب من الجهل والخجل من الجنس يعانون من الضعف الجنسي أو عدم القدرة على أداء الوظيفة الجنسية على الوجه الأكمل، وكذلك الذين يصيبهم الخجل من كل ما يتعلق بالجنس دون أن يكون لديهم أية أسباب مرضية.

أعضاء الجنس الظاهرة عند الذكور(1)

1 ـ القضيب:

هو الذَكَر، وأصله واحد في المرأة والرجل، حيث يكون للجنس غرمول لم تتضح هويته في الشهرين الأولين، فلا هو بالقضيب ولا هو بالبظر، ثم يكون من بعد أيهما.

والبظر في المرأة هو المقابل للقضيب في الرجل، وكلاهما شديد الحساسية ومن مواضع التهيج في جسم الإنسان، وإن كان أكثر المواضع تهيجاً فيه، وخاصة ما يسمى رأس القضيب أو الحشفة.

والقضيب في المتوسط يتراوح في الطول وهو مرتخ من سبعة سنتيمترات إلى أحد عشر سنتيمترًا، فإذا انتصب فإن طوله يتراوح بين أربعة عشر إلى ثمانية عشر سنتيمترًا، بينما يبلغ طول المهبل في المتوسط نحو ثمانية سنتيمترات، ومن ثم فالطول في القضيب لا يلزم الجماع، ولا دخل له في تحقيق الإشباع.

والجماع عندما يترقى لا يكون مجرد عملية طول أو قصر للقضيب، وإيلاج وقضاء شهوة، ولكنه يتحول من علاقة جنسية إلى علاقة تناسلية أي تكون له غاية الحمل والإنجاب وتكوين الأسرة. والجماع الذي له هذا الهدف عند الرجل والمرأة معاً يقوم على أساس التفاهم المشترك والحب المتبادل وينحو إلى التوافق. ولتحصيل هذا التوافق يلزم للرجل والمرأة أن يكتشف كل منهما الآخر، ويستخدم منه ما هو متاح من إمكانات جنسية وطاقات نفسية، استخداماً يجمع بين الطرفين في وحدة أو اتحاد، بحيث تنسجم كل مكوناته وتتناسق مع بعضها.

وتحضرني حالة لضابط شاب أصيب في الحرب برصاصة نالت من قضيبه وأطارته إلا نحو السنتيمتر، وكان هذا الجزء ينتصب فيبلغ نحو السنتيمترين

(1) الموسوعة النفسية الجنسية، 405 وما بعدها.

والنصف، وقد أحب سيدة كان يلتقي بها فيداعبها ويطيل مداعبتها حتى لتنعظ مرات عديدة، وعندئذ كان يولج هذا الجزء المتبقي من قضيبه في فرجها.

وقد طالبته بأن يتزوجها واضطر أن يصارحها بحالته، ولكنها طمأنته إلى رجولته، وقصد طبيبًا يستشيره في زواجها فأشار عليه بأن يفعل فوراً.

2 ـ الخصيتان:

الخصية غدة التناسل في الذكر، وتقابل المبيض في الأنثى، وتوجد واحدة على كل جانب من الصفن معلّقة بالحبل المنوي من جهتها، ويبلغ طول الخصية أربعة سنتيمترات، وعرضها سنتيمترين ونصف، وسمكها ثلاثة سنتيمترات، ووزنها أربعة عشر جراماً، وهي بيضية الشكل ومفلطحة قليلاً من الجانبين، ولها سطحان، واحد وحشي وآخر أنسي، وحرفان أمامي وخلفي، وطرفان علوي وسفلي، وفرجة من أعلى والخلف والوحشية حيث تتصل بالبربخ.

والخصية عبارة عن عدة أقسام، بكل قسم قناة ملتوية على نفسها، ويبلغ عددها من 300 إلى 400 قناة، وتجتمع القنوات بعضها إلى بعض مكونة في النهاية قناة واحدة هي القناة الناقلة للمني.

والخصية يغلفها كيس أو محفظة ليفية بيضاء تعرف بالغشاء الأبيض، ثم غشاء مصلي مكون من طبقتين من البريتون بينهما سائل زلالي.

والخصية يغذيها شريان الخصية من شرايين الأورطي البطني، ووريد الخصية، وأوعية لمفاوية، وجملة أعضاء شوكية وذاتية السمبتية ونظير السمبتية.

وللخصية عملان: دور داخلي كالغدد الصماء، وتكوين الحيوانات المنوية التي هي أساس إخصاب البويضة من إفرازها الخارجي، وتنشأ كخلايا منوية تنضج تباعاً مكونة الحيوانات المنوية وتختزنها حتى تدعو الحاجة إليها فتسبح هذه الحيوانات في السائل المنوي إلى البربخ، فالقناة الناقلة للمني التي تتحد في نهايتها بقناة الحويصلة المنوية، حيث تزودها بالسائل المنوي، الذي يسبق الحيوانات المنوية، بطريق القناة المشتركة المعروفة بالقناة القاذفة للمني، التي

توصل السائل بكل محتوياته إلى قناة مجرى البول في جزئها الغشائي وجزئها القضيبي، حتى تندفع إلى الخارج وذلك يكون عادة في المهبل.

ويبدأ تكوين المناسل في الجنين في الأسبوع الرابع من تكوينه، إلا أنه لا يبين منها إن كان ذكراً أو أنثى حتى الأسبوع السابع، حينما تفد الخلايا الجرثومية البدئية من المعي البدئي إلى منطقة المناسل، فيكون لها تأثير حافز، فتتمايز الغدد الأنثوية عن الذكرية، وتتوزع الحبال الجنسية، وتتفمم في نخاع الغدة الجنسية مكونة حبال الخصية ثم الأنابيب ناقلة المني، لكنها قبل ذلك تبقى في حالة مصمتة حتى البلوغ. ويكبر الجنين في الشهر الثاني وتتدلى الخصية، فإذا كان الشهر الثالث استقرت بالقرب من المنطقة الإربية، وعند نهاية الشهر الثالث تتكون غدة البروستاتا والكيس الصفني، ثم يكون التدلي النهائي إلى الانتفاخ الصفني في الشهر السابع.

وللجماع مراحل ثلاث، وفي المرحلة الثانية منه التي يكون فيها الإيلاج تكبر الخصيتان في الحجم بمقدار 50% وترتفعان جزئياً في اتجاه العجان. وقد يشكو الرجال من ألم في الخصيتين نتيجة عدم التصريف واختزانها للمني. ويقول كينزي: إن الاختزان أغلبه ليس في الخصيتين ولكنه في البروستاتا وقنوات المني، وأما الخصيتان فأقل المني يختزن بهما، وأما الألم فمصدره التوتر العضلي في منطقة العجان، وربما بسبب التوترات في قنوات الحيوانات المنوية، وخاصة في النهايات الدنيا للبربخ. ويخف الألم بالإنزال لأن التوتر يزول وليس لأن ضغط المني بالخصيتين ينتهي. وأيضاً فإن المرأة تشعر بألم بالإربيتين نتيجة التهيج الجنسي إذا طال أمده دون أن تنعظ.

وعندما تصاب الخصيتان بمكروه فإن الأعضاء التناسلية لا تنمو في الطفل نمو باقي الجسم، وقد يصل البلوغ وتظل أعضاؤه التناسلية على حالها وهو طفل، ومن ذلك ألا تنزل الخصيتان من البطن أو لا تسقطان في كيس الصفن أو تخصيان، وعندئذ تتأثر الوظيفة التناسلية.

وتنتج الخصيتان بالإضافة إلى ما سبق الهرمونات الذكورية، ولكنهما كذلك تفرزان هرمون الأنوثة، وتتساوى كمية الأندروجين مع كمية الإستروجين في

الذكر والأنثى قبل المراهقة، ثم قرب المراهقة يزيد الأندروجين في الذكر عن الإستروجين. فإذا كان البلوغ كان هناك اختلاف كبير بين الكميتين، إلا أن كلاً من الأندروجين والإستروجين يزيدان، ومع التقدم في سن المرأة فإن الأندروجين عندها يزيد على الإستروجين حتى إنه يقال إن كبار السن من النساء لديهن أندروجين (هرمون الذكورة) يساوي في كميته ثلثي ما عند الذكر.

وهناك علاقة في الرجل بين زيادة إفراز الأندروجين وزيادة نشاطه الذكوري في المراهقة، غير أن زيادة الأندروجين عند النساء لا يصبغ تصرفاتهن بالذكورة بينما نجد أن نقص الأندروجين عن معدله كلما كبر الرجل في السن يعني زيادة عزوفه عن النشاط الجنسي، فإن نقص الأندروجين عند المرأة لا يجعلها أكثر أنوثة.

ولعل تأثير نقص الهرمونات الجنسية على الهوية الجنسية أظهر ما يمكن في تجارب الخصاء على الحيوانات، غير أنه كان من العسير قياس هذا التأثير، وذلك لأن بعضه مرده للنقص الهرموني المترتب على الخصاء، وبعضه بسبب تأثير الخصاء على غدد أخرى، كالنخامية والدرقية، لها فعالياتها على المستوى الأيضي العام لكل الوظائف الفيسيولوجية، بما في ذلك وظائف الجهاز العصبي، بالإضافة إلى أنه في حالة البشر فإن الخصاء له مردوده النفسي وذلك أظهر ما يكون في حالة الذكور، بالنظر إلى ما تضفيه الثقافة من أهمية على الدور الجنسي للرجل وعلى فحولته وقدرته التناسلية.

أعضاء الجنس الظاهرة عند الأنثى (1)

1 ـ الفرج:

يحوي بداخله غشاء البكارة ويتصدر فتحة الفرج، ويكون ظاهراً عند البكر، ويتخذ أشكالاً فهو قد يكون هلالياً أو حلقياً أو غربالياً، وقد يكون مصمتاً

(1) الموسوعة النفسية الجنسية، 420 وما بعدها.

فيتوجب صنع فتحة به لخروج الطمث عند البلوغ، وإذا تمزق الغشاء خلَّف نتوءات تسمى بالزوائد الآسية حول فتحة الفرج.

وفتحة الفرج هي طرف المهبل من الأسفل وتظهر بين الشفرين الصغيرين وبكل جانب بصلة مهبلية، وتختلف تبعاً لحالة غشاء البكارة، فإن كان موجوداً كانت الفتحة ضيقة تكاد لا تبين، وإن كان قد تمزق تظهر الفتحة واضحة وحولها نتوءات أو مخلفات الغشاء. وأما بصلتا المهبل فهما عبارة عن جسمين انتصابيين، ويقابلان بصلة القضيب في الرجل. ويوجد أعلى فتحة الفرج الصماخ البولي، وهو الطرف الانتهائي لقناة مجرى البول ، ومكانه أسفل البظر، ويحيط بالصماخ بروز دائري يمكن التعرف عليه باللمس.

والفرج يعلوه ارتفاع العانة، فإذا نزلنا قليلاً نجد الشفرين الكبيرين، وهما أكثر أعضاء الفرج ظهوراً، وهما عبارة عن انثناءين بارزين من الجلد يغطيان جملة فصوص دهنية هي التي تعطي الفرج شكله الصغير أو الضخم، ويتخللهما نسيج خلوي. ويلامس حرفاهما الإنسيان بعضهما بعضاً فيحجبان باقي أعضاء التناسل الظاهرة عن الرؤية فيلزم إبعادهما عن بعضهما لرؤية بقية أعضاء التناسل الظاهرة.

ويكوّن كل شفر بروزاً طولياً على كل ناحية، عريضاً من أعلى وضيقاً من أسفل. ويتصل الشفران معاً من أعلى أمام الارتفاق العاني فيكونان بروزاً محدباً واضحاً يعرف بجبل الزهرة، وهو عبارة عن فصوص دهنية مجتمعة بعضها إلى بعض ، وتغطيه منطقة من الجلد يعلوها شعر كثيف. ويتحد طرفاهما الضيقان من أسفل بالخط المتوسط أمام النقطة المتوسطة للعجان، ويكونان شكال الشفرين الكبيرين.

والشفران الصغيران بروزان طوليان من الجلد أصغر من الشفرين الكبيرين، ويقعان خلفهما وبينهما ، جلداهما أملسان رقيقان وورديا اللون، ويحتويان على بعض الفصوص الدهنية، ويحيطان إحاطة تامة بفتحة الفرج، ويتصل بعضهما ببعض من أعلى حول البظر لتكوين غلفة البظر، أما من أسفل فيتصلان معاً في شكال الشفرين الصغيرين.

والبظر هو عضو الأنوثة الذي يقابل القضيب عند الرجل، ويتركب من قائمتين نسيجهما إسفنجي انتصابي، يتحدان معاً لتكوين جسم البظر الذي يبلغ طوله السنتيمتر والنصف، وينتهي من الأمام بجزء مخروطي الشكل هو حشفة البظر التي تحاكي حشفة القضيب.

والدهليز عبارة عن المسافة بين الشفرين الصغيرين إذا ما أبعد أحدهما عن الآخر، وأظهر ما في الدهليز فتحة الفرج والصماخ البولي الخارجي، وفتحة غدة بصلة المهبل، واحدة على كل ناحية.

ويحلو للبعض الجماع في الفرج دون الإيلاج وذلك هو الخضخضة، وقد يعطي تحسس الفرج لذة هائلة لكل من الرجل والمرأة، والبعض يكون جماعهم ربتاً ودلكاً للبظر ولفتحة الفرج وللشفرين الكبيرين والصغيرين. والفرج به كل الحس الجنسي، وقيل إن أعماق المهبل غير حساسة جنسياً، وإن الجماع المنتج للذة هو ما تناول الفرج وما يحويه. والمرأة قد تطلب الخضخضة، سواء بالقضيب أو باليد، وعندما تستمني النساء أو البنات باليد فإنهن يكتفين بتناول البظر باليد وبالدلك على الشفرين وبطولهما. وكذلك قد يأتي الرجل المرأة بلعق الفرج وقد تفعله المرأة مع المرأة. وبعض النساء تلتذ من الصماخ البولي ويحببن إيلاج أشياء في فتحته، ويكون ذلك مؤلماً أول الأمر بالنظر إلى حساسيته المفرطة، وربما هذا الألم هو ما يسعين إليه. وبفتحة الصماخ وما حولها مجموعة من الأعصاب، ومن ثم فقد يشمل الدلك باليد هذه المنطقة لتنضاف اللذة المتحصلة منها إلى لذة دلك البظر والأشفار.

ويشبه الشفران الصغيران غلفة قضيب الذكر، وبسطوحهما الداخلية والخارجية نسبة عالية من الأعصاب تجعلهما شديدي الحساسية للربت أو التحسيس أو التناول باليد، وكلاهما حساسيته بدرجة واحدة. وأما الشفران الكبيران فحالهما يشبه حال الصفن عند الرجل، وكلاهما له نفس النشأة في الجنين، وبعض النساء يتلذذن بتناولهما باليد أو بلعقهما، والقلة القليلة جداً لا تتحصل لهن لذة من ذلك، والغالب أن حالهما في اللذة كحال دلك الخصيتين عند الرجل.

ويقول كينزي: إن 97% من النساء يتلذذن بالإيلاج الخفيف الذي يتوخى الدهليز دون المهبل. وربما تكون مخلفات غشاء البكارة حساسة للتناول أيضاً، ولم يعرف ما إذا كانت حساسيتها الجنسية نتيجة وجود أعصاب بها أم نتيجة إثارتها للمناطق من الدهليز حولها، وهي المناطق الحساسة بالفعل للاستثارة الجنسية. وتحيط بالدهليز مجموعة من العضلات الرافعة، وقد تشعر الأنثى بالضغط عليها أثناء الجماع وتتجاوب عضلاتها كرد فعل لهذا الضغط، وأغلب النساء يستثيرهن ذلك.

2 ـ البظر:

يتمركز الحس الجنسي عند المرأة في البظر، وهو أداة شهوتها ويعادل القضيب عند الرجل ويجانسه تكويناً، ويتألف مثله من نسيج إسفنجي ينتفخ بالاستثارة، ويبلغ طوله في المرأة غير المختتنة نحو البوصة، وله قذتان يعلوهما العُناب ويقطع منه بالختان. ويكمن معظم البظر أعلى المهبل، ولا يبين منه إلا العناب الذي تغطيه غرلة بحيث لا يظهر البظر من الفرج، ومن ثم فلا يتأثر بالاحتكاك بملابس المرأة الداخلية.

والبظر في اللغة: هو الذي يبرز ويبين. وفي الانجليزية clitoris لفظة إغريقية الأصل بمعنى المختفي. ويحتوي البظر على شبكة من الأعصاب أكبر من شبكة أعصاب القضيب في الرجل ثلاث مرات. ويقول علماء التشريح: إن الجنين في تكوينه الباكر أنثوي، ولا يبدأ الذكر في التمايز عن الأنثى إلا في نحو الأسبوع السادس بتأثير إفراز الجنين للإندروجين، فإذا كان الشهر الثالث اكتملت المعالم الجنسية للجنين، ويتشابه البظر والقضيب من حيث إن الاثنين يمكن أن يتهيَّجا وينتصبا. وقيل إن البظر ما هو إلا قضيب في حالة بدائية، بينما القضيب بظر مبكر.

ويقول كينزي: إن النساء يثيرهن ذلك البظر، وأكثر ما يتهيجن منه هو دلك جسم البظر وليس رأسه. ويتصل البظر بالشفرين الصغيرين، وعند الجماع تكون الحركات الدافعة للقضيب على الشفرين الصغيرين. وتعالج البرودة الجنسية في المرأة في بعض الأحيان علاجاً جراحياً بإزالة غُرلة البظر وتعريته. وعند الإهاجة

وهي المرحلة الأولى في الجماع، ينتصب البظر بتأثير الدم الذي يتدفق إليه، وفي المرحلة التي تسبق الهزة يرتفع البظر ويتراجع إلى الخلف في اتجاه العانة، مخليا الطريق إلى المهبل أمام القضيب.

والمرأة التي تساحق المرأة تدلك البظر أو تلعقه بلسانها، وكذلك قد يفعل الرجل كتقدمة للجماع، ولا يوجد في جسم المرأة منطقة أكثر حساسية من البظر والشفرين الصغيرين وامتدادهما إلى المهبل، فإذا عرف الرجل ذلك كانت معرفته طريقاً إلى النجاح في الجماع، أو الاتصال بالمرأة اتصالاً يهيجها غاية الإهاجة حتى ليمكن أن تبلغ بها الهزة سريعاً وهو في الجماع يحاول أن يجعل البظر في نطاق الملامسة، التي تتحقق بجسمه عن طريق العانة كلما دفع قضيبه أو أخرجه من المهبل في حركات الجماع الرتيبة.

ومن رأي أطباء النفس أن الإنعاظ المهبلي الذي يقول به التحليليون مسألة مشكوك في صحتها في ضوء معلوماتنا عن تشريح وفيسيولوجيا الاستجابة الجنسية، إذ يجمع هؤلاء العلماء أن البظر وليس المهبل هو أداة الشهوة الجنسية عند المرأة، بينما يرى فرويد وتلاميذه أن البظر شديد الحساسية فعلاً وأن المهبل غير حساس عند البنات، ولكنهن عندما ينضجن جنسياً ونفسياً تتحول الحساسية من البظر إلى المهبل، ويشتهين الإيلاج في المهبل بدلاً من ملاطفة البظر، وقد يطلبن هذه الملاطفة، ولكنها مقدمة للإيلاج الذي بدونه لا يكون الجماع الصحيح.

ويذهب كينزي وآخرون إلى أن هذا التحول مغلوط علمياً، وليس ممكناً، ولم تؤكده التجارب والبحوث. وربما كان المقصود بالإنعاظ المهبلي أن الارتعاشات والتقلصات التي ترافق الإنعاظ وتتلوه تشمل المهبل أيضاً، وذلك حق عند بعض النساء دون البعض، حيث هناك فروق فردية في الاستجابة الجنسية عند النساء، فالبعض يشعر بالإنعاظ شعوراً قوياً يشمل المرأة جميعها، بحيث يرتجف به كل جسمها ومن ذلك المهبل. غير أن الغالبية يستجيبون للإنعاظ استجابات ليست على هذه الدرجة من الشدة، وهؤلاء لا تبلغ هزة الإنعاظ إلى المهبل، ولا شأن هنا للنضج، وليس هناك من دليل على أن المهبل

يستجيب استجابة غير الاستجابة التي يأتيها الجسم كله عند الجماع. وقد تتسبب هذه النظريات لمدرسة التحليليين في بلبلة تفكير بعض النساء والرجال، فلربما تضطرب المرأة نفسياً إذ تسمع بأن معيار النضج الجنسي أن تكون شهوتها بالمهبل وليس بالبظر، مع أنها تشعر بأن هذه الشهوة غالبة بالبظر وليس بالمهبل، وقد تحسب أنها غير ناضجة نفسياً وجنسياً، وقد يحسبها زوجها أيضاً كذلك، وقد تعرض نفسها أو يعرضها زوجها على أخصائيي النفس، وقد تحاول أن تغير أسلوبها في الجماع مع زوجها، فتفشل ويزيد اضطرابها النفسي، وقد تسوء الأمور أكثر وتتهدد حياتها الزوجية.

ويبدو أن هذه المسائل الخلافية تزيد حدتها إذا عرفنا أن الكثير من المسلمات يختتن، والخفض قد يزيد فيما يسمى بالطهارة الفرعونية، فتقطع الخافضة البظر أغلبه، وقد تزيل الشفرين الصغيرين، ومع ذلك فإن المرأة المختتنة تنعظ وإن تأخرت قليلاً عن المرأة غير المختتنة. والمرأة غير المختتنة تبلغ غاية التهيج بعد عشر ثوان من الاستثارة الجنسية، وتستمر على هذا التهيج الذي بلغته لفترة أخرى يقال لها هضبة التهيج، وقد تستغرق من 30 ثانية إلى عدة دقائق ثم يكون بعضها الإنعاظ. وفي المرأة المختتنة يحدث نفس الشيء مع فارق بسيط يمكن للرجل أن يعوض عنه بخبرته، فإذا علمنا أن الرجل يُمنِي غالباً قبل المرأة غير المختتنة، فإن ذلك قد يجعله يلجأ إلى المخدرات ليطيل من فترة الجماع حتى يستطيع أن يحقق للمرأة إنعاظها، ولعل ذلك من أسباب انتشار المخدرات في بعض البلاد الإسلامية، وخاصة الحشيش الذي له هذه الصفة.

غير أن تعاطي المخدرات له أسباب أكبر من ذلك في التكوين النفسي للمتعاطي، ومتعاطي المخدرات له مشاكله التي يعاني منها، ويشكو من اضطراب في الشخصية واضطرابات نفسية كثيرة، ولا تستحدث المخدرات التوافق الذي ينشده في الزواج وفي الجماع حيث إن ما تستحدثه في الشخصية يباعد بينه وبين زوجته، وكلما اعتاد المخدرات وأدمنها زادت كمية الجرعات المطلوبة منها لاستحداث التخدير عنده، ويجره ذلك لمشاكل أخرى أكبر وأعوص.

وإذا كان الاختتان أو الخفض لا يمنع المرأة أن تستشعر الشهوة، وإذا كانت مداعبة ما يبقى من البظر بعد الخفض له هذا التأثير في التعجيل بإهاجة المرأة، فإننا لا ندري سبباً يدفع إلى عملية الاختتان وما قد تجره من عواقب نفسية وخيمة على البنت في مطلع حياتها، حيث ترتبط هذه العملية وآلامها بالعملية الجنسية ويقرُّ في لا شعورها أنها عقاب لها على أية مشاعر جنسية، ومن ثم تزيد من حدة الكبت عندها، ولا يجعلها ذلك سوية عندما تتزوج، إذ تكون عملية القمع لمشاعرها وأحاسيسها قوية بحيث تؤخر إنعاظها، وقد تمنعه عند بعض النساء بحسب شخصيتها وتكوينها النفسي.

والمرأة بعد سن الخمسين يقل حجم بظرها، إلا أن ذلك لا يحدث إلا بعد الإياس، ولا يعني ذلك أن جسم البظر أو عنابه يصغران، وإنما تضمر غرلة البظر المتصلة بالشفرين الصغيرين، وكذلك يتضاءل الغطاء الدهني للعناب. وليس هناك ما يثبت أن حساسية البظر تقل، وهو يستمر يؤدي وظيفته الاستقبالية، ويرسل الأحاسيس إلى الجهاز العصبي كما كان دائماً، غير أن انحسار الغشاء الدهني المغطي للعناب وضموره من الشفرين الصغيرين والكبيرين يجعل رأس البظر وجسمه معرضاً للملامسة، وذلك يؤلم المرأة ولا يهيجها. وكثيراً ما تكون ملامسة البظر عند النساء كبار السن بعد الخمسين مجلبة للألم، وقد تستجيب المرأة استجابات مؤلمة بالدلك أو السحق للبظر خلال التحضير للجماع أو أثنائه، وهو ما كان يسعدها عندما كانت صغيرة السن، ولا يعني ذلك أن البظر لم يعد وظيفياً كما كان من حيث الإهاجة، وإنما يعني أنه قد يستجيب، على عكس المتوقع منه، إذا عومل من قبل الذكر الذي يجامع المرأة بغلظة أو عنف، فإذا كانت المعاملة بتمهل وبرقة فإنه يظل يعمل كعضو إهاجة أساسي في العملية الجنسية عند المرأة.

3 ـ المهبل:

المهبل في اللغة هوة ذاهبة في الأرض، كما أن الفرج فتق أو شق، وأما في الاصطلاح هو عضو الأنوثة الذي يكون فيه الجماع، بينما المهبل قناة تمتد من

الفرج إلى عنق الرحم. والاسم اللاتيني للمهبل أو الفرج له نفس الدلالة اللغوية والاصطلاحية.

والمهبل في أحواله العادية في حالة استرخاء وله إمكانية الاتساع، وهو عضلي مخاطي انتصابي، وامتداده بطول ثلاث بوصات تقريباً من أعلى، من عنق الرحم، إلى أسفل حيث الدهليز بفتحة الفرج بين الشفرين الصغيرين، ومنه يبدأ المهبل. فإذا كان الدهليز أو فتحة الفرج من أعضاء الجنس الظاهرة عند المرأة، فالمهبل من أعضائه الباطنة أو المستخفية عن العين. وعادة ما يفصل الدهليز عن قناة المهبل عند معظم البنات غشاء البكارة، فإذا تمزق فإنه يخلف زوائد آسية تظل بالمرأة حتى بعد أن تحمل وتلد.

ويبطن المهبل غشاء مخاطي يتمدد عند الولادة، ويتسع ليحتوي قضيب الرجل عند الجماع، واتساعه يكون بالطول والعرض في الجماع، ومن خلاله يمر الطمث من الرحم خارجاً من الفرج، وبعد أن تبلغ المرأة الإياس وينقطع حيضها فإن المهبل يفقد الكثير من مرونته.

وعندما تتهيج المرأة فإن المهبل يفرز ما شأنه تسهيل الإيلاج والجماع، ويحدث ذلك خلال العشر ثوان الأولى من الإثارة الجنسية الشديدة، ويتقبَّض في ثلثه الأول من جهة الفرج، ويتغير لونه إلى الوردي عندما يشتد الجماع وتقرب المرأة من الإنعاظ، فإذا انعظت ظل المهبل يتقبض لا إرادياً، وبعض النساء قد تبلغ التقبضات بهن ثلاثاً، والبعض قد يصل هذا العدد إلى اثنتي عشرة. وتمتد هذه التقبضات إلى فتحة الفرج والرحم وعضلات العجان والفخذين، وتستمر الواحدة نحو عُشر الثانية، وبعد الإنعاظ يأتي الاسترخاء فيعود المهبل إلى حالته الطبيعية ولونه العادي الفاتح، ويتوقف الإفراز، وتشعر المرأة بأنها أفضل حالاً. وإذا لم تنعظ فإن عودة المهبل إلى حالته قد يتأخر وربما لساعتين أو لأكثر من ذلك، ومن الممكن للمرأة أن تواصل الجماع بعد الإنعاظ طالما لم تجف مهبلياً، فإذا جفّت فإنه من الصعب عليها الاستمرار فيه، وقد يصيبها من ذلك ضرر بالغ.

والمهبل على عكس الدهليز يكاد يخلو من أعصاب الحس عند أغلب النساء، وهو لا يتجاوب مع الضغط عليه أو لمسه، ولو حدث تجاوب عند البعض فإن ذلك يكون في الجزء المتاخم للدهليز أو لفتحة الفرج، ولذلك يذهب بعض العلماء إلى أن المهبل ليس أداة الشهوة والإنعاظ عند المرأة، وإنما أداتهما هو البظر، ويكاد ذلك يكون القاعدة مع نحو 80% من النساء، إلا أن البعض قد يستحدثن اللذة في الاستمناء مثلاً بإنفاذ الأصابع أو أية أدوات في المهبل للضغط على العضلات الداخلية الملاصقة للبظر. ولم يحدث أن كان هناك استمناء مع الاسترخاء العميق في المهبل، والكثير من النساء يهيجهن أن يكون الجماع استدخالاً إلى أعماق المهبل، وربما كان ذلك لأسباب كثيرة نفسية أكثر منها متعلقة بالحس الجنسي في المهبل، فالمرأة يرضيها أن تستشعر أن رجلها يمتلكها، وأنه يسره ذلك الاستدخال. وكذلك فإن الاستدخال يعني الملامسة والاحتكاك الجسدي الشديد الذي يكون فيه كل جسم الرجل وقد ران بثقله على المنطقة الشهوية للمرأة مستحدثاً ضغوطاً على عضلات البطن والعجان والفخذين، ومهيجاً للبظر والأشفار والدهليز، مع العنف الذي يستلزمه الضغط، وذلك يعجل بالإنعاظ، فيُظن أنه بسبب الاستدخال نفسه لا من حيث ما يعنيه هذا الاستدخال.

ولقد كان فرويد يقول بأن الإنعاظ مهبلي، وأن كمال المرأة جنسياً أن يكون إنعاظها مهبلياً، وأنها لو ظلت تنعظ بظرياً فذلك دليل عدم نضج جنسي. ويقول فرويد بطور قضيبي تمر فيه الفتيات بمرحلة تكون الشهوة فيه بالبظر، إلا أن أية فتاة تنتقل من الطور القضيبي إلى الأنوثة، وتطلب الجماع في الفرج والمهبل وإن كان البظر يظل عضواً تهيجياً شديداً، وذلك أنه من الطبيعي أن تنتقل من المرحلة الجنسية إلى المرحلة التناسلية، حيث يكون للجماع هدف يتجاوز اللذة الجنسية إلى الإنسال والإنجاب.

ويذهب علماء الفيسيولوجيا إلى أن طريقة تجاوب الأنثى مع الجماع شيء من طبيعتها، وأن النساء يختلفن في ذلك، فبعضهن إنعاظهن يشمل الجسم جميعه، وهو إنعاظ عنيف يرتج له جسد المرأة وعضلاتها جميعها، ويتقبض له رحمها ومهبلها وفرجها وعضلات فخذيها، والبعض إنعاظهن خفيف وليست له

هذه الأبعاد، وتظل لكل امرأة طبيعتها الخاصة بها، وليس هناك ما يسمى نضج أو انتقال من طور إلى طور، وإذا كان هناك انتقال حقيقي من الطور الشبقي البظري إلى الطور المهبلي فإنه انتقال نفسي أكثر منه فيسيولوجي.

ويردُّ علماء التحليل النفسي إصابة المرأة بالعُنَّة أو البرود الجنسي إلى فشلها في القيام بهذه النقلة، ومن رأيهم أن المرأة العنينة هي التي يظل شبقها ببظرها، فيتطلب ذلك الكثير من المداعبة الجنسية، والملامسة والدلك للبظر والفرج دون الإدخال إلى المهبل، حتى لا تصاب المرأة مع العجلة بما يسمى قمطة المهبل أو قمطة الفرج، وهي أن يضيق المهبل حتى ليستحيل على الرجل أن يستدخل قضيبه وإن كان يمكنه أن يستدخل إصبعه.

القدرة الجنسية والإنجاب

تختلف القدرة على ممارسة الجنس عن القدرة على الإنجاب!

فالقدرة الجنسية: كما هو واضح مما سبق ـ ترتبط بعوامل عضوية ونفسية وعصبية وبيئية واجتماعية.

أما القدرة على الإنجاب: فهذه ترجع لعوامل أخرى منها ـ بعد إذن الله وإرادته ـ ومنها:

أ ـ أن تكون الحيوانات المنوية للرجل سليمة وحية وفي حالة طبيعية، ولها نسبة معينة حتى يحدث الإخصاب.

ب ـ اعتبارات أخرى كثيرة يجب توافرها في الزوجة منها: سلامة الرحم، والتبويض.... إلخ.

من هنا الارتباط بين القدرة الجنسية والقدرة على الإنجاب.

1 ـ فإن هناك أشخاصاً يتمتعون بالقدرة والكفاءة الجنسية العالية والكبيرة، لكن لا يستطيعون الإنجاب.

2 ـ وإن هناك أشخاصاً ليست لهم قدرة جنسية عالية، أي ضعاف جنسياً، إلا أنهم يستطيعون الإنجاب.

والقدرة الجنسية تختلف من رجل إلى آخر، وعامة تقل الرغبة الجنسية مع تقدم العمر، وليس هناك محدد لقياس قدرة الرجل الجنسية، ولكن هناك تغيرات فسيولوجية مصاحبة لتقدم العمر تؤدي إلى اختلاف النشاط الجنسي، ويجب أن نكون على علم ودراية بهذه المتغيرات. فالرجل في العشرينات من عمره تكون سرعة استجابته للمؤثرات الجنسية عالية، وبالتالي يحدث الانتصاب بسرعة وقد يصاحب ذلك حدوث القذف أيضاً بسرعة. يستطيع الرجل في هذه السن معاودة الانتصاب مرة أخرى بعد فترة قصيرة ويمكن ممارسة المعاشرة الجنسية أكثر من مرة في اليوم الواحد.

بعد الزواج، بعدة شهور، عادة ما يلجأ الرجل إلى الاعتدال في الممارسة الجنسية؛ فإن ممارسة المعاشرة الجنسية من مرتين إلى ثلاث مرات أسبوعياً تعتبر معدلاً طبيعياً، وقد يلاحظ الرجل في الخمسينات من عمره أنه يأخذ وقتاً أطول للحصول على الانتصاب بالشدة المطلوبة، وأن مدة المجامعة تطول ويتأخر القذف؛ وهي تغيرات طبيعية مصاحبة لتقدم العمر قد تكون مفيدة ومرغوبة بين الزوجين لاستمتاعهما بالمعاشرة الجنسية أكثر من الوقت السابق، وقد يقلّ معدل قدرة الرجل على الممارسة الجنسية إلى مرة واحدة أسبوعياً بعد سن الخمسين، وعادة ينخفض هذا المعدل إلى مرة أو اثنين في الشهر بعد سن السبعين.

المتعة الجنسية هي مسألة نسبية بين الزوجين وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالظروف النفسية المحيطة، وليس لها علاقة مباشرة بطول القضيب، كما يعتقد الكثيرون، بل ترتبط أكثر بأسلوب الممارسة الجنسية ومدى التفاهم والترابط العاطفي بين الزوجين واستعدادهما الشخصي وإقبالهما على المعاشرة الجنسية؛ وتحدث قمة المتعة الجنسية للرجل عند لحظات القذف التي تدوم ثواني قليلة وبعدها تزول الشهوة بسرعة ويزول الانتصاب. أما قمة المتعة الجنسية للمرأة فهي ما تسمى بالنشوة الجنسية وهي تحدث عند انقباض عضلات الحوض والمهبل بطريقة متكررة يصاحبها إفراز سوائل مخاطية من المهبل وعنق الرحم، وتختلف الفترة

اللازمة للوصول إلى النشوة الجنسية من امرأة إلى أخرى، ولكنها تعتمد إلى حد كبير على مدى استعداد المرأة واستجابتها أثناء المعاشرة الجنسية إلى جانب توافر الظروف النفسية المساعدة المحيطة.

بعد وصول المرأة إلى النشوة الجنسية، فإن هذه الشهوة تغدو بطيئة وليس كما يحدث عند الرجل، وقد تطول عدة دقائق، وليس هناك معدل محدود لقدرة المرأة على المعاشرة الجنسية، إذ إن ذلك يرتبط باستعدادها النفسي والذهني، وعادة تقل الرغبة الجنسية عند وصولها إلى سن اليأس نتيجة للتغيرات المصاحبة لنقص الهرمونات الأنثوية عندها[1].

هل تزيد القوة الجنسية بأنواع معينة من الطعام؟

ليس كل الرجال متساوين في القدرة الجنسية، الأزواج الناجحون جنسياً هم الذين يتمتعون بصحة جيدة ويستطيعون التحكم في غرائزهم ويستطيعون التجاوب مع الجنس الآخر، وليسوا شديدي أو وافري النشاط بدرجة زائدة، كما أن الرجل المتفهم لرغبات زوجته الجنسية والذي يستطيع أن يعطيها الوقت الكافي للوصول إلى غايتها من المتعة هو رجل ناجح في حياته الزوجية.

أما التحكم في أنواع الأغذية فله تأثير كبير في تحسين حالة الشخص الصحية والجسمية. والضرر كل الضرر يكمن في السمنة المفرطة أو النحافة الشديدة. وعندما نبحث الصلة بين الطعام والجنس سنجد أن هناك خطأ بين المعتقدات القديمة وبين الواقع، فبعض تلك المعتقدات تؤكد أن تناول البيض بكميات كبيرة يقوي النشاط الجنسي، وكذلك بعض الأغذية الخضر الطازجة، ولكن ذلك غير حقيقي، فمن المؤكد أنه لا صلة لهذه الأغذية بتقوية الرغبة الجنسية لدى الرجل، ومن هنا يمكن القول بأن الخرافات تلعب دوراً في الدعاية لهذه المعتقدات.

(1) الضعف الجنسي، د. وليد خاطر الخضير، د. مصطفى كمال منسي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

ويجب عليك قبل كل شيء أن تتأكد أن وزنك ليس فوق المستوى المعقول أو دون الوزن الذي يتناسب مع سنك، فإذا كان هناك توازن معقول يحول بينك وبين السمنة الزائدة والنحافة، فإنك بكل تأكيد تستطيع أن تعيش طبيعياً في حياتك الجنسية، كما أن بعض الخضروات الطازجة أو كوباً من اللبن يفعلان الكثير لتحسين الصحة العامة لأي رجل بما في ذلك علاقاته الجنسية أيضاً، ولكن اللجوء إلى أي علاج خرافي من تلك العلاجات أو الوصفات التي تتداول منذ فجر التاريخ غالباً ما يسبب أضراراً للجسم دون أن تؤدي إلى فائدة.

ونصيحة أخيرة: إذا ما شعرت أن جسمك لا يتجاوب معك جنسياً فاعلم أن الطعام قد يكون له دخل في ذلك، إما نتيجة لسوء التغذية والضعف الشديد وإما نتيجة لبدانة زائدة أيضاً، وفي كلتا الحالتين استشر طبيبك، فإنه غالباً ما يضيف إلى غذائك أو ينقص منه أطعمة معينة، وقد يضع لك نظاماً خاصاً لطعامك لو اتبعته ستجد بكل تأكيد تحسناً ملموساً، ومن المؤكد أن مثل هذه الأطعمة ستكون في متناول يدك، وعليك أن تعلم أن قانون توازن الأغذية ليس معقداً وأن فائدته ـ بدون شك ـ عظيمة للغاية[1].

(1) شبابنا ومشاكلهم الصحية، محمد رفعت، ص 105 ـ 106، دار البحار، بيروت.

الباب الثالث

كل ما تهم معرفته بشأن ليلة الزفاف

الخوف الأول في ليلة الزفاف «غشاء البكارة»

الليلة الأولى تشكل في الحقيقة المفتاح الذي إذا عرف المرء كيف يستعمله استطاع الدخول إلى دار السعادة والهناء.

أما إذا أهمل أو استحكم الجهل في التصرف، فإن ذلك يقوده إلى عالمٍ تعيش فيه البغضاء، وتسود فيه الغواية والاختلاف.

إن الليلة الأولى، وما يجري فيها، يجب أن تنال الحيز اللائق من اهتمام كل من الرجل والمرأة، أو بمعنى أوضح العريس والعروس، فللعريس الدور الهام كما هو للعروس أيضًا.

وعلى مقدار حسن التصرف من كلا الجانبين تتكون الحياة الجنسِيّة، وترتكز على العلاقات الزوجية والعاطفية، إذا أدركنا أن الثقافة الجنسِيّة تعمم وتفهم، وتستعمل بالشكل الذي يجب أن يكون.

وإذا أدركنا أن معظم الزيجات لا زالت حتى الآن تقوم على أسس فاسدة، عرفنا أهمية الثقافة الجنسِيّة، والدور الذي تلعبه المعرفة في هذا السبيل.

وفي الحقيقة ونحن في معرض التحدث عن هذه الليلة لا يمكن لنا أن نهمل أهميتها بالنسبة إلى كل من الجنسين.

هذه الليلة قد تكون من أكثر الليالي رهبة ورعباً في حياة المرأة، فهي

ـ حسب ما تسمع ـ تتوقع آلاماً فظيعة، وتخشى من النزيف، وتخاف أن تصاب ببعض العوارض المرضية بعد ذلك.

نزيف والتهابات ليلة الزفاف

ولكن يجب أن تدرك الزوجة الصغيرة أن ليلة الزفاف لا تكون سببًا في حدوث نزيف إلا في حالات نادرة جدًا.

والمعتاد أن تتساقط نقاط قليلة من الدم وهذا ما يزعج بعض الأزواج ويجعلهم يتشككون ظلمًا في زوجاتهم.

ولا تسبب ليلة الزفاف ألمًا صارخًا إلا إذا كان رعب الزوجة وحالتها النفسية المضطربة سبباً في تقلص عضلاتها ومقاومتها للزوج، بينما هو يحاول في وسط حيرته واضطرابه أن يثبت رجولته بطريقة فظة خشنة.

وعلى الزوجة الصغيرة أن تطمئن إلى أن الزواج بطبيعته لا يسبب آلاماً شديدة وأن تتناول ليلة الزفاف بعض الأقراص المهدئة، وتستخدم بعض المواد اللزجة مثل المراهم المطهرة.

وعلى الزوج أن يصبر، ويشجع زوجته ويكتسب ثقتها في رقته وحرصه على مصلحتها... فيزيل هذا الخوف ويزيل التقلصات التي تجعل الزواج كابوساً مزعجاً للزوجين معاً.

وقد تحتاج الزوجة الصغيرة إلى الراحة أيضاً بضعة أيام، تستخدم خلالها المحاليل المطهرة من الخارج مثل محلول الديتول المخفف ومرهم التيرامايسين لإزالة الالتهاب الخفيف الذي يحدث نتيجة لقاء ليلة الزفاف، والذي يزول بسرعة[1].

---

(1) انظر: أسرار الحياة الزوجية، محمد رفعت، ص 84 ـ 87.

واجب الزوج الخلقي في ليلة الزفاف

إن الزوج مدعو إلى اعتبار تلك المرأة التي أضحت زوجته، واقترن اسمها باسمه، مدعو إلى اعتبارها إنسانة ـ لها عواطف وأحاسيس ـ وتجيش نفسها بما تجيش به نفسه ولها كرامتها وأفكارها وأحلامها وآمالها، فعليه أن يحترم تلك العواطف، وعليه أن يعمل جاهدًا على تقدير تلك الكرامة، وبالتالي عليه ألّا يحطم تلك الأحلام والأماني.

وعلى الرجل في هذه المواقف الهامة ألّا يقف كل تفكيره وجهده على الاهتمام برغبته الدافعة الهامة من المتعة الجسدية حتى لا تطغى هذه الرغبة، وتلك الإحساسات وشهوة التملك على إهمال العروس وتحطيم خيالها، ثم ترويعها وتنفيرها.

ومن هذا فإن الزوج عندما يندفع إلى غرضه بدون روية أو حكمة ودراية، فإنه بذلك يلطم مشاعر شريكته، ويحطم تلك الرقة المفروضة واللازمة.

وقد تكون تلك اللطمة، وذلك الاندفاع عنيفين، تعقبهما نتائج سلبية سريعة لدى الشريكة فيتولد الشعور بالكراهية في قلب الزوجة نحو رجلها بحيث يكوّن ذلك الشعور أساساً تنبني عليه جدران كثيفة من النفور الدائم، والكراهية المستمرة، التي تفضي إلى تحطيم الحياة الزوجية[1].

أهمية الملاعبات والملاطفات ليلة الزفاف

من الأصلح والمستحسن أن يحاول العريس توفير جو من الحب والشاعرية، ليلة الزفاف، كأن يعد عشاء هادئاً، على ضوءٍ خافت، ويفاجئ العروس بهدية لطيفة.

---

(1) المعرفة الجنسية، د. كليفورد، ص 111.

لأن كل هذه الأمور البسيطة لها تأثير السحر في العروس، وتدعيم ثقتها واطمئنانها إلى زوجها.

ولذلك يتوجب على الزوج أن يركن إلى السياسة والحكمة والمداراة على شرط ألا تكون هذه مصطنعة، بل أن تكون منبعثة من قلبه وعواطفه، وكل مشاعره.

وهناك حقيقة لا بد من ذكرها، وهي تدل على أن زمام مبادرة الأمور الجنسِيّة بيد الرجل في العموم إلا في بعض الحالات الشاذة النادرة.

إن التصرفات من ضم، وقُبلٍ، ومداعبة تكون في الحقيقة نوعاً من الاستجابة الجنسِيّة، لذا فمنً الضروري أن يمهد الرجل للعمل الجنسيّ التام بهذا النوع من التصرفات المشروعة.

فالرجل مدعو إلى سلوك جميع الطرق للحصول على رضا عروسته، واستجابة رغباتها، وتحريك عواطفها، وبعث النشاط والاستعداد، والتأهب لهذه الليلة، ثم التشويق بمختلف الوسائل المشروعة من الضرورة بمكانٍ بعيد.

الجرح الناتج عن فض غشاء البكارة

المعتاد في ليلة الزفاف أن يتمزق غشاء البكارة، وينزف كمية من الدم، تتفاوت من مجرد قطرات قليلة إلى نزيفٍ شديد.

وهنا ينصح العروسان بالراحة في الأيام التالية، فيتوقفان عن الجماع عدة أيام.

لماذا يخفق الزوج في ليلة الزفاف؟

كثيراً ما يحدث فيعجز الزوج في أيام شهر العسل الأولى عن القيام بواجباته الزوجية. الموقف يتكرر كثيراً. ففي الليلة الأولى يشعر الزوج بالتوتر والقلق وأحياناً بالخوف، وينتهي به الأمر إلى الإخفاق التام، ثم تأتي الليلة الثانية

فيحاول مرة أخرى، ولا تكون النتيجة في الليلة الثانية أفضل منها في الليلة الأولى، بل زاد عليها الإحساس بالانهيار والشك في الرجولة.

إن النشاط الجنسي للرجل تتحكم فيه مراكز معينة في المخ، هذه المراكز يصلها نوعان من الأعصاب اللاإرادية أي التي لا يتحكم الإنسان فيها، وهي:

النوع الأول: يعمل على زيادة كمية الدم الموجودة في الأوعية الدموية التي تغذي العضو الذكري، وتعطيه القدرة على الصلابة والمثابرة لإتمام اللقاء الزوجي بنجاح.

النوع الثاني: وظيفة عكس وظيفة النوع السابق، فهو يؤدي إلى الحد من كمية الدم الواردة للعضو فتضعف القوة الجنسية. والذي يحدث عند القلق والتوتر والخوف أن تعمل الأعصاب التي تتبع الثاني فيخفق الجماع، إن الخوف والقلق يقضيان على الإثارة والرغبة، ومن هنا يحدث الإخفاق!..

والعملية الجنسية لكي تتم على الوجه الأكمل يلزم لها أمور كثيرة أهمها الراحة الجسمية والراحة النفسية، والإرهاق الجسمي والنفسي يعملان على عدم إتمام اللقاء على الوجه الأكمل، ويلاحظ غالباً أن الزوج يرهق نفسه تماماً في يوم الزفاف والأيام السابقة له في تجهيزات العرس وخلافه، فإذا ما حانت ساعة خلوته بعروسه فإن الإرهاق الجسمي يكون بداية أسباب الإخفاق في إتمام اللقاء الأول، فالمحاولة الأولى متوقع لها الإخفاق مع الإجهاد والتعب، وكان من الواجب أن يهدأ وينام. إلا أنه يحاول فيخفق ثم يكرّر المحاولة في نفس الليلة فيخفق أيضاً. فزاد الإجهاد الجسمي وترتب عليه إرهاق عصبي وقلق نفسي انتهى إلى الضعف والخمول. فالجهاز التناسلي جزء من الجسم يصيبه وينعكس عليه ما يصيب الجسم من مرض أو تعب، ومع تكرار المحاولات يدخل الزوج في عمل مقارنات بين المحاولة وما يعقبها من محاولات، في الوقت ذاته يزداد خوفه من الإخفاق، ويزداد معه القلق، فينتهي الأمر ولا بد إلى الإخفاق.

نصائح لكل عروسين في ليلة الزفاف

- يجب ألا تتصرف الزوجة في ليلة الزفاف أي تصرف يوحي لزوجها بأنها تهزأ منه لأنه غير جدير بها أو غير مناسب.
- يجب على الزوجة أن تحتفظ بأسرارها الزوجية، بحيث لا تنقل تفصيلات حالة زوجها إلى أقاربها أو أقاربه.
- يفضل أن تكون أول أيام الزواج بعيدة عن جو الأسرة وازدحام الأقارب.
- على الأهل ألا يتدخلوا في الخصائص الدقيقة لبداية الحياة الزوجية فيسألوا العروس وينصحوا العريس... فهذا يزيد القلق ويؤدي إلى الإخفاق.
- يجب أن تقنع الزوجة زوجها بأنه في كامل قوته الجنسية إذا تعرض للإخفاق، لا أن تكون معول هدم تعيِّره بإخفاقه.. إلخ، فالتهدئة النفسية للزوج تساعد في إزالة الإحساس بالإخفاق، بل وتنتهي بالنجاح الكامل.
- إذا أخفق الزوج في أول محاولة يجب ألا يحاول تكرار اللقاء في نفس الليلة، بل يأخذ قسطه من الراحة ثم تأجيل المحاولة إلى صباح اليوم التالي.
- لا يجب بدء اللقاء بين الزوجين إلا بعد المداعبات والملاطفات الكاملة كما أسلفنا.

أشكال العجز الجنسي

وللعجز الجنسي أنماط وأشكال عديدة ومختلفة، لكن أهمها:

1 ـ عدم وجود الرغبة الجنسية مع شريكة الحياة، أي الزوجة، أو فقدان الرغبة بوجه عام.

2 ـ عدم القدرة على الانتصاب.

3 ـ عدم القدرة على استمرار الانتصاب لإتمام العملية الجنسية.

4 ـ عدم القدرة على قذف السائل المنوي رغم وجود انتصاب.

5 ـ القذف المبكر، أو سرعة القذف.

الأسباب العضوية

أما الأسباب العضوية للعجز الجنسي للرجل فكثيرة، وأهم هذه الأسباب هي:

- أمراض الحبل الشوكي وإصاباته المختلفة، وأمراض المخ والمخيخ والشلل.
- التهابات الأعصاب أو اعتلالها كما يحدث في مرضى السكر، ومدمني المشروبات الكحولية، ونقص فيتامين B_{12}، وسوء التغذية وغيرها.
- مرض الخلية العصبية.
- اضطرابات الغدد الصم واختلال مستوى الهرمونات في الجسم.
- الأمراض التي تؤدي إلى الضعف والهزال كالدرن الرئوي والحمى المزمنة والأمراض الخبيثة، والزهري.
- بعض أورام قاع المخ، أو الإصابات العنيفة في الرأس، والتي تؤثر على المخ.
- وجود قصور في وظائف الغدة النخامية (الجاركلوية) أو الخصية أو البنكرياس.
- التوتر العضلي الضموري.
- بعض العيوب الخلقية والأمراض الموضعية في العضو ومجرى البول.
- التهاب البروستاتا وتضخمها والحوصلة المنوية ومجرى البول.
- بعض العقاقير والأدوية تؤثر في الأعصاب وبالتالي تؤثر في الرغبة الجنسية، كالكحوليات، وأدوية العلاج النفسي والمهدئات، وأدوية علاج الضغط، والمخدرات بأنواعها، والأدوية المدرة للبول، والأدوية المضادة للاكتئاب.

- ارتفاع ضغط الدم.
- انسداد الأوردة والشرايين المتصلة بعضو التناسل.
- الأورام، أو وجود كسور في منطقة الحوض، أو الإصابة بالطلقات النارية، أو إصابات العمود الفقري.

وهنا تنبيهات لا بد منها:

- لا توجد صلة بين حجم عضو التناسل وبين الضعف الجنسي أو القوة الجنسية، فإن صغر الحجم لا يعني الضعف، كما أن كبر الحجم لا يعني القوة، ولا ارتباط بين هذا وذاك.
- وصفات العطارين لتقوية الضعف لا تؤخذ بأمان كامل فقد يكون لها أضرار جانبية أخرى أكثر من نفعها.
- لا توجد صلة بين سرعة القذف والضعف الجنسي، فهما حالتان مختلفان ولكل منهما علاج يختلف عن الأخرى، ولا ارتباط بينهما.

الباب الرابع
كل ما تهم معرفته بشأن شهر العسل

التهابات شهر العسل

أحب أن ألفت النظر للأزواج والزوجات الجدد إلى أن شهر العسل ليس كما يتوهمون، فقد يكون لدى الشعوب الأخرى التي تسمح بممارسة الجنس قبل الزواج، أو بمعنى آخر لا يوجد غشاء بكارة.

أما في البلدان المحافظة فيترك تمزق الغشاء جرحاً أو جروحاً تحتاج لبعض أيام قد تمتدّ إلى أسبوعٍ أو أكثر حتى تلتئم.

الوقاية من التهابات شهر العسل

أحب أن ألفت نظر المرأة المقبلة على الزواج إلى بعض الحقائق الآتية:

أولاً: لا تحتاج امرأة إلى غسيل داخلي، أي دش إلا في حالة وجود التهابات فعلية. وهذا بالطبع يختلف كليًا عن مداومة الغسيل الخارجي بالماء والصابون. وما تزال النساء ينصحن المقبلات على الزواج بضرورة إدخال الإصبع وإزالة الطبقة البيضاء من الإفرازات التي توجد في المهبل. وهذا خطأ لأن هذه الطبقة خلقها الله لحماية جدار المهبل من الميكروبات. ومعظم النساء اللاتي يمارسن هذه العادة يشكين من إفرازات مهبلية مستمرة.

ويسمح للمرأة بالغسيل الداخلي بواسطة الدش، بعد انقطاع الحيض أو في

اليوم التالي للعملية الجنسِيّة. وأنسب شيء للغسيل هو ملعقة ملح سفرة تضاف إلى ملء كوبي ماء دافئ للغسيل بواسطة الدش المهبلي.

أما دوام الغسيل الداخلي بواسطة بودرة الدش فيؤدي إلى جفاف وتشقق المهبل وقتل البكتريا النافعة الموجودة في جدار المهبل. لذلك يجب تجنبه إلا بأمر الطبيب ولفترة محدودة.

ثانياً: عند فوهة المهبل توجد غدتان تفرزان سائلاً هلاميًا شفافاً عند الإثارة الجنسِيّة، وذلك لتيسير المعاشرة الجنسِيّة. وانقضاء وقت كاف في المداعبة بين الزوجين ضروري لتنشط هذه الغدد وإعداد المرأة للعملية الجنسِيّة.

ثالثًا: لا يوجد أي ارتباط مباشر بين المهبل وتجويف البطن. فبعض النساء يتصوَّرْن أو يتخوفن خطأ من دخول سوائل الغسيل المهبلي اللبوسات الموضعية إلى بطونهن.

رابعاً: رغم ارتباط قناة مجرى البول بجدار المهبل إلا أن لكل منهما طريقته وكثيراً ما تتصور المرأة دخول مياه الدش في قناة مجرى البول، وهذا غير ممكن إطلاقًا.

خامسًا: سيحاول الزوج في بدء حياته الزوجية ممارسة الجنس في أوضاع مختلفة تريحه ومعظمها متعب للزوجة، وممكن للزوجة بلباقة أن تضع لزوجها ما يريحها من هذه الأوضاع وما يتعبها.

وفي معظم الحالات يستقر الزوج على الوضع الشائع المألوف بعد أن يستعرض سابق خبرته النظرية والعملية[1].

---

(1) انظر: أسرار الحياة الزوجية، محمد رفعت، ص 97 ـ 99.

أسباب عدم نزول دماء في ليلة الزفاف

يقول الزوج: اتصلت بزوجتي، ولم يكن هناك دم؟!

نعم، الإحصاءات تقول: إن 30% من الفتيات لا ينزفن عند أول اتصال مع الزوج. وهذا يرجع إلى الأسباب التالية:

1 ـ صلابة الغشاء، وإذا جاوزت المرأة الناضجة سنّ الثلاثين دون أن يمسسها إنسان ازدادت بكارتها صلابة ومتانة كما في أجزاء جسمها، فتزيد عندئذ مصاعب الجماع غالباً.

2 ـ الغشاء المطاطي، وهو يمتاز بنمو البكارة نمواً زائداً زيادة طفيفة، وقد يكون شكله عادياً، ولكنه غير متماسك، يقبل الامتداد، ولا يثقبه الجماع ويبقى سليماً بعد ولادة الطفل الأول، وهي حالات نادرة[1].

3 ـ في بعض الحالات تكون فتحة البكارة رقيقة جداً، ويكون الثغر سميكاً لحمياً، كما في الغشاء المتين متانة زائدة، فيصعب ثقب الغشاء بالطرق العادية، والالتجاء إلى الأطباء أسلم وأولى.

4 ـ بعض النساء يولدون بدون غشاء بكارة أصلاً.

5 ـ كما قد يزول غشاء البكارة عند الفتيات غير المتزوجات بدون اتصال جنسي بتمزقه بواسطة الإصبع، أو إدخال الفوط الصحية أو الأجسام الغريبة.

وكذلك عند تسلق الأشجار بصور متواصلة أو ركوب الخيل أو ممارسة الرياضة القوية والباليه[2].

---

(1) الزوج المثالي، د. فان دفلد، ص 60.

(2) المرأة في رحلة العمر، غسان الزهيري، ص 10.

فض الغشاء بالإصبع ... حذار!

الملاحظ أن غشاء البكارة يتمزق في معظم الأحوال بعد المعاشرة الأولى، وينجم عن ذلك تواجده على هيئة زوائد لحمية يتضح شكلها أكثر بعد انضمامها أثناء الولادة.

وفي معظم الأحوال يصحب تمزقه بعض الدم، ولكن من الثابت علمياً أن تمزقه قد لا يصحبه دم على الإطلاق رغم العذرية الكاملة عند الفتاة.

ولعل الشائع عن نزول دم كثير أثناء فض غشاء البكارة ناجم عن العادة الخاطئة التي كانت وللأسف ما زالت تمارس في الريف من محاولة فض غشاء البكارة بالإصبع المحاطة بالمنديل، ففي رأيي أنها عملية غير إنسانية، فضلاً عن أن غالبية الدم ينجم عن تمزقات وتسلخات في فوهة المهبل ذاته، وليس من غشاء البكارة كما يعتقد بعضهم.

وفي بعض الحالات يحتاج فض غشاء البكارة للتدخل الجراحي لوقف النزيف الناجم عن التمزقات التي تحدث في جدار المهبل عند محاولة فضه بعنفٍ.

وفض غشاء البكارة يصحبه ألم محتمل لبعض ثوان، لذلك يجب ألا ترهب الفتاة هذه اللحظة.

ولا أنصح إطلاقاً بالإصبع، إذ إنه فضلاً عن التمزقات التي تنجم عن ذلك، يوجد بها أضرار أخرى مثل الانسداد الكامل لفوهة المهبل تؤدي مثل هذه المحاولات إلى تمزق الشرج، وحدوث بواسير شرجية، وبعض الحالات تحتاج إلى تدخل جراحي لقطع الغشاء[1].

---

(1) أسرار الحياة الزوجية، محمد رفعت، ص 96.

معتقدات خاطئة في بداية شهر العسل

تتردد معتقدات كثيرة عن الزواج والعلاقة الزوجية في بداية شهر العسل، ومعظم هذه المعتقدات خاطئة ومغلوطة بالمرة، وفيما يلي أشهرها:

1 ـ أن الجرح الناتج عن فض غشاء البكارة خطير جداً ويجب استعمال وسائل عديدة لتلافي خطورته كالمطهرات القوية واستعمال الماء الساخن في التشطيف المهبلي... إلخ، وهذا في الواقع أمر مبالغ فيه، ولا مبرر له، ولا يجب الخوف منه إلى هذه الدرجة، بل فقط مطهرات عادية وفي ماء دافئ مع إتباع أسلوب النظافة الصحي، والصحيح كم أوضحناه سابقاً.

2 ـ أن العلاقة الزوجية، أي اللقاء الجنسيّ بعد فض الغشاء يجب أن تزيد حتى لا يلتحم الغشاء مرة أخرى. وهذا خطأ أيضاً فالغشاء لا يلتحم مرة أخرى بعد أن يتهتك في أول لقاء جنسي، بل ينصح بترك الجماع ليوم أو يومين بعد فض الغشاء ـ كما أسلفنا ـ للشفاء من الجروح البسيطة الناتجة عن فض الغشاء.

3 ـ أن نزول الدم الغزير نتيجة فض الغشاء أمر يحتاج إلى مقويات وفيتامينات عديدة دسمة لتعويض الفاقد من هذا الدم!. وهذا خطأ أيضاً، فإن كمية الدم التي تنزل نتيجة فض الغشاء غالباً لا تزيد عن بضع قطرات بسيطة لا تستوجب كل هذا الهلع والخوف.

الإسراف في الجنس خلال شهر العسل

الاعتدال في كل شيء أفضل من الإفراط فيه، وهنا ننصح العروسين بعدم الإسراف في الجماع في أيام الزواج الأولى، خلال فترة شهر العسل، فيكفي لهما مرتان أو ثلاث أسبوعيا كمعدل طبيعي يمكن الاستمرار عليه حتى نهاية حياتهما.

أما الاستغراق في ممارسة الجنس ويوميا أو لأكثر من مرة في اليوم فهذا

يؤدي إلى إرهاق الزوجين، ولا يمكن أن يدوم مثل هذا اللقاء وبمثل هذا المعدل خاصة عندما يكبر الزوج وتبدأ قدرته الجنسِيّة بالانخفاض.

ويمكن أن نقول: إن الجنس هو نوع من الرياضة ويحتاج إلى ضبط النفس وإعطائها شيئاً من الراحة لاستعادة النشاط والحيوية، والرياضة كما أنها تحتاج إلى عضلات قوية فإنها تحتاج إلى راحة نفسية وعضلية، وهكذا الحال أيضاً بالنسبة للجنس، فالجنس ليس ممارسة فقط بل هو تمرين وتجاوب وراحة نفسية أيضاً، وليس الجنس يتم بآلات بالأزرار، بل هو عواطف ورغبة في اللقاء وبمعدل متناسب.

إن للإسراف الجنسيّ ـ كما للإسراف في أي شيء آخر ـ أضراراً عديدة؛ فهو يؤدي إلى الإرهاق والتوتر العصبي. كما لوحظ أن الإسراف الجنسيّ له مضاعفات مرضية أخرى، فيكفي أن نعلم أن الإسراف الجنسيّ يؤدي على المدى الطويل إلى عدم الإنجاب، وذلك بعكس الاعتدال فهو الطريق للصحة والإنجاب وحتى نهاية العمر.

إننا يجب أن نؤكد على كل من الزوجين أن يراعي إرضاء الطرف الآخر لكن باعتدال، فالاستغراق في ممارسة الجنس يتسبَّب في الإرهاق والتوتر العصبي، كما أن الإرهاق البدني يحد من القدرة الجنسِيّة، وأي خلل أو اضطراب في الممارسة الجنسِيّة ينعكس بالضرورة بدوره على كل تصرفات الزوجين، مما قد يؤدي إلى الانفصال.

الإفراط في الجنس

ـ أشعر بخيبة أمل لقلة عدد المرات بالنسبة لأصدقائي!!

يسأل كثير من الشباب الأزواج عن عدد مرات اللقاء الجنسيّ الواحد وعدد اللقاءات في الأسبوع، أو الصورة الطبيعية لإشباع الشهوة الجنسِيّة بين الزوجين بصفة عامة من حيث الكم، وهم في ذلك متصورون أفكاراً جنسِيّة خاطئة إذ

يعتقدون أن كثرة الجماع يسعد الزوجة ويحببها بزوجها، وأن الرجولة أو الفحولة تقاس بالكفاءة الجنسِيّة التي يحكمها عدد المرات....

والحقيقة أن الدافع وراء هذا التصور هو ما يسمعه الشباب من بعضهم بالتفاخر بعدد مرات اللقاء الجنسيّ الواحد، ونسمع في هذا المجال أرقاما قياسية تصل إلى خمس وعشر مرات!! ومعظمها ادعاءات كاذبة تتستر في كثير من الأحيان على نواقصهم وضعف قدراتهم الجنسِيّة!!.

ـ الكفاءة الجنسِيّة لا تقاس بالكم ولكن بالكيف:

ولكن هل صحيح أن العلاقة الجنسِيّة بين الزوجين يحكمها عدد المرات؟.

بالطبع لا، فالعلاقة الجنسِيّة لا يمكن أن تخضع لأرقام حسابية تعد بالمرات ولا حتى لمواعيد ثابتة للمعاشرة الجنسِيّة، كما هو واقع بين بعض الأزواج.

هؤلاء المرضى ممنوعون من الإفراط الجنسيّ[1]

إذا كنا نحذر الأصحاء من خطر الإفراط في الممارسة الجنسِيّة على صحتهم، فإننا نقول للمرضى بأمراض معينة أنهم ممنوعون من هذا الإفراط حتى لا تحدث لهم مضاعفات وأخطار ضارة، فهكذا يقول المنطق الطبي، فمن هم هؤلاء المرضى؟ وماذا يجر عليهم الإفراط الجنسيّ من متاعب؟..

مرضى القلب: في حالات روماتيزم القلب كضيق الصمام الميترالي، فإن الإفراط يؤدي إلى احتقان الرئتين وحدوث أزمة ربوية قلبية شديدة قد تؤثر في حياة المريض، وتساعد على تدهور حالته بسرعة وحدوث هبوط في القلب لديه.

من هنا ننصح مريض القلب[2] بالإقلال قدر المستطاع من الممارسة الجنسِيّة، وكذلك في حالات هبوط القلب لأي سبب آخر يمنع المريض تماماً من ممارسة الجنس حتى يعود إلى حالته الطبيعية.

(1) شبابنا ومشاكلهم الصحية.

(2) سواء أكان رجلاً أم امرأة.

مرضى الذبحة الصدرية وجلطة الشريان التاجي: في حالات الذبحة الصدرية فإن ممارسة الجنس قد تؤدي في كثير من الأحيان إلى حدوث أزمة أو آلام شديدة تزول بعد التوقف وتشتد أثناء العملية الجنسِيّة، إذ إنه أثناء اللقاء الزوجي تزداد سرعة ضربات القلب بشدة، ويحدث ارتفاع في ضغط الدم، حيث إن اللقاء الجنسيّ يتطلب من الشخص مجهوداً بدنياً كبيراً يوازي المجهود الذي يبذل في تسلق جبل أو تل.

أما في حالات جلطة الشريان التاجي، فيجب أن يمنع المريض من ممارسة الجنس حتى تزول الجلطة ويتم شفاء القلب إلى الحد الذي يسمح بالعودة إلى ممارسة الحياة الجنسِيّة، لكن مع الإقلال منها بشكل كبير.

مرضى هبوط الجهاز التنفسي والربو: في مثل هذه الحالات ربما تحدث أزمة ربوية نتيجة الإفراط في ممارسة الجنس أو نتيجة لطول مدة العملية الجنسِيّة.

مرضى السكر: للسكر تأثير ضار على الكثير من أجهزة الجسم ومنها الجهاز التناسلي، إذ إن كثيراً من حالات السكر تقترن بضعف جنسي شديد خصوصاً إذا كانت الإصابة في سنّ الطفولة أو الشباب نتيجة لالتهاب الأعصاب الخاصة بالانتصاب.

مرضى هبوط الكبد وتليفه: تؤدي أمراض تليف الكبد إلى هبوط في القوة الجنسِيّة ربما يؤدي إلى الضعف الجنسيّ أو التوقف النهائي عن ممارسة الجنس.

مرضى هبوط الغدة الدرقية أو الغدة فوق الكلوية أو الغدة النخامية: إن هذا الهبوط يؤدي حتماً إلى الضعف الجنسيّ مثله مرضى هبوط الكلى المزمن البولينا، مما يجعل الشخص غير قادر على ممارسة الجنس وهنا ننصحه بعدم الإفراط فيه مع استشارة الطبيب.

ألم أثناء اللقاء الجنسيّ... لماذا؟

اللقاء الجنسيّ متعة للرجل والمرأة، لكن أحياناً ما يشعر الرجل أو المرأة بآلام أثناء اللقاء الجنسيّ، فيتحول اللقاء الجنسيّ إلى لقاء عذاب!.

أولاً: آلام للرجل «الجنس المؤلم للرجل»:

يمكن تقسيم مسببات الألم لدى الرجل عند ممارسة العلاقة الزوجية إلى:

أ ـ أسباب خارجية، ظاهرة.

ب ـ أسباب داخلية.

أ ـ الأسباب الخارجية، ومنها:

1 ـ زيادة حساسية رأس العضو: فبعض الرجال لا يستطيعون أن تمكث أعضاؤهم الذكرية داخل المهبل بعد القذف مباشرة ونتيجة آلام غير محتملة تستمر بعد الخروج من المهبل، وهذا يرجع إلى الحساسية الشديدة للجلد المغطي لرأس العضو، نتيجة شدة حساسيته لإفرازات المهبل الحامضية، أو نتيجة لاستعمال المرأة لموانع الحمل داخل المهبل، أو وجود إفرازات التهابية بالمهبل لم يتم علاجها، أو لاستعمال الزوجة لمطهرات قوية أثناء إجراء النظافة المهبلية.

2 ـ اعوجاج العضو الذكري: قد يصاب عضو الرجل باعوجاج إلى أسفل أو إلى أحد الجانبين ونادراً ما يكون لأعلى، والاعوجاج لأسفل ينتج غالباً عن التهابات مجرى البول، نتيجة لمرض ما كالسيلان مثلاً، ويُحدث تليُّفًا حول مجرى قناة البول الأمامية فيقتصر الجزء الأسفل من العضو عن الجزء العلوي فينحني لأسفل.

والاعوجاج إلى أحد الجانبين يحدث غالباً لأسباب ميكانيكية، كأن يدمن الشاب العادة السرية، أو يصاب بضربة مفاجئة في العضو. . . إلخ.

ب ـ أسباب داخلية:

1 ـ ألم في الخصيتين.

2 ـ ألم البروستاتا: ويحدث نتيجة التهاب البروستاتا، أو تضخمها أو احتقانها، أو إصابتها بمرض خطير كالزهري.

وفي هذه الحالة يشعر المصاب بآلام في المقعد تحت الخصيتين وأمام فتحة الشرج، وقد تمتد الآلام إلى المستقيم والعانة، وأسفل الظهر.

ثانياً: آلام المرأة «الجنس المؤلم للمرأة»:

المرأة عادة هي الطرف الأضعف في اللقاء، وقد تشعر أثناء العلاقة الزوجية، بآلام شديدة إلا أنها تتكتم ذلك إرضاء لزوجها ورغبة في عدم إغضابه، ولهذه الآلام أسباب عديدة، منها:

1 ـ أسباب في فتحة المهبل: ويظهر الألم هنا في بداية الإيلاج أو المداعبة الخارجية، ويرجع إلى وجود جروح سطحية تحت الشفرين أو تمزقات في فتحة المهبل نتيجة عسر ولادة مثلاً أو وجود أورام والتهابات في غدة بارثولين[1] أو نتيجة لفض غشاء البكارة بطريقة غير سليمة ليلة الزفاف، أو عدم التمزق الكامل لغشاء البكارة.

2 ـ التهاب البظر: قد يحدث التهاب في البظر نتيجة لعدم النظافة أو إدمان الفتاة العادة السرية أو إجراء عملية الختان بطرق بدائية، كل هذا يؤدي إلى حدوث التهاب مزمن في البظر يصحبه ألم أثناء الجماع.

3 ـ التهاب قناة المهبل: ويحدث عند الإصابة بمرض ما أو لعدم النظافة الشخصية فتتكاثر الميكروبات وتؤدي إلى حدوث التهابات، ويصاحب الالتهابات حكة أو حرقان شديد أثناء اللقاء.

4 ـ ضعف الإفرازات المهبلية: الإفرازات المهبلية تعمل على تليين قناة المهبل

---

(1) غدة صغيرة جدا تقع في الثلث السفلي من الشفرين الكبيرين، وتفرز مواد مخاطية عند المهبل. وقد يحدث فيها التهاب وتسد قناتها وتتورم.

وتسهيل الإيلاج، ومن أهم أسباب ضعف الإفرازات المهبلية عدم الرغبة في اللقاء ذاته، أو كراهية المرأة للطرف الآخر، أو عدم إثارتها للحد الكافي، ومع قلة الإفرازات يحدث جفاف في المهبل، فيحدث ألم وحرقان شديد أثناء الجماع.

5 ـ أسباب في الحوض: كالتهاب المثانة أو الحالبين أو المستقيم أو المبيضين وقناتي فالوب.

الباب الخامس

هدي النبي ﷺ في أصول الجماع

وأما الجماع والباه فكان هديه ﷺ فيه أكمل هدي(1)، يحفظ به الصحة وتتم به اللذة وسرور النفس ويحصل به مقاصده التي وضع لأجلها، فإن الجماع وضع في الأصل لثلاثة أمور هي مقاصده الأصلية:

أحدها: حفظ النسل ودوام النوع إلى إن تتكامل العدة التي قدر الله بروزها إلى هذا العالم.

الثاني: إخراج الماء الذي يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن.

الثالث: قضاء الوطر ونيل اللذة والتمتع بالنعمة وهذه وحدها هي الفائدة التي في الجنة إذ لا تناسل هناك ولا احتقان يستفرغه الإنزال.

وفضلاء الأطباء يرون أن الجماع من أحد أسباب حفظ الصحة، قال جالينوس: الغالب على جوهر المني النار والهواء، ومزاجه حار رطب لأن كونه من الدم الصافي الذي تغتذي به الأعضاء الأصلية وإذا ثبت فضل المني فاعلم أنه لا ينبغي إخراجه إلا في طلب النسل أو إخراج المحتقن منه، فإنه إذا دام احتقانه أحدث أمراضا رديئة منها الوسواس والجنون والصرع وغير ذلك، وقد يبرئ استعماله من هذه الأمراض كثيراً فإنه إذا طال احتباسه فسد واستحال إلى كيفية سمية توجب أمراضاً رديئة كما ذكرنا ولذلك تدفعه الطبيعة بالاحتلام إذا كثر عندها من غير جماع.

---

(1) هذا المبحث مستفاد من كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» للإمام ابن قيم الجوزية، ج4، من ص 251 إلى 257، بترتيب وتصرف يسيرين.

وقال بعض السلف: ينبغي للرجل أن يتعاهد من نفسه ثلاثاً: ألّا يدع المشي فإن احتاج إليه يوماً قدر عليه، وينبغي ألّا يدع الأكل فإن أمعاءه تضيق، وينبغي ألّا يدع الجماع فإن البئر إذا لم تنزح ذهب ماؤها.

وقال محمد بن زكريا: من ترك الجماع مدة طويلة ضعفت قوى أعصابه وانسدت مجاريها وتقلص ذكره. قال: ورأيت جماعة تركوه لنوع من التقشف فبردت أبدانهم وعسرت حركاتهم ووقعت عليهم كآبة بلا سبب وقلت شهواتهم وهضمهم. انتهى.

ومن منافعه غض البصر وكف النفس والقدرة على العفة عن الحرام وتحصيل ذلك للمرأة فهو ينفع نفسه في دنياه وأخراه وينفع المرأة، لذلك كان ﷺ يتعاهده ويحبه ويقول: «**حُبِّبَ إلي من دنياكم النساء والطيب**»(1). وفي كتاب «الزهد» للإمام أحمد في هذا الحديث زيادة لطيفة وهي «**أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن**». وحث على التزويج أمَّته فقال: «**تزوَّجوا فإني مكاثرٌ بكم الأمم**»(2)، وقال ابن عباس: «خير هذه الأمة أكثرها نساء»(3)، وقال: «**إني أتزوج النساء وأنام وأقوم وأصوم وأفطر فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(4)، وقال: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحفظ للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(5)، ولما تزوج جابر ثيباً قال له: «**هلا بكراً تلاعبها**

---

(1) ذكره السيوطي في الجامع الصغير، ح رقم 369، وقال عقبه: أخرجه أحمد في مسنده والنسائي والحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن عن أنس، ثم حكم عليه السيوطي بأن سنده: حسن.

(2) ونص الحديث عن معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبت امرأةً ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد أفأتزوجها؟ قال: «لا» ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: «**تزوّجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم**». سُنَن أبي دَاوُد، باب من تزوّج الولود، ح2050

(3) ونص الحديث عن سعيد بن جبير قال: «قال لي ابن عباس: هل تزوجت؟ قلت: لا، قال: فتزوج، فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء». صحيح البخاري، الجزء الثالث: 70 ـ كتاب النكاح: 4 ـ باب: كثرة النساء، ح 4782.

(4) سنن النسائي في كتاب النكاح، باب النهي عن التبتل.

(5) صحيح البخاري، الجزء الأول: 10 ـ باب: الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة، ح 1806.

وتلاعبك»[1]. وروى ابن ماجه في سننه من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر**»[2]، وفي سننه أيضاً من حديث ابن عباس يرفعه قال: «**لم نر للمتحابين مثل النكاح**»[3]، وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»[4]، وكان يحرّضُ أمته على نكاح الأبكار الحسان وذوات الدين. وفي سنن النسائي عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله: أي النساء خير؟ قال: «**التي تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه فيما يكره في نفسها وماله**»[5]. وفي الصحيحين عنه عن النبي ﷺ قال: «**تنكح المرأة لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[6].

وكان ﷺ يحثُّ على نكاح الولود ويكره المرأة التي لا تلد كما في سنن أبي داود عن معقل بن يسار: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال وإنها لا تلد أفأتزوجها؟ قال: «لا» ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال ﷺ: «**تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم**»[7]. وفي الترمذي

---

(1) صحيح البخاري، الجزء الثاني: 60 ـ كتاب الجهاد والسير، 112 ـ باب: استئذان الرجل الإمام، ح 2805 .

(2) الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي، المجلد السادس، تتمة باب حرف الميم، ح 8387، من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر. قال السيوطي: أخرجه ابن ماجه عن أنس، وقال عن سنده ضعيف.

(3) سنن ابن ماجه: الجزء الأول، (1) باب ما جاء في فضل النكاح، ح 1847 عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لم نر (ير) للمتحابين مثل النكاح**»، وفي مجمع الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات. ولفظ متحابين يحتمل التثنية والجمع.

(4) صحيح مسلم: الجزء الثاني: (17) باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، ح 64 (1467) عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا متاع، وخير متاع المرأة الصالحة**».

(5) متفق عليه [البخاري ومسلم] وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة. ومسند الإمام أحمد: المجلد الثاني/ مسند أبي هريرة رضي الله عنه: قيل: يارسول الله ! أي النساء خير؟ قال: «**التي تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه فيما يكره في نفسها وماله**».

(6) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة.

(7) سنن النسائي: المجلد السادس/ كتاب النكاح، باب كراهية تزوج العقيم. عن معقل بن يسار=

عنه مرفوعاً: «**أربع من سنن المرسلين النكاح والسواك والتعطر والحناء**»[1]. وروي في الجامع بالنون والياء وسمعت أبا الحجاج الحافظ يقول: الصواب أنه الختان وسقطت النون من الحاشية وكذلك رواه المحاملي عن شيخ أبي عيسى الترمذي.

ومما ينبغي تقديمه على الجماع ملاعبة المرأة وتقبيلها ومص لسانها وكان رسول الله ﷺ يلاعب أهله ويقبلها. وروى أبو داود في سننه «أنه ﷺ كان يقبِّل عائشة ويمص لسانها» ويذكر عن جابر بن عبد الله قال: «نهى رسول الله عن المواقعة قبل الملاعبة»[2]. وكان ربما جامع نساءه كلهن بغسل واحد وربما اغتسل عند كل واحدة منهن فروى مسلم في صحيحه عن أنس أن النبي ﷺ كان يطوف على نسائه بغسل واحد، وروى أبو داود في سننه عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ: أن رسول الله طاف على نسائه في ليلة فاغتسل عند كل امرأة منهن غسلاً فقلت: يا رسول الله! لو اغتسلت غسلاً واحداً فقال: «**هذا أزكى وأطهر وأطيب**»[3].

وشرع للمجامع إذا أراد العود قبل الغسل الوضوء بين الجماعين كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ**»[4]. وفي الغسل والوضوء بعد الوطء من

= قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت امرأةً ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد أفأتزوجها؟ فنهاه ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فنهاه فقال: «**تزوّجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم**».

(1) ذكره السيوطي في الجامع الصغير، برقم 919 ولفظه: أربع من سنن المرسلين: الحياء، والتعطر، والنكاح، والسواك.

(2) الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي: المجلد السادس: باب المناهي: ح 9430 نهى عن المواقعة [وفي رواية: الوقاع] ـ قبل الملاعبة [(وفي نسخ: المداعبة)] ـ [«المواقعة»: أي الجماع]. التخريج (برموز السيوطي): (خط) عن جابر، ومعناه: الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد عن جابر، تصحيح السيوطي: صحيح.

(3) كنز العمال للمتقي الهندي: المجلد التاسع، ذيل الغسل، (مسند أبي رافع) أن رسول الله ﷺ طاف على نسائه في ليلة فاغتسل عند كل امرأة منهن غسلاً فقلت: يارسول الله! لو اغتسلت غسلاً واحداً؟ فقال: «**هذا أطهر وأطيب**» أو «**أطهر وأنظف**».

(4) صحيح مسلم: الجزء الأول. (6) باب جواز نوم الجنب، واستحباب الوضوء له وغسل =

النشاط وطيب النفس وإخلاف بعض ما تحلل بالجماع وكمال الطهر والنظافة واجتماع الحار الغريزي إلى داخل البدن بعد انتشاره بالجماع وحصول النظافة التي يحبها الله ويبغض خلافها ما هو من أحسن التدبير في الجماع وحفظ الصحة والقوى فيه.

صور الجماع الصحيحة والنافعة

أنفع الجماع ما حصل بعد الهضم وعند اعتدال البدن في حرّه وبرده ويبوسته ورطوبته وخلائه وامتلائه، وضرره عند امتلاء البدن أسهل وأقل من ضرره عند كثرة الرطوبة أقل منه عند اليبوسة، وعند حرارته أقل منه برودته. وإنما ينبغي أن يجامع إذا اشتدت الشهوة وحصل الانتشار التام الذي ليس عن تكلف ولا فكر في صورة ولا نظر متتابع. ولا ينبغي أن يستدعي شهوة الجماع ويتكلفها ويحمل نفسه عليها وليبادر إليه إذا هاجت به كثرة المني واشتد شبقه.

وليحذر جماع العجوز والصغيرة التي لا يوطأ مثلها والتي لا شهوة لها والمريضة والقبيحة المنظر والبغيضة، فوطء هؤلاء يوهن القوى ويضعف الجماع بالخاصية، وغلط من قال من الأطباء: إن جماع الثيب أنفع من جماع البكر وأحفظ للصحة، وهذا من القياس الفاسد حتى ربما حذر منه بعضهم وهو مخالف لما عليه عقلاء الناس ولما اتفقت عليه الطبيعة والشريعة.

وفي جماع البكر من الخاصية وكمال التعلق بينها وبين مجامعها وامتلاء قلبها من محبته وعدم تقسيم هواها بينه وبين غيره ما ليس للثيب وقد قال النبي ﷺ لجابر: «هلا تزوجت بكراً». وقد جعل الله سبحانه من كمال نساء أهل الجنة من الحور العين أنهن لم يطمثهن أحدٌ قبْلَ مَن جُعِلْنَ له من أهل الجنة. وقالت عائشة للنبي: أرأيت لو مررتَ بشجرة قد أرتع فيها وشجرة لم يرتع فيها ففي

= الفرج إذا أراد أن يأكل أو يشرب أو ينام أو يجامع. ح 27 (308) عن أبي سعيد الخدري.

أيهما كنت ترتع بعيرك؟ قال: «**في التي لم يرتع فيها**»[1]، تريد أنه لم يأخذ بكراً غيرها.

وجماع المرأة المحبوبة في النفس يقل إضعافه للبدن مع كثرة استفراغه للمني، وجماع البغيضة يحل البدن ويوهن القوى مع قلة استفراغه. وجماع الحائض حرام طبعاً وشرعاً فإنه مضر جداً والأطباء قاطبة تحذر منه.

وأحسن أشكال الجماع أن يعلو الرجل المرأة مستفرشاً لها بعد الملاعبة والقبلة وبهذا سميت المرأة فراشاً كما قال: ﷺ: «**الولد للفراش**»[2]، وهذا من تمام قوامية الرجل على المرأة كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 34]، وكما قيل:

إذا رمتها كانت فِرَاشاً يُقِلُّني … وعند فراغي خادم يتملق

وقد قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: 187]، وأكمل اللباس وأسبغه على هذه الحال فإن فراش الرجل لباس له وكذلك لحاف المرأة لباس لها. فهذا الشكل الفاضل مأخوذ من هذه الآية، وبه يحسن موقع استعارة اللباس من كل من الزوجين للآخر. وفيه وجه آخر وهو أنها تنعطف عليه أحياناً فتكون عليه كاللباس. قال الشاعر:

إذا ما الضجيع ثنى جيدها … تثنَّت فكانت عليه لباسا

وأردأ أشكاله أن تعلوه المرأة ويجامعها على ظهره وهو خلاف الشكل الطبيعي الذي طبع الله عليه الرجل والمرأة بل نوع الذكر والأنثى، وفيه من المفاسد أن المني يتعسر خروجه كله فربما بقي في العضو منه فيتعفن ويفسد فيضر، وأيضاً فربما سال إلى الذكر رطوبات من الفرج. وأيضاً فإنّ الرّحم لا يتمكّن من الاشتمال على الماء واجتماعه فيه وانضمامه عليه لتخليق الولد،

(1) صحيح البخاري، الجزء الثالث: 70 ـ كتاب النكاح، 9 ـ باب: نكاح الأبكار، ح 4789 عن عائشة رضي الله عنها.

(2) حديث الولد للفراش وللعاهر الحجر، متفق عليه ورواه الجماعة: البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن عائشة، ورواه أحمد في مسنده، كما رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة، وعن عثمان ورواه النسائي عن ابن مسعود وعن أبي أمامة.

وأيضاً فإنّ المرأة مفعول بها طبعاً وشرعاً وإذا كانت فاعلة خالفت مقتضى الطبع والشرع.

وكان أهل الكتاب إنما يأتون النساء على جنوبهن على حرف ويقولون إنه أيسر للمرأة.

وكانت قريش والأنصار تشرح النساء على أقفائهن فعابت اليهود عليهم ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223]، وفي الصحيحين عن جابر قال: كانت اليهود تقول إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها كان الولد أحول(1)، فأنزل الله عز وجل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223]، وفي لفظ لمسلم: «**إن شاء مجبيّة وإن شاء غير مجبيّة غير أن ذلك في صمام واحد**»(2).

ومعنى قوله: «**إن شاء مجبية**» أي مكبوبة أو المنكبَّة على وجهها، «**وإن شاء غير مجبية**» هذا يشمل الاستلقاء والاضطجاع والتخجية، وهي كونها كالساجدة. «**في صمام واحد**» أي ثقب واحد. والمراد به القبل.

وقال ابن الأثير: الصمام ما تسد به الفرجة، فسمى الفرج به. ويجوز أن يكون: في موضع صمام، على حذف المضاف. فالصمام الواحد الفرج وهو موضع الحرث والولد. قال العلماء: وقوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223] أي موضع الزرع من المرأة، هو قبلها الذي يزرع فيه المني لابتغاء

---

(1) صحيح مسلم: الجزء الثاني (19) باب جواز جماعه امرأته في قبلها، من قدامها ومن ورائها، من غير تعرض للدبر، ح 117 (1435) حدثنا قتيبة بن سعد، أبو بكر بن أبي شيبة، وعمرو الناقد. (واللفظ لأبي بكر) قالوا: حدثنا سفيان عن ابن المنكدر، سمع جابراً يقول: كانت اليهود تقول: إذا أتى رجل امرأته، من دبرها، في قبلها، كان الولد أحول.

(2) مسند الإمام أحمد: المجلد السادس: أحاديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ، حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ. ولفظ الحديث: عن أم سلمة قالت: لما قدم المهاجرون المدينة على الأنصار تزوجوا من نسائهم وكان المهاجرون يجبون وكانت الأنصار لا تجبي، فأراد رجل من المهاجرين امرأته على ذلك فأبت عليه حتى تسأل رسول الله ﷺ قالت: فأتته فاستحيت أن تسأله فسألته أم سلمة فنزلت ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ وقال: «**لا إلا في صمام واحد**».

الولد. ففيه إباحة وطئها في قبلها، إن شاء من بين يديها، وإن شاء من ورائها، وإن شاء مكبوبة. وأما الدبر فليس هو بحرث ولا موضع زرع. ومعنى قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ [البقرة: 223]، كيف شئتم. واتفق العلماء على تحريم وطء المرأة في دبرها، حائضاً كانت أو طاهراً. والمجبيّة المنكبة على وجهها.

حرمة وطء الزوجة في دبرها

وأما الدبر فلم يبح قط على لسان نبي من الأنبياء، ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها فقد غلط عليه. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ملعون من أتى المرأة في دبرها»**، وفي لفظ لأحمد وابن ماجه: **«لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها»**[1]، وفي لفظ للترمذي وأحمد: **«من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد»**[2]، وفي لفظ للبيهقي: **«من أتى شيئاً من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر»**، وفي مصنف وكيع حدثني زمعة بن صالح عن ابن طاوس الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن»**[3]، وقال مرة: **«في أدبارهن»**، وفي الترمذي عن علي بن

---

(1) سنن ابن ماجه: الجزء الأول (29) باب النهي عن إتيان النساء في أدبارهن. ح 1923 عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: **«لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها»**.

(2) أخرجه أصحاب السنن الأربعة أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه، وأخرجه أحمد في مسنده كلهم بسندهم عن أبي هريرة. وقال الترمذي بعد روايته للحديث: قال أبو عيسى: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث حكيم الأثرم عن أبي تميمة الهُجَيْميّ عن أبي هريرة. وإنما معنى هذا عند أهل العلم على التَّغليظ. وقد رُوي عن النبي ﷺ قال: **«من أتى حائضاً فليتصدّق بدينار»**. فلو كان إتيان الحائض كفراً لم يؤمر فيه بالكفارة. وضعّف محمد هذا الحديث من قبل إسناده. وأبو تميمة الهجيميُّ اسمُهُ «طريف بن مجالد». وقال أحمد شاكر في تحقيقه حول هذا الحديث ما خلاصته: وهذا الحديث إسناده صحيح متصل، ورواه أحمد في المسند برقم (9532) (2/ 429).

(3) رواه المتقي في كنز العمال برقم 44876، وقال عقبه: أخرجه الإمام أحمد في مسنده والنسائي وابن ماجه في سننهما والبيهقي في شعب الإيمان بسندهم عن خزيمة بن ثابت.

طلق قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تأتوا النساء في أعجازهن فإن الله لا يستحي من الحق**»[(1)]. وفي الكامل لابن عدي من حديثه عن المحاملي عن سعيد بن يحيى الأموي: قال حدثنا محمد بن حمزة عن زيد بن رفيع عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود يرفعه: «**لا تأتوا النساء في أعجازهن**».

وروينا في حديث الحسن بن علي الجوهري عن أبي ذر مرفوعاً: «**من أتى الرجال أو النساء في أدبارهن فقد كفر**».

وروى إسماعيل بن عياش عن سهيل بن أبي صالح عن محمد بن المنكدر عن جابر يرفعه: «**استحيوا من الله فإن الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في حشوشهن**»[(2)]، ورواه الدارقطني من هذه الطريق ولفظه: «**إن الله لا يستحيي من الحق، لا يحل مأتاك النساء في حشوشهن**».

وقال البغوي: حدثنا هدبة حدثنا همام قال: سئل قتادة عن الذي يأتي امرأته في دبرها فقال: حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**تلك اللوطية الصغرى**»[(3)].

وقال أحمد في مسنده: حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا همام أخبرنا عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده فذكره.

وفي مسند الإمام أحمد أيضاً عن ابن عباس: أنزلت هذه الآية ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ

---

(1) وقال الترمذي بعد روايته الحديث: «وفي الباب عن عمر وخزيمة بن ثابت، وابن عباس وأبي هريرة. وحديث عليٍّ بن طلقٍ حديثٌ حسنٌ. وسمعت هذا الحديث من حديث طلق بن عليٍّ السحيميِّ. وكأنه رأى أنّ هذا رجلٌ آخرُ من أصحاب النبي ﷺ. وروى وكيعٌ هذا الحديث». سنن الترمذي: المجلد الثاني: أبواب مختلفة في النكاح، 12 ـ باب ما جاء في كراهية إتيان النساء في أدبارهن.

(2) ذكره المتقي الهندي في كتابه كنز العمال برقم: 44871، وذكره ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث والأثر: 1/ 391 .

(3) ذكره الإمام الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد: المجلد الرابع: 17 ـ كتاب النكاح: 57 ـ باب فيمن وطئ امرأة في دبرها. رقم: 7591 .

لَكُمْ﴾ [البقرة: 223] في أناس من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ فسألوه فقال: «ائتها على كل حال إذا كان في الفرج».

وفي المسند أيضاً عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكت! فقال: «وما الذي أهلكك؟!» قال: حوّلت رحلي البارحة. قال: فلم يرد عليه شيئاً، فأوحى الله إلى رسوله ﷺ: «﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223] أقبل أدبر واتق الحيضة والدبر».

وفي الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر».

وروينا من حديث أبي الحسن بن الحسن بن دوما عن البراء بن عازب يرفعه: «كفر بالله العظيم عشرة من هذه الأمة القاتل، والساحر، والديوث، وناكح المرأة في دبرها، ومانع الزكاة، ومن وجد سعة فمات ولم يحج، وشارب الخمر، والساعي في الفتن، وبائع السلاح من أهل الحرب، ومن نكح ذات محرم منه»[1].

وقال عبد الله بن وهب: حدثنا عبد الله بن لهيعة عن مشرح بن هاعان عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من يأتي النساء في محاشهن» يعني أدبارهن.

وفي مسند الحارث بن أبي أسامة من حديث أبي هريرة وابن عباس قالا: خطبنا رسول الله قبل وفاته وهي آخر خطبة خطبها بالمدينة حتى لحق بالله عز وجل، وعظنا فيها وقال: «من نكح امرأة في دبرها أو رجلاً أو صبياً، حشر يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة يتأذى به الناس حتى يدخل النار وأحبط الله أجره ولا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً ويدخل في تابوت من النار ويشد بمسامير من نار» قال أبو هريرة: هذا لمن لم يتب.

وقال الشافعي: أخبرني عمي محمد بن علي بن شافع قال: أخبرني عبد الله ابن علي بن السائب عن عمرو بن أحيحة بن الجلاح عن خزيمة بن ثابت: أن

(1) ذكره السيوطي في الجامع الصغير برقم 6263، وقال: أخرجه ابن عساكر عن البراء، وحكم عليه السيوطي بالضعف.

رجلاً سأل النبي عن إتيان النساء في أدبارهن فقال: «حلال» فلما ولى دعاه فقال: «كيف قلت؟ في أي الخربتين أو في أي الخرزتين أو في أي الخصفتين أمن دبرها في قبلها فنعم أم من دبرها في دبرها فلا، إن الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في أدبارهن». قال الربيع: فقيل للشافعي: فما تقول؟ فقال: عمي ثقة وعبد الله بن علي ثقة وقد أثنى على الأنصاري خيراً، يعني عمرو بن الجلاح، وخزيمة ممن لا يشك في ثقته فلست أرخص فيه بل أنهى عنه.

قلت: ومن هاهنا نشأ الغلط على من نقل عنه الإباحة من السلف والأئمة فإنهم أباحوا أن يكون الدبر طريقاً إلى الوطء في الفرج فيطأ من الدبر لا في الدبر فاشتبه على السامع ولم يظن بينهما فرقاً. فهذا الذي أباحه السلف والأئمة فغلط عليهم الغالط أقبح الغلط وأفحشه. وقد قال تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 222] قال مجاهد: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 222] فقال: «تأتيها من حيث أمرت أن تعتزلها» يعني في الحيض.

وقد دلَّت الآية على تحريم الوطء في دبرها من وجهين أحدهما أنه أباح إتيانها في الحرث وهو موضع الولد لا في الحش الذي هو موضع الأذى وموضع الحرث هو المراد من قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 222] قال: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223] وإتيانها في قبلها من دبرها مستفاد من الآية أيضاً لأنه قال ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي من أين شئتم من أمام أو من خلف، قال ابن عباس: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ يعني الفرج.

وإذا كان الله حرم الوطء في الفرج لأجل الأذى العارض فما الظن بالحش الذي هو محل الأذى اللازم؟ مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل والذريعة القريبة جداً من أدبار النساء إلى أدبار الصبيان.

وأيضاً فللمرأة حقٌّ على الزوج في الوطء ووطؤها في دبرها يفوِّت حقَّها ولا يقضي وطرها ولا يحصل مقصودها. وأيضاً فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل ولم يخلق له وإنما الذي هُيِّئ له الفرج، فالعادلون عنه إلى الدبر خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعاً. وأيضا فإن ذلك مضر بالرجل ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء

من الفلاسفة وغيرهم لأن للفرج خاصية في اجتذاب الماء المحتقن وراحة الرجل منه والوطء في الدبر لا يعين على اجتذاب جميع الماء ولا يخرج كل المحتقن لمخالفته للأمر الطبيعي.

وأيضاً يضر من وجه آخر وهو إحواجه إلى حركات متعبة جداً لمخالفته للطبيعة. وأيضاً فإنه محل القذر والنجو فيستقبله الرجل بوجهه ويلابسه. وأيضاً فإنه يضر بالمرأة جداً لأنه وارد غريب بعيد عن الطباع منافر لها غاية المنافرة. وأيضاً فإنه يحدِث الهمّ والغمّ والنفرة عن الفاعل والمفعول.

وأيضاً فإنه يسود الوجه ويظلم الصدر ويطمس نور القلب ويكسو الوجه وحشة تصير عليه كالسيماء يعرفها من له أدنى فراسة. وأيضاً فإنه يوجب النفرة والتباغض الشديد والتقاطع بين الفاعل والمفعول ولا بد.

وأيضاً فإنه يفسد حال الفاعل والمفعول فساداً لا يكاد يرجى بعده صلاح إلا أن يشاء الله بالتوبة النصوح. وأيضاً فإنه يذهب بالمحاسن منها ويكسوهما ضدها كما يذهب بالمودة بينهما ويبدلهما بها تباغضاً وتلاعناً.

وأيضاً فإنه من أكبر أسباب زوال النعم وحلول النقم فإنه يوجب اللعنة والمقت من الله وإعراضه عن فاعله وعدم نظره إليه، فأي خير يرجوه بعد هذا؟ وأي شر يأمنه؟ وكيف تكون حياة عبدٍ قد حلّت عليه لعنة الله ومقته وأعرض عنه بوجهه ولم ينظر إليه؟

وأيضاً فإنه يذهب بالحياء جملة، والحياء هو حياة القلوب، فإذا فقدها القلب استحسن القبيح واستقبح الحسن وحينئذ فقد استحكم فساده. وأيضاً فإنه يحيل الطباع عما ركبها الله ويخرج الإنسان عن طبعه إلى طبع لم يركب الله عليه شيئاً من الحيوان، بل هو طبع منكوس، وإذا نكس الطبع انتكس القلب والعمل والهدى فيستطيب حينئذ الخبيث من الأعمال والهيئات ويفسد حاله وعمله وكلامه بغير اختياره.

وأيضا فإنه يورث من الوقاحة والجرأة ما لا يورثه سواه. وأيضاً فإنه يورث من المهانة والسفال والحقارة ما لا يورثه غيره. وأيضاً فإنه يكسو العبد من حلة

المقت والبغضاء وازدراء الناس له واحتقارهم إياه واستصغارهم له ما هو مشاهد بالحس، فصلاة الله وسلامه على من سعادة الدنيا والآخرة في هديه واتباع ما جاء به وهلاك الدنيا والآخرة في مخالفته هديه وما جاء به.

أشكال الجماع(1)

الجماع والنكاح والغشيان والوطء والرفث كلها بمعنى واحد، وقد يكون بتقابل الأعضاء الجنسية وتلامسها مثلما يكون بالإيلاج في البضع، ومنه الجماع المشروع المقصود بلفظ النكاح ويكون بين الأزواج، وبه تقوم الأسرة لأن بقاءها مرهون بالتوافق الجنسي بين الزوجين، وللحمة هذا التوافق وسداه هو الجماع المشبع، وعلى تنظيم النشاط الجنسي عند الإنسان ينهض الاجتماع، وترتقي الحضارات، ويشعر الرجال والنساء بالأمان، وينصلح حال الأولاد نتاج هذا الجماع.

وأوضاع الجماع كثيرة غير أن البعض قد يؤثرون وضعاً على وضع بحسب ثقافتهم والتقاليد التي يأخذون بها أنفسهم في مسألة من أخص المسائل بالنسبة لكل فرد. والوضع الطبيعي في الجماع هو الوضع الذي تأتيه الحيوانات وهو الذي يتخالف فيه الزوجان بأن تستلقي المرأة بوجهها إلى الأرض وكأنها ساجدة وتعلو مؤخرتها ثم يأتيها الرجل من الخلف في فرجها، والحيوانات تفعل ذلك ومن أهم خصائص الجماع عندها هذه الظاهرة التي تقوس فيها ظهر الأنثى lordosis بحيث يسهل على الذكر الإيلاج ويطلق البعض عليه عند الإنسان اسم الوضع الفرنسي في الجماع، وكان العرب يسمونه المخالفة tusa terqo.

ومما لا شك فيه أن هناك حاجة لتعلم أوضاع الجماع فليس يكفي أن يجتمع الزوجان يحدوهما الحب، فلا بد أن يستهدي الحب بالعلم وأن يتعرف كلاهما على جسم الآخر ويستكشف فيه ما يثيره من مناطق شهوية. وكثيراً ما يضطر المعالج النفسي إلى التطرق إلى طرق الجماع وأوضاعه ليستنير الزوجان في

---

(1) الموسوعة النفسية الجنسية، 453 .

معرض الاستشارة أو العلاج وهناك العديد من الثقافات في آسيا وإفريقيا وأوروبا وأمريكا تجيز للبنت وللولد أن يتعلما أوضاع الجماع ضمن ما يتعلمان من آداب الجنس. وما يزال العالم يقرأ كتب التراث القديمة بكافة اللغات التي تتحدث في هذا المجال حديثاً ضافياً عن أوضاع الجماع مثل «الكاما سوترا» و«البستان المعطر» و«ألف ليلة وليلة»، و«رجوع الشيخ إلى صباه»، والكتابان الأخيران من كتب التراث القديمة وينسبان إلى القرن الخامس عشر أو قبل ذلك.

وتحكي هذه الكتب عن مائة وضع من هذه الأوضاع يوجزها البعض في عدد أساسي أهمها الأوضاع التي يتواجه فيها الرجل والمرأة كمقابل للأوضاع التي يكون الرجل فيها خلف المرأة، والأوضاع التي يعلو فيها الرجل المرأة كمقابل للأوضاع التي تعلوه فيها، والأوضاع التي يكون فيها الجماع إيلاجاً كمقابل للأوضاع التي يكون فيها الجماع مداعبة وملاعبة وملاطفة لمناطق الجسم الشهوية دون الإيلاج الصريح. ولا ينصح في الجماع بوضع أو أوضاع على أوضاع، والجماع فيه كل ذلك ، والرجل والمرأة لهما أن يأتيا ما يشاءان من أوضاع وحركات، وبدءاً من الكلمة الحانية إلى النظرة العاطفة، والربت والدلك والتقبيل والإحضان وانتهاء بالإيلاج.

والجماع في اللغة هو أن يجتمعا وأن يكون اجتماعهما بكل أو جميع ما يشتمل عليه حضورهما معاً من نفس وجسم وتفكير. وخاصة الجماع هي إدخال القضيب في الفرج، واشتمالهما معاً في دفق اللقاء وحرارة العاطفة، ولكن هذا الإدخال لا يأتي إلا تتويجاً للجماع ويكون في قمته، فهو الفعل الذي يخلص إليه وينتهي به. فإذا تحقق به الإنعاظ فهو تمام النشوة والغاية من الجماع.

والجماع إذن ليس هو مجرد الإيلاج ولكنه فعل يبدأ من الصوت الرقيق والقول اللطيف واللمسة المدغدغة، وصولاً إلى الإنعاظ. ولذلك فالقول بأن الإنسان يزني بالنظرة هو قول صحيح ▪ والصوت المجرد من الصورة قد يكون له أعمق الاستجابات الجنسية لدى السامعين ، وصدق الله العظيم إذ يطلب من المؤمنات أن لا يخضعن في القول فيطمع الذي في قلبه مرض، وتاريخ الأدب

يحدثنا عن شعراء وأناس عاديين استمعوا لأصوات جوارٍ خلف الأستار فوقعوا في الحب وأصابهم منه الومق.

وأوضاع الجماع حيث يتواجه الزوجان هي الأوضاع الأكثر شيوعاً ويصفها هافلوك إليس بأنها الأنسب والأليق بالإنسان المتحضر، وأن الرجل لا يأتي المرأة بحيث يكون وجهه لظهرها إلا مقلداً الحيوان، ويقول فان دي فيلد بأن أوضاع الجماع من الخلف لا تكون إلا بين غير المتحضرين وإن كانت هي الأوضاع الفطرية، ولذا يطلقون على هذا الجماع أحياناً «الجماع الوحشي».

وأوضاع الجماع التي يتواجه فيها الزوجان تناسب الأزواج الذين يأتون الجماع بهدف الإنجاب ، فهي خير الأوضاع لكي تحمل المرأة إذا لم تستخدم موانع الحمل ولم تكن عاقراً ويفضلها الرجال لأنها من الناحية النفسية تعطيهم الإحساس بأنهم يملكون المرأة إذ يكون الرجل أعلى المرأة ويتحكم في الجماع. والمرأة في الوضع الذي يعلوها الرجل تفتح المرأة فخذيها وتثني ركبتيها قليلاً ويكون الرجل بين ساقيها مستنداً إلى مرفقيه وركبتيه، ويسهل عليه في هذا الوضع أن يدخل قضيبه تلقائياً أو بترشيد من يد المرأة حيث تدخل هي القضيب. ثم يبدأ الرجل حركات الجماع عنيفة أو رقيقة، وقد يخرجه ويدخله من حين لآخر. وهذا الدفع المتكرر يدلك القضيب ويثير الرجل فيقرب من الإنعاظ بسرعة. وقد تتحرك المرأة بحوضها إلى الأمام والخلف مع دفع الرجل لقضيبه وسحبه. وقد تتحرك حركة أفقية من جانب إلى جانب كحركة الطحن، وقد تقمط فرجها على فترات وتشد جسمها كله وتتقبض عضلات إليتها. ويتيح هذا الوضع للرجل والمرأة أن يقبِّل كلاهما الآخر في الفم والوجه، وقد يمص الرجل ثدي المرأة أو يقبلهما أو يدغدغهما بيديه، وتكون يدا المرأة طليقتين فتستطيع أن تتناول بهما خصيتي الرجل أو تمسك بأسفل القضيب، وقد تفضل أن تتحسس وجه الرجل وظهره وفخذيه وشعر رأسه وتذهب بيديها على صدره. وقد يتعب هذا الوضع الرجل. وقد يستريح منه لفترة بالتوقف عن الدفع بحوضه، ويركن بجسمه إلى جسم المرأة ويؤخر الإنزال، وقد يغير الوضع. غير أن الغالبية

تنتهي من الجماع على هذا الوضع بدلاً من أن تبدأ من جديد، فإذا أنعظ الرجل وارتخى مال إلى جانبه وخرج، وضمت المرأة فخذيها ومدّت ساقيها. وهي قد تنعظ إذا طال الجماع، وقد تبقي الرجل بين فخذيها وقضيبه داخل المهبل بعد الإنزال فينتصب من جديد بتأثير ضغط المرأة بفخذيها عليه. ويشق على الرجل أن يعلو المرأة إذا كان سميناً أو كانت المرأة حاملاً. والإثارة تتأتى للمرأة في هذا الوضع من الحركات الضاغطة عليه وتنعظ المرأة. وعندما تتقدم المرأة في السن ولا يعود مهبلها مطاطاً كما كان وهي صغيرة، فقد يتعبها أن يتحرك الرجل هذه الحركة عليها ويكون أصلح لها لو وضعت وسادة تحت إليتها، أو رفعت فخذيها وأمسكت بهما إلى الخلف في اتجاه رأسها، أو لفت ساقيها حول ظهر الرجل، وعندئذ يرتفع حوضها ويرتاح فرجها ويسهل الدخول والحركة ويكون الضغط على الشفرين الصغيرين.

وهذا الوضع، أي كون المرأة هي الأعلى قيل فيه: إن سقوط روما كان لمائة سبب منها أن يكون الجماع والمرأة تعتلي الرجل، فلقد يعني أن الرجل هو الخانع والمرأة هي المتحكمة في أخص خصوصيات العلاقة بينهما، لقد آلت الأمور في الدولة الرومانية على الحقيقة إلى النساء ولم يعد الرجال هم المحاربين الذين فتحوا الأمصار.

وهذا الوضع بالرغم مما قيل في دلالته النفسية من حيث ذكورة المرأة وأنوثة الرجل فإن المعالجين ينصحون به في حالات كثيرة، ومنها أن ينعظ الرجل قبل المرأة، أو أن يكون الرجل مريضاً بالقلب أو الضغط ويرهقه الجماع. والمرأة تنعظ في هذا الوضع أسرع من الوضع السابق بتأثير الدور النشيط الذي يكون لها فيه.

وهي تحتوي الرجل أسفلها متمدداً بين فخذيها مع ثني ساقيه قليلاً أو كثيراً بحيث تجلس المرأة على حوضه تماماً وتدخل القضيب بيدها أو يدخله هو. ويهيِّىء لها هذا الوضع أن يدخل القضيب بكامله متعمقاً في المهبل، وتستطيع المرأة أن تميل على الرجل بجسمها وتستند إلى مرفقيها أو ساعديها، ويكون

الرجل حراً يحرك يديه كما يشاء متحسساً جسمها كله، ويستطيع أن يقبِّلها وتقبِّله ويمص ثدييها ويتناول بظرها بأصابعه بينما هي التي تتحرك بجسمها صاعدة هابطة أو في حركة دائرية.

والنساء يفضلن هذا الوضع وتمارسه 45% منهن، ويمكن للرجل والمرأة أن يختارا بينه وبين الوضع السابق بحسب حالة كل منهما النفسية والجسمية.

فإذا كان الرجل متعباً فيمكن أن تتولى المرأة الجماع، وإذا كانت المرأة المتعبة فيمكنه هو أن يتولاه. ويستطيع الرجل أن يتحرك تحت المرأة. وتتأتى لذة المرأة من الاستثارة التي تهيؤها لها حركة الجماع وتوالي احتكاك البظر بمنطقة الحوض عند الرجل نتيجة ميلها للأمام. ويوصف هذا الوضع كعلاج للرجل الذي يشكو من القذف المبكر، حيث تمتنع عليه الحركة التي تعجل بإنعاظه، فتقرب المسافة الزمنية بين إنعاظه وإنعاظ المرأة إذ إنه من المعلوم أن الرجل ينزل بأسرع من المرأة.

وفي الوضع الجانبي side by side يضطجع الزوجان على الجنب بحيث يكونان متقابلين، وتحتوي المرأة جسم الرجل بين فخذيها. إلا أن دخول القضيب لا يكون كاملاً ولا يكون أي من الزوجين على حريته في الحركة، ويحتمل كلاهما الآخر على فخذه. ويريح هذا الوضع المرأة الحامل وأياً من الزوجين في حالة إقبالهما على الجماع وأي منهما متعب، وإذا لم ينجح الزوج في إدخال قضيبه في هذا الجماع فإن بإمكان الزوجين أن يغيرا من وضعهما ليتسنى له الدخول ثم ينقلبان على الجنب. ويقول كينزي إن 30% من الأزواج قد يلجؤون إلى هذا الوضع كنوع من التغيير.

وفي أوضاع الوقوف والجلوس يجلس الرجل على كرسي أو على السرير بينما تجلس المرأة على فخذيه، ويدخل الرجل قضيبه جاذباً حوض المرأة إليه ودافعها حوضه، وتميل إلى الخلف بحيث ترقد بظهرها على ساقيه، وقد ترقد المرأة على السرير بينما الرجل قابع بين فخذيها، أو يرقد الرجل فارجاً ساقيه بينما المرأة تقبع بينهما وتدخل القضيب وتحرك نفسها حركة دائرية، أو تجلس على السرير وتبسط فخذيها وتميل بجسمها إلى الخلف بينما الرجل واقف على

الأرض ويميل عليها مدخلاً قضيبه. وفي وضع الوقوف قد ترفع المرأة ساقاً يحملها الرجل بذراع ويدخل من الجنب، أو يرفعها إلى أعلى بساقيها حول وسطه وذراعيها حول رقبته بينما عجيزتها كلها على كفيه يحملها بهما ويضغط عليها إلى حوضه.

وفي وضع الدخول من الخلف يولج الرجل قضيبه بينما المرأة تجلس القرفصاء ومؤخرتها إليه ورأسها منكسة إلى الأرض ويساعد ذلك على الدخول الكامل ويكون البظر عارياً تماماً وتستثار المرأة من حركة الجماع عليه، غير أن هذا الوضع لا يصلح للمرأة البدينة وقد يسمح بدخول بعض الهواء إلى المهبل فتتمدد بها جدرانه وتقلل من الاحتكاك، وقد يتسبب عن الهواء أصوات أثناء خروجه خلال الجماع، وفي الوضع الخلفي يكون الرجل قادراً على تناول الثديين والبظر، وقد يأذن هذا الوضع للمرأة أن تتناول خصيتي الرجل بيديها. وللوضع الخلفي استثارة تختلف عن استثارة الأوضاع الأمامية.

ويبين كتاب «رجوع الشيخ إلى صباه» أوضاعاً أخرى، منها الوضع والرجل بكامل ثقله على المرأة ويسميه كتاب أطلس تشريح الجسم البشري يتخذ الرجل هذا الوضع السابق مستنداً على ذراعيه، والوضع الطولي بكامل طول الرجل على طول المرأة بأن يبسط الرجل جسمه على جسم المرأة ماداً ساقيه على ساقيها ويولج وهي منفرجة الساقين ثم تضم فخديها من بعد؛ ووضع الوسادة مع ثني الركبتين إلى الصدر ووضع السرير حيث المرأة تضع ساقيها على الأرض والرجل يقف على ركبتيه ليكون حوضه أمام حوضها، وهو الوضع الأصلح للحامل حتى لا يهبط بثقله على بطنها الممتلىء والوضع حيث فخذا الرجل خارج فخذيها؛ والوضع حيث المرأة أعلى الرجل وفخذاها حول فخذيه؛ والوضع حيث هي أعلاه وفخذاها بين فخذيه؛ والوضع حيث هي أعلاه وفخذاها حول فخذيه والوضع وفخذاها حول فخذ واحد من فخذيه.

وهناك وضع الدخول من الخلف بينما المرأة ترقد على ظهرها على بطن الرجل وصدره؛ ووضع الدخول من الخلف بينما تجلس المرأة قرفصاء وثدياها ورأسها ملامسين للسرير أو رأسها دون ثدييها يلامسان السرير؛ ووضع الدخول

مع الوقوف بينما المرأة تجلس على أحد فخذيه وتتعلق برقبته؛ ووضع الدخول والرجل جالس على كرسي تحيط فخذيه بفخذيها ويحضنها إليه؛ ووضع المستلقي عليها وساقاها على كتفيه؛ ووضع الجنب بينما هو بكل جسمه بين فخذيها؛ ووضع الجنب وهي بكل جسمها بين فخذيه.

وهناك من أوضاع الجماع أوضاع يتناول فيها أي الزوجين باللعق أو المص قضيب أو بظر الآخر، وقد يعتلي الرجل المرأة بحيث يكون قضيبه فوق فمها بينما فرجها أقرب إلى فمه، وتمص المرأة القضيب ويلعق الرجل الفرج، وقد تحب المرأة أن يلعق لها فرجها دون أن تمص هي قضيبه أو بالعكس. ويبدأ الرجل بتقبيل ما بين فخذيها ويتجه بشفتيه إلى فرجها حتى يمسك البظر بينهما، ويمص الرأس أو يلعق جسم البظر إلى أسفله ويلعق الشفرين، وقد يدخل لسانه إلى المهبل وقد يلعق البظر والشفرين مع إدخال إصبعين في المهبل يحركهما فيه كحركة الجماع. وعادة ما يثير ذلك المرأة، إلا أنها في بعض الحالات قد تتضايق منه بتأثير اللذة العارمة، أو أن ما يثير أحياناً قد لا يكون مرغوباً فيه في وقت آخر ويعتمد ذلك على الحالة المزاجية للزوجين، وقد يتسبب نفخ الهواء في المهبل خلال اللعق في مضايقات وتعقيدات أقصاها الوفاة. وغاية اللعق أن يصل بالمرأة إلى الإنعاظ. فإذا قاربت أدخل الرجل قضيبه فيها. ويحب الرجل أن تمص المرأة قضيبه بينما هو يلعق فرجها، ويطلق على ذلك اسم وضع العدد (69) حيث العدد 9 يمثل المرأة والعدد 6 يمثل الرجل في الوضع المعكوس بالنسبة لها. ومص القضيب ولعق الفرج كلاهما من الطرق المعروفة والشائعة، وكما سبق ونوهنا تأتيهما الثدييات كلها. والمرأة التي تمص القضيب تبدأ بالرأس وتسير شفتيها على جسم القضيب، وقد تدخل في فمها أكثر من الرأس، وتدغدغ شفتيها الخصيتين، وتستمر في ذلك إلى أن يمني الرجل أو يقارب على الإمناء فتدخل القضيب في فرجها، أو تستقبل المني في فمها، أو تتلقاه في راحتها وهي تضغط على الرأس. وتحس المرأة للمني بدفء في فمها ومذاق مالح وقد تبصقه وقد تبتلعه.

وهناك أوضاع الإهاجة الجنسية باليد، بأن يتبادل الزوجان ذلك، أو يفعله

أحدهما للآخر، أو يفعله أي منهما وحده دون الآخر. وقد يكون الإهاجة باليد مقدمة للجماع أو يقتصر عليها حتى الإنعاظ. والإهاجة الذاتية باليد يطلق عليها اسم العادة السرية، ويقول عنها كينزي إن 99% من الذكور والإناث يمارسونها لمرة أو مرات طوال حياتهم وقد يدمنونها.

وإهاجة المرأة باليد بتناول بظرها، وهي مسألة ينبغي أن يحذرها الرجل، وذلك لأن بعض النساء لا يطقن أن يتحسسهن أحد في هذه المنطقة، وقد يشمل المرأة دفق غامر من اللذة يفقدها الوعي أو قد تتألم له. ويذهب ماسترزوجونسون إلى أن المرأة اليمينية أي التي تستخدم يدها اليمنى أكثر من اليد اليسرى، تكون حساسة من الجانب الأيمن من البظر، بينما المرأة العسراء أي التي تستخدم اليد اليسرى تكون حساسة من الجانب الأيسر منه. وإن المرأة يهيجها جسم البظر أكثر مما يهيجها رأسه أو ما يسمى العُناب، وبعض النساء يتهيجن ذاتياً بضغط الفخذين على بعضهما أو دلك قبة الفرج أو بتحريك اليد عليها ربتاً متوالياً. وأثناء ذلك قد تحب المرأة أن تتحسس ثدييها، أو تدخل أصبعها في فرجها وتضغط على عضلاتها الشرجية. والمرأة قد تصنع مثل ذلك للمرأة مثلها. وإذا كانت البنت والولد كلاهما معرض لإتيان العادة السرية بالبلوغ فإنه في سن 25 يكون نصف البنات قد تخلفن عن اصطناع العادة السرية، وبينما يستمر 95% من الأولاد في اصطناعها. وللمرأة قدرة على بلوغ الإنعاظ لمرات متعددة بالإهاجة الذاتية أو بالإهاجة باليد.

وقد تتزوج المرأة لعشرين أو لثلاثين سنة ولا يحدث أن تخبر الإنعاظ إطلاقاً، وقد تخبره لمرات قليلة طوال حياتها الزوجية. وإنعاظ الرجل يترافق والقذف. والرجل يقذف لمرة واحدة في الجماع الواحد، وقد ينعظ بعض الرجال والنساء مرتين في الجماع الواحد، أو ينعظون عدة مرات في الليلة الواحدة. وقد يؤخر البعض إنعاظه ويطيل في الجماع، ويقال إن الرجل في هذه الحالة يعزل والعزل ضرب من الجماع غيرالكامل وهو أيضاً الجماع المعوق أو الجماع المتقطع أو الجماع المتحفظ، وفيه يتجنب الرجل القذف حتى تنعظ

المرأة أو أنه يتحاشى الإنزال في المهبل منعاً للحمل ويسمى كذلك الجماع المطول.

ويطلق العرب على الجماع بالجنب اسم المخاصرة، وعلى الجماع بين الفخذين بعد المفاخذة ويقال له المحارقة أيضاً، وهو ضرب من العزل، والرجل يأتي المرأة في فرجها فإذا حان الإمناء فإنه يولج بين الفخذين بعد أن تضمهما المرأة ويمني هكذا.

وقد تكون المرأة في الحيض فيأتيها بين الفخذين، ومن العزل أيضاً ما يسمى الجماع العجاني بالضرب بالقضيب على الفرج دون الإيلاج وقد يسمى الخضخضة أيضاً، ومنه الحرش وهو حك القضيب في الفرج دون الإيلاج، وهما وضعان في الجماع يلجأ اليهما الشباب من الجنسين كثيراً.

وقيل في الإنعاظ إن له مراحل أربعاً: في الأولى تكون الإهاجة وتتحقق بعد عشر ثوان من بداية الجماع، فينتصب بظر المرأة ويكبر الشفران الصغيران والكبيران بما يأتيها من دفق الدم نتيجة الإستثارة، وتكبر حلمة الثدي، وقد تستمر هذه الحالة لبضع دقائق، وقد تطول إلى عدة ساعات كلما طال الجماع ولم تنعظ المرأة. وبعض النساء يبلغن المرحلة التالية بسرعة والبعض يطول معهن ذلك بحسب برودة المرأة جنسياً.

والمرحلة التالية وهي التي يقال لها هضبة الجماع plateau of coitus قد تدوم من ثلاثين ثانية إلى عدة دقائق، وفيها يكبر الثديان بنحو 25% من حجمهما الحقيقي. ويتغير لون المهبل والشفرين الصغيرين والكبيرين إلى لون القرمذي الغامق ويزيد انتصاب البظر والقضيب، ويقمط المهبل فإذا كانت المرحلة الثالثة حيث الإنعاظ فإن الرجل يقذف المني تلقائياً.

وأما المرأة فإن المهبل تتوتر عضلاته بشدة وتنقبض، وقيل إنه يحدث به من ثلاث إلى 12 دقة نتيجة هذا التقبض وهي دقات أو تقبضات لا إرادية لا دخل للمرأة فيها، وهي شبيهة بدقات القضيب التي من خلالها بوسعه أن يقذف المني، وينقبض الرحم ويدفق قاعه على العنق، وتشد عضلات الإليتين والوجه والعنق

بخاصة. ويترافق الإنزال عند الرجل وأربع أو خمس تقبضات في البروستاتا والحويصلات المنوية وقناة المني والإحليل

وتكون القدرة على الإنعاظ عند الرجل في ذروتها في نحو الثامنة عشرة، وعند المرأة في نحو الخامسة والثلاثين. وقد يستطيع الشاب أن ينعظ حتى ثماني مرات في اليوم الواحد، بينما المألوف هو مرة واحدة في اليوم عند الرجل فوق الثلاثين

والمرحلة الرابعة هي التي تلي الإنعاظ وفيها ترتخي العضلات كلها ويعود الدم إلى دفقه الطبيعي في المنطقة الجنسية، ويميل الجسم إلى السكون، وقد تستمر هذه الحالة لبعض الوقت عند العصبيين، ويستشعرون ببعض الألم أثناءها، وأما الطبيعيون فإنهم سرعان ما يفيقون منها ويحسون بعدها بأنهم أحسن حالاً وينتظم تنفسهم. ويترافق الإنعاظ ودفق من العرق يغشى الجسم كله، وبعد الإنعاظ تشمل الرجل حالة من الاسترخاء التام قد تمتد إلى دقائق أو ساعات لا يستجيب فيها لأية استثارة، ولا يقدر أن ينعظ من جديد، وذلك شيء غير موجود في النساء، فالمرأة تستطيع أن تواصل وتستجيب لمرة ثانية وثالثة للإنعاظ على التوالي، وبعض النساء قد ينعظن لعشرين وثلاثين مرة في الجماع الواحد ما لم يصبهن التعب.

أنواع الجماع الضار

الجماع الضار نوعان: ضار شرعاً وضار طبعاً. فالضار شرعاً المحرم وهو مراتب بعضها أشد من بعض، والتحريم العارض منه أخف من اللازم كتحريم الإحرام والصيام والاعتكاف وتحريم المظاهر منها قبل التكفير، وتحريم وطء الحائض ونحو ذلك، ولهذا لا حد في هذا الجماع.

وأما اللازم فنوعان: نوع لا سبيل إلى حلّه ألبتة كذوات المحارم فهذا من أضر الجماع، وهو يوجب القتل حدّاً عند طائفة من العلماء كأحمد بن حنبل رحمه الله وغيره وفيه حديث مرفوع ثابت.

والثاني ما يمكن أن يكون حلالاً كالأجنبية فإن كانت ذات زوج ففي وطئها حقان: حق لله وحق للزوج، فإن كانت مكرهة ففيه ثلاثة حقوق، وإن كان لها أهل وأقارب يلحقهم العار بذلك صار فيه أربعة حقوق، فإن كانت ذات محرم منه صار فيه خمسة حقوق، فمضرة هذا النوع بحسب درجاته في التحريم.

وأما الضار طبعاً فنوعان أيضاً نوع ضار بكيفيته كما تقدم، ونوع ضار بكميته كالإكثار منه فإنه يسقط القوة ويضر بالعصب، ويحدث الرعشة والفالج والتشنج، ويضعف البصر وسائر القوى، ويطفئ الحرارة الغريزية، ويوسع المجاري ويجعلها مستعدة للفضلات المؤذية.

وأنفع أوقاته ما كان بعد هضم الغذاء في المعدة وفي زمان معتدل، لا على جوعٍ فإنه يضعف الحار الغريزي، ولا على شبعٍ فإنه يوجب أمراضاً شديدة، ولا علىً تعبٍ ولا إثر حمّامٍ ولا استفراغٍ ولا انفعالٍ نفسانيّ كالغمّ والهمّ والحزن وشدّة الفرح.

وأجود أوقاته بعد هزيع من الليل إذا صادف هضم الطعام ثم يغتسل أو يتوضأ وينام عليه وينام عقبه، فترجع إليه قواه، وليحذر الحركة والرياضة عقبه فإنها مضرة جداً.

الباب السادس

كل ما تهم معرفته حول الحيض

أزمات الزوجة أثناء دورتها الشهرية

يحدث للمرأة أثناء فترة الحيض كثير من التغيرات الجسمية والنفسية، مما يكون له أبلغ الأثر في تصرفاتها وسلوكها، وقد يصدر منها بعض الأفعال وردود الأفعال التي لا ترضى عنها حين تتطهر من حيضها.

وعلى الزوج أن ينتبه لهذا الأمر ويضعه في حسبانه، فيعامل زوجته برفق ولين في هذه الفترة أكثر من أي فترة أخرى، ويتحمل بعض تصرفاتها التي يأباها ما وجد إلى ذلك سبيلاً، حتى تمر هذه الفترة الشهرية في سلام، وهدوء كاملين.

وهاكم بعض هذه التغيرات التي تطرأ على المرأة في مدة حيضها، والتي توصل إليها علماء الأحياء والتشريح:

1 ـ تقل في جسمها قوة إمساك الحرارة، فيزداد خروج الحرارة منه، وتنخفض درجتها فيه.

2 ـ يبطؤ النبض، وينقص ضغط الدم ويقل عدد خلاياه.

3 ـ وتصاب الغدد الصم واللوزتان والغدة اللمفاوية أيضاً بالتغير.

4 ـ ينتقص الاستقلاب الهيوليني.

5 ـ ويقل إخراج أملاح الفوسفات والكلوريد من الجسم وينحط الاستقلاب الغازي.

فيشعرن له بضربات عنيفة، وفي البعض تتورم الغدة الدرقية في هذه الأيام، مما يسبب فيهن البحة، وكثيراً ما يصبن بفتور الهضم وجهد التنفس.

ويشعر بعض النساء بدنو الحيض من بعض الدلائل الجسدية والنفسية، ومنها الآلام الواخزة في البطن، والإعياء، وثقل ما فوق العينين، والإسهال والانحطاط إذا تملكهن مغص أو قيء أو دوار أو إغماء أو توعك أو هذيان. وفي أحيان أخرى قد ينشأ عن أسباب جسدية، فعند الفتيات البالغات تنقبض وترتجف الألياف العضلية المتصلبة في أرحامهن والتي لم تنم بعد، فتسبب لهن آلاماً شديدة، كما أن انقلاب الرحم هو قابل للتأثر بآلام الحيض. . . ولقد نظر المنهج الإسلامي الحكيم بعين الاعتبار لهذه التغيرات التي تعتري المرأة في أثناء فترة الحيض، فحظر على الرجل طلاق زوجته في أثنائها؛ لأنه قد يكون ذلك نتيجة انفعال وقتي تحت تأثير هذه الفترة المعينة. إذ يروي الحفاظ أن ابن عمر رضي الله عنهما طلق امرأته وهي حائض، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**يا ابن عمر، ما هكذا أمرك الله، قد أخطأت السنة، السنة أن تستقبل الطهر**»، أي لا تطلق زوجتك وهي حائض.

6 ـ ويختل الهضم، ويقل التحام الأجزاء الهيولية في المأكولات مع أجزاء الجسم.

7 ـ تضعف قوة التنفس وتصاب آلات النطق بتغيرات خاصة.

8 ـ ويبلد الحس وتتكاسل الأعضاء.

9 ـ وتتخلف الفطنة والذكاء وقوة تركيز الأفكار.

وكل هذه التغيرات تدني المرأة الصحيحة إلى حالة المرض إدناء يستحيل معه التمييز بين صحتها ومرضها. ففي مائة من النساء الحوائض لا تحيض إلا ثلاث وعشرون بلا وجع أو ألم.

وبحث الباحثون ذات مرة في أحوال 1030 امرأة عفو الانتخاب، فوجدوا أن 74% منهن كن يقاسين الوجع وغيره من صنوف الأذى أيام حيضهن.

وإن ما يعهد من الحوائض عامة من الأعراض هي: الصداع، والتعب،

والخلج، وضعف الأعصاب، وتخلف المزاج، واضطراب المثانة، وسوء الهضم والإمساك أحياناً، والغثيان والتهوع في بعض الحالات، وهناك نساء لا يستهان بعددهن يحسسن في صدورهن وجعاً خفيفاً يشتد أحياناً. كل ذلك من آثار الدورة الشهرية لدى النساء.

تحريم الجماع مدة الحيض

عن أنس بن مالك أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]، فقال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**»[1]. وفي لفظ «**إلا الجماع**».

وعلى تحريم وطء الحائض إجماع المسلمين استناداً لنص القرآن العزيز والسنة الصريحة، فمستحله كافر، وغير المستحل إن كان ناسياً أو جاهلاً لوجود الحيض أو جاهلاً لتحريمه أو مكرهاً، فلا إثم عليه ولا كفارة، وإن وطئها عامداً عالماً بالحيض والتحريم مختاراً فقد ارتكب معصية كبيرة، نص على كبرها الشافعي، ويجب عليه التوبة، والكفارة[2].

أما المباشرة بأن تلمس بشرة جلد امرأته الحائض، فهو حلال فيما فوق السرة وتحت الركبة باتفاق العلماء. أما المباشرة فيما بين السرة والركبة في غير السوأتين فلقد اختلف المجتهدون والفقهاء في تحريمها وأكثرهم يحرمها استناداً إلى ما ورد عن حزام بن حكيم عن عمه أنه سأل رسول الله ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «**لك ما فوق الإزار**» وقد خصصوا بهذا الحديث عموم قوله عليه الصلاة والسلام. «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**» رواه مسلم.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه برقم 302، في كتاب الحيض باب رقم 3.

(2) الطب النبوي والعلم الحديث، للدكتور محمود ناظم النسيمي ج2/ 113 ـ 118، ط. مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

ومن وقع في معصية وطء زوجته الحائض فعليه التوبة والاستغفار، وذهب بعض الفقهاء إلى وجوب الكفارة، وذلك بأن يتصدق بدينار أو بنصف دينار، وبهذا قال ابن عباس وقتادة والأوزاعي وإسحاق وأحمد... وحجتهم ما ورد عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض قال: «**يتصدق بدينار أو نصف دينار**» وفي رواية لأحمد: أن النبي ﷺ جعل في الحائض تصاب ديناراً، فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل فنصف دينار[1].

الحكم الصحية للاعتزال الجنسي مدة الحيض

إن للاعتزال الجنسي مدة الحيض مبررات بدنية ونفسية في كلا الجنسين وخاصة عند المرأة.

أولا ـ عند المرأة:

1 ـ إن احتقان الأعضاء الجنسية الخارجية والداخلية في فترات الحيض يجعلها عُرضةً للتسلخ والالتهاب، خاصة إذا وجد عدم التناسب بين أعضاء الرجل والمرأة أو استعمال الرجل ضراوته نتيجة تهيجه.

2 ـ إن معظم الجراثيم ترحب بالوسط الذي تتيحه إفرازات الحيض حيث إن الدم يجعل وسط المهبل معتدلاً أو قلوياً بعد أن كان خافضاً فتتكاثر بسرعة عظيمة ونشاط عجيب، وذلك حال الجراثيم الكامنة في أعضاء المرأة والرجل والجراثيم التي تدخل من الخارج أثناء المباضعة.

وإضافة إلى ذلك فإن مقاومة المرأة للأمراض تنقص إلى حدها الأدنى أثناء الحيض. وكثيراً ما يستفيق في الطمث التهاب كامن في أعضاء المرأة الجنسية، ويزيد في إمكانية ذلك وفي اشتداد الالتهاب حدوث المباضعة وقت الحيض.

3 ـ إن التهيج المرافق للمناسبة الجنسية يزيد في احتقان وتوارد الدم إلى الأعضاء الجنسية، وقد يؤدي ذلك إلى النزف الطمثي الشديد لاسيما إذا

---

(1) هذا الحديث ضعيف، انظر: ضعيف الجامع الصغير رقم 5325، والأحاديث رقم 4529 .

كان في الأعضاء التناسلية ورم أو التهاب، وقد يؤدي إلى زيادة ألم الطمث، فإذا كان عند المرأة ميل للنزف الطمثي أو لاشتداد آلام الطمث، فعلى بعلها أن يمتنع حتى عن الاقتراب النفسي والملاعبة الزائدة.

4 ـ يتقلص الرحم أثناء الارتعاش الجنسي عند المرأة ثم يرتخي مرتشفاً محتويات البطانة الرحمية أو التهاب الملحقات، خاصة وأن أعضاء المرأة الجنسية تكون أكثر استعدادًا للالتهاب في فترة الحيض.

5 ـ إن التوعك والآلام والحالة شبه المرضية أو المرضية التي تصيب كثيراً من النساء في فترة الحيض، وتجعل المرأة غير مستعدة نفسياً للمناسبة الجنسية في ذلك الظرف على الغالب، خاصة وأنها تشعر في تلك الفترة بالهبوط والضيق والزهد.

6 ـ وإذا كانت المرأة على استعداد نفسي للمناسبة الجنسية أثناء طمثها فلتذكر أنها معصية لله تعالى، وأن أغلبية الرجال يشعرون بالاشمئزاز والنفور من الرائحة الشهرية المرافقة للطمث. وقليل منهم الذين يشعرون ببهجة وانجذاب.

إن شم هذه الرائحة الشهرية لا يقتصر على منطقة الأعضاء الجنسية، بل تمتد في معظم النساء إلى إفرازات الجلد والنفس. فالذوق الفني الجميل يهيب بالمرأة أن تأخذ حذرها في فترة الطمث من إثارة اشمئزاز زوجها، لتظل بهيجة في نظره محببة إلى نفسه وليزداد شوقه إليها بعد هذه الدورة الشهرية.

ثانياً ـ عند الرجل:

1 ـ إن النفور والاشمئزاز الذي يعرض للرجل من الرائحة الشهرية ومنظر الدم السائل قد يؤدي به إلى برودة تجاه زوجته.

2 ـ قد يحدث عند الرجل التهاب الإحليل بعد البضاع في أثناء الطمث بتسرب مفرزات الحيض إليه، وعوامل هذا الالتهاب جراثيم مختلفة قد تكون كامنة في أعضاء المرأة التناسلية فتعود إلى نشاطها وحيويتها أثناء الطمث، وقد

تصل جراثيم التهاب الإحليل إلى سائر الجهاز البولي التناسلي فتسبب في بعض أقسامه التهاباً قد يزمن.

3 ـ إن الجماع في أثناء الحيض إسراف من جانب الرجل في وقت مقطوع فيه بعدم حدوث الحمل، وهو الغرض الأسمى من الجماع، والحيض على كل حال يمكن اعتباره فترة استجمام للرجل أياً كانت قوته، يكون بعدها أشد رغبة في الجماع وأكثر لذة فيه.

إن تلك الأضرار التي قد تلحق بالمرأة أو الرجل من جراء المباضعة وقت الحيض هي الأذى المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ **[البقرة: 222]**، أي يسألونك عن إتيان النساء أثناء حيضهن فقل لهم: إن ذلك أذى وضرر فابتعدوا عنه.

ذكر الله جل وعلا ذلك بأسلوب عال لطيف، ونزلت هذه الآية قصداً بين ما يفعله العرب في المدينة وما حولها، وما يفعله اليهود من إفراطهم في مجانبة النساء في أثناء الحيض فلا يجالسونهن ولا يؤاكلونهن، وبين النصارى الذين لا يتحرجون من إتيان نسائهم في الحيض، وبما أن المرأة غالباً ما تكون في أيام الطمث عديمة الرغبة بالجماع أو نافرة منه، وبما أن الرجل هو العنصر الفاعل في المناسبة الجنسية اقتضى ذلك توجيه الخطاب إلى الرجل: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾!!.

إن الحكم الصحية التي ذكرتها في اعتزال النساء في المحيض ينطبق معظمها على اعتزالهن في النفاس.

متى تحل؟

لا يحل وطء الزوجة التي ينتهي حيضها حتى تطهر بغسل إن أمكن أو تيمم إن لم يمكن الغسل، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ **[البقرة: 222]**. ولرواية أحمد السابقة. وبهذا قال الشافعية والمالكية والحنابلة وزفر من الحنفية.

أما باقي الحنفية فيفصلون ويقولون: يحل قربان المرأة إذا انقطع دم الحيض لأكثر مدته وهي عشرة أيام عندهم بدون غسل، فإن انقطع الدم لأقل من ذلك فلا يحل قربانها إلا بغسل أو بمضي وقت الصلاة الذي انقطع فيه الدم، فإذا انقطع الدم في أول الوقت أو أثناءه لم يحل قربانها إلا إذا انقضى ذلك الوقت بتمامه وصارت الصلاة ديناً في ذمتها. أما إذا انقطع في آخر الوقت، فإن كان باقياً منه ما يسع الغسل والتحريمة حلّ قربانها وإن لم يبق منه ما لا يسع ذلك فلا يحل إلا بغسل أو انقضاء وقت صلاة أخرى. ويحتجون لتفصيلهم بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بالتخفيف والتشديد، فمعنى التخفيف حتى ينقطع حيضها فحملوه على العَشَرة وهو أكثر مدة الحيض عندهم، ومعنى التشديد يغتسلن فحملوه على ما دونها عملاً بالقراءتين، ولأن ما قبل العشرة لا يحكم بانقطاع الحيض لاحتمال عدم الدم فيكون حيضاً فإذا اغتسلت أو مضى عليها وقت الصلاة دخلت في حكم الطاهرات.

وذهب ابن حزم إلى أنها إذا طهرت من حيضها أو انقطع الدم عنها، جاز له وطؤها بعد أن تغسل موضع الدم منها فقط أو تتوضأ أو تغتسل؛ أي ذلك فعلت جاز له إتيانها.

وروى ابن حزم عن عطاء وقتادة قالا في الحائض: إذا رأت الطهر فإنها تغسل فرجها ويصيبها زوجها.

وروي عن عطاء: أنها إذا رأت الطهر فتوضأت حل وطؤها لزوجها. وروى ابن المنذر عن مجاهد وعطاء قالا: إذا رأت الطهر فلا بأس أن تستطيب بالماء ويأتيها قبل أن تغتسل.

أهم الأحكام الشرعية حول التعامل مع الزوجة أثناء الحيض

1 ـ المقدار المسموح به شرعاً من الاستمتاع بالحائض:

اتفق الفقهاء على حرمة وطء الحائض في الفرج لقوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: 222].

واختلف الفقهاء في الاستمتاع بما بين السرّة والركبة، فذهب جمهور الفقهاء ـ الحنفية والشافعية ـ إلى حرمة الاستمتاع بما بين السرّة والركبة، لحديث عائشة رضي الله عنها. قالت: «كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها أمرها أن تتزر ثم يباشرها. قالت: وأيكم يملك إربه كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه؟»(1).

وقد أجاز الحنفية والشافعية الاستمتاع بما بين السرّة والركبة من وراء حائل. كما منع الحنفيّة النظر إلى ما تحت الإزار، وصرح الشافعية بجوازه ولو بشهوة.

2 ـ كفارة وطء الحائض:

نصّ الشافعية على أن وطء الحائض في الفرج كبيرة من العامد المختار العالم بالتحريم، ويكفر مستحلّه. وعند الحنفيّة لا يكفر مستحلّه لأنه حرام لغيره.

واستحبّ الحنفيّة والشافعيّة أن يتصدّق بدينار إن كان الجماع في أوّل الحيض وبنصفه إن كان في آخره.

3 ـ وطء الحائض بعد انقطاع الحيض:

ذهب ـ الشافعية ـ إلى أنه لا يحل وطء الحائض حتى تطهر ـ ينقطع الدم ـ وتغتسل. فلا يباح وطؤها قبل الغسل.

---

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه: الجزء الأول: 5 ـ باب: مباشرة الحائض، رقم 295 ـ 296، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحيض، باب: مباشرة الحائض فوق الإزار، رقم 293.

4 ـ طلاق الحائض:

اتفق الفقهاء على أن إيقاع الطلاق في فترة الحيض حرام، وهو أحد أقسام الطلاق البدعي الذي نهى الشارع عنه. كما ذهب جمهور فقهاء المذاهب الأربعة إلى وقوع الطلاق في زمن الحيض، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما بالمراجعة، وهي لا تكون إلا بعد وقوع الطلاق. وذهب الحنفية إلى وجوب مراجعتها، وذهب الشافعية إلى أن مراجعتها سنة. والواقع أن هذا مبحث طويل اختلفت فيه أنظار الفقهاء بشدة، وقد ذهب ابن حزم الظاهري وتابعه فيما بعد ابن تيمية وتلميذه ابن القيم والفقهاء التابعون لهما على عدم وقوع الطلاق البدعي (أي الطلاق أثناء الحيض أو الطهر الذي تمت المجامعة فيه) وعدم ترتب أي أثر عليه، وهذا مذهب ابن عباس، ومذهب العترة النبوية، ومذهب الباقر والصادق من أئمة آل البيت النبوي الطاهر عليهم السلام، وبهذا المذهب أخذ قانون الأحوال الشخصية في مصر حفاظا على بقاء الأسرة وتقليلاً من فرص هدمها.

5 ـ خلع الحائض:

ذهب جمهور الفقهاء ـ الحنفية والشافعية ـ إلى جواز الخلع في زمن الحيض لإطلاق قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: 229]، ولحاجتها إلى الخلاص بالمفارقة حيث افتدت بالمال.

6 ـ ما يحل بانقطاع الدم:

إذا انقطع دم الحيض لم يحل مما حرم غير الصوم والطلاق، ولم يبح غيرهما حتى تغتسل وإنما أبيح الصوم والطلاق بالانقطاع دون الغسل، أما الصوم فلأن تحريمه بالحيض لا بالحدث بدليل صحته من الجنب، وقد زال.

7 ـ أحكام عامة في موضوع الحيض:

1 ـ إنزال ورفع الحيض بالدواء: وقد صرح الحنفية بأنه إذا شربت المرأة دواء فنزل الدم في أيام الحيض فإنه حيض وتنقضي به العدة.

2 ـ ادّعاء الحيض: ذهب الحنفية إلى أنه إذا ادعت المرأة الحيض وأمكن ذلك قبل قولها وجوباً، لأنها مؤتمنة فيحرم وطؤها حينئذ وإن كذبها، وقيد

الحنفية ذلك مما إذا كانت عفيفة أو غلب على الظن صدقها، أما لو كانت فاسقة ولم يغلب على الظن صدقها بأن كانت في غير أوان الحيض فلا يقبل قولها اتفاقاً. وذهب الشافعية إلى أنها إن أخبرته بالحيض فإنه يحرم عليه مباشرتها إن صدقها وإلا فلا، وإذا صدقها وادعت دوامه صدقت.

الباب السابع
مفسدات العلاقة الزوجية

تمهيد[1]

تقوم العلاقة الزوجية بين الزوجين على أساس واحد هو: المودة والرحمة، الذي بينه الله تعالى في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

فطالما أن هذا الأساس قائم ومتين، فلا خوف على الحياة الزوجية، ولا خطر. وإن وقع بين الزوجين خلاف، فإنه يفضُّ بالتفاهم بلا تفاقم، وذلك لأن القلب المحب، يتحمل الإساءة، ويصبر على صاحبها، ومعلومٌ أن الحياة الزوجية، لا تخلو من خلاف ونكد، ولولا صبر الزوجين وتحملهما، بتوفيق الله تعالى، لما عاش زوجان حياتهما معاً.

ولكن الخطر على العلاقة الزوجية، يصبح كبيراً، إذا وهن الأساس وضعف، وتنهار هذه العلاقات وتتفكَّك بالكلية، إذا زال ذلك الأساس.. لأن الحبّ إذا زال عن القلب، حلّ مكانه البغض، وبعد ذلك لا يتعامل الزوجان بالمودة والرحمة، ولا بالصبر والحلم، بل يتعاملان بالجفاء والغلظة، ويتبادلان السباب والتجريح.

---

(1) هذا الباب مستفاد من كتاب: أصول المعاشرة الزوجية، تأليف القاضي الشيخ محمد أحمد كنعان، دار البشائر الإسلامية، ط9، 1424هـ ـ 2003م.

إن من المهم هنا أن نعرف، أن الأصل في العلائق بين الناس، هو: الحبّ، أي: سلامة القلب تجاه الآخرين، من البغض والحقد.. فلا ينشأ الإنسان مبغضاً.. حاقداً على غيره.. إلا لسبب من الأسباب المنفّرة، الذي يرتكبه ذلك الغير.. فحينئذ يتحول الحبّ إلى بغض، ويمتلئ القلب بالحقد والكراهية..

فالزوجان هما: رجل وامرأة، ارتضيا أن يكونا زوجين، ليس في قلب أي منهما نحو الآخر سوى محبة تملأ جوانحه، ومودة تفيض بالحنان والعطف.. وعلى هذا الأساس هما يتزوجان.. ويعيشان.. ويتعايشان.. وإذا ما تغيرت بينهما الأحوال، واضطربت العلاقة، فلا بد من علة أفسدت هذه العلاقة، بسبب إساءة بدرت من أحد الزوجين نحو الآخر، فآذته وآلمته..

إننا سنتكلم عن أسباب فساد العلاقة الزوجية، بكل ما نستطيع من وضوح وواقعية، غير مبالين بما ألفه الناس واعتادوه، ولا آخذين بعين الاعتبار مقاييسهم الفاسدة، ولا شعاراتهم الفارغة الجوف...

إن معالجة أمراض المجتمع، لا تكون بتغطية الداء، ولا بتمويه جراثيمه الفتاكة، ولا بمخادعة النفس، والكذب عليها وعلى الآخرين.. بل تكون المعالجة السليمة المفيدة بوضع اليد على الجرح، وبالوقوف على المرض، وكشف أسبابه، وبيان مضاره الفادحة... ثم بوصف العلاج الناجع، والدواء النافع.. وهذا ما سنفعله هنا، بعون الله تعالى.

أسباب فساد العلاقة الزوجية

إذا أردنا أن نختصر هذه الأسباب، في جملة واحدة، فإننا نقول:

إن إساءة أحد الزوجين إلى الآخر، هي السبب الأكبر، لإفساد العلاقة الزوجية، ولأن الإساءة لا تكون هي الأخرى من دون سبب، فإن سببها بإيجاز هو: إطلاق العلاقة وانفلاتها، بين الرجال والنساء.

ولكي نوضح هذا الموضوع الخطير، فقد تتبعنا أوجه العلاقة، بين الرجال

والنساء، في شتى المجالات، ومصادر الإفساد للحياة الزوجية، فاجتمع لدينا العناوين الثمانية التالية:

أولاً ـ إطلاق البصر:

إن غض البصر عما حرم الله تعالى النظر إليه من العورات، هو الدرع الأول، الذي يدفع عن الإنسان، شروراً ومفاسد كثيرة، ولهذا أمرنا الله عز وجل بغض البصر، رجالاً ونساء، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: 30 ـ 31].

ولا يستسهلنَّ أحدٌ أمرَ النَّظر، فإنَّه مفتاحُ كثيرٍ من المفاسد، فكم من رجلٍ طلَّق زوجته، أو هجرها، أو ساءت حياته معها، لأنه نظر إلى امرأة أخرى فاستهوته، وكم من امرأة هربت من بيت زوجها مع رجل أحبته ومالت إليه. ولهذا حذر النبي ﷺ من النظرة، ونهى عن النظر إلى غير المحارم من النساء، فروى مسلم وأبو داود والترمذي عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ، عن نظر الفجاءة، فقال: «**اصرف بصرك**»، أي لا تدقق ولا تحقق بنظرتك المفاجئة، لئلا ترتكب إثماً.

ونظرة الفجاءة هي: النظرة الأولى العابرة، وهي: وقوع البصر على الشخص، من دون قصد النظر إليه، وهذه النظرة لا إثم فيها، لعدم قصدها.

وروى مسلم وأبو داود والنسائي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، فهو مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، اللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج، أو يكذبه**».

ومعنى هذا الحديث: أن الزنا، هو: استمتاع الرجل بالمرأة، واستمتاع المرأة بالرجل، من دون أن يكونا زوجين، أو تكون المرأة ملك يمين الرجل، وهذا الاستمتاع، يشارك فيه جوارح الإنسان وأعضاؤه كافة، فكان لكل عضو نصيبه من الزنا، كما جاء في هذا الحديث، ولكن زنا الفرج، وهو الزنا الحقيقي، والمراد عند الإطلاق.

وأما قوله ﷺ في هذا الحديث: **«ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه»**، قلنا في معناه وجه، لم نره لغيرنا، مجمله:

أن الشخص الذي أراد الله له الخير، والحفظ عن الفاحشة، يباشر جميع مقدمات الزنا، من لمس وتقبيل.. ولكنه إذا هم بالزنا بفرجه، كذبه فرجه وخذله، فلا ينتصب ذكره، أو ينزل قبل الإيلاج، وتبرد شهوته، أما إذا لم يكن ذلك الشخص من أهل الحفظ، فإن ذكره ينتصب، ويحصل الإيلاج والزنا به، فيصدق فرجه مقدمات الزنا، التي باشرها بعينيه، ويديه، وسائر جوارحه، ومن رحمة الله تعالى بالمؤمن أيضاً، وحفظه إياه: أن يسعى باحثاً عن الزنا، فلا يجده..

ثانياً ـ مصافحة النساء:

اعتبرنا المصافحة سبباً من أسباب فساد العلاقة الزوجية، لأنها محرّمة وغير جائزة، في المقام الأول، ولأنها باب فتنة ومدخل شر، وهي مباشرة[1] بين الرجل والمرأة.

أما تحريم المصافحة، بين الرجل والمرأة، فأمر معروف لدى جميع العلماء، ولو كانت المصافحة جائزة، لفعلها رسول الله ﷺ في أمر عظيم هو: مبايعة النساء، على أن: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: 12] ولكنه عليه الصلاة والسلام، بايعهن بالكلام، وما مست يده يد امرأة قط، كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها[2]، وروى أحمد والترمذي والنسائي، عن النبي ﷺ قوله: **«إني لا أُصافح النساء»**.

ومن أَعجب ما قرأت، في إحدى الجرائد مرة، وهو ما يشيع على ألسنة كثير من العامة: أن تصافح الرجل والمرأة، جائز عند أبي حنيفة رحمه الله، لأن

---

(1) المباشرة هي: إلصاق البشرة بالبشرة، وهذا معنى قولنا «باشر الرجل زوجته».

(2) رواه مسلم والنسائي وابن ماجه، وذكره البخاري تعليقاً.

المصافحة عنده لا تنقض الوضوءَ.. وهذا جهل غريب عجيب.. إذ ما هي علاقة نقض الوضوء أو عدمه، بالتحليل والتحريم؟ فقول الإمام أبي حنيفة رحمه الله بأن لمس المرأة الأجنبية، لا ينقض الوضوء لا يعني جواز لمسها، لأن حكم اللمس شيء.. وكونه ينقض وضوء المتوضئ، شيء آخر، وهذا كالسرقة، فإذا سرق المتوضئ، لم ينتقض وضوؤه، بسبب سرقته، مع أن السرقة كبيرة من كبائر الذنوب.

ومن العادات الشنيعة، التي تفشت في بعض المجتمعات والأسر، الذين تربوا تربية مخالفة لأخلاق الإسلام، وموافقة لعادات الكفرة، عادة التقبيل المتبادل، بين الرجال والنساء، من دون خجل ولا حياء.. وهي عادة تلقفوها عن الغرب.

ثالثاً ـ كشف العورات والتعري:

إن كشف العورات، والتعري من الرجال والنساء، هما من أوسع العادات السيئة انتشاراً في عصرنا، خلافاً لإنسانية الإنسان، المتميزة باللباس، وستر العورات.

ونعني بهذا العنوان، ما شاع من تعري النساء والرجال، على نحو يخالف أحكام الشرع الشريف، بكشف العورة، وهتك الستر، غير مبالين بما ينجم عن ذلك، من مفاسد ومضار وتحريم لها.

لقد شاعت هذه العادة القبيحة في البيوت، وفي المسابح وشواطىء البحار، وفي الملاهي والمراقص والسهرات، وفي الشوارع والأسواق.

ففي البيوت: تجلس المرأة، مع أقاربها، ومع غيرهم، وهي في ثياب النوم الشفافة، التي لا تخفي شيئاً من جسدها عن الأنظار، والجميع لا يستغربون هذه العادة، ولا ينكرونها، بل إن منهم من يحسبون ذلك جائزاً، وإذا اعترض معترض، أجابوه بقولهم المعروف: ما في أحد غريب.. لا غريب إلا الشيطان...

وليس هذا فحسب، بل إن كثيراً من النساء يجلسن على شرفات البيوت، في مواجهة بيوت الجيران، وهن بملابس نومهن، كاسيات عاريات، ويرين أنهن في بيوتهن، وأن الإنسان حر في بيته.

ولم يقتصر الأمر على النساء، بل تفشت عادة التعري عند الرجال أيضاً، أمام الأم، والبنت، والأخت، وزوجة الابن.. إلخ.

إن الشرع الشريف، قد نهى المرأة عند إظهار شيء من بطنها، أو ظهرها، أو ما بين سرتها وركبتها، أمام أي رجل.. ولو كان أباها، أو ابنها، أو أخاها، إلا لزوجها.. وللزوج وحده، وجعل عورة المرأة على امرأة مثلها، ما بين سرتها وركبتها، وكذلك هي عورة الرجل مع الرجل، وعورة الرجل مع المرأة.

فلا يجوز لمسلم ولا مسلمة، أن يخالفا أحكام الله تعالى، ولا أن ينساقا مع عادات، وفدت إلينا من الشرق أو الغرب، الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، فكيف يجوز للمسلم والمسلمة، تقليد قوم قد ضلوا عن سواء السبيل، ويعيشون حياة، لا تختلف في واقعها عن حياة سائر دواب الأرض؟!..

أما على شواطئ البحار، وفي المسابح العمومية، فالأمر أسوأ وأفحش، ومثله في السوء، بل وأسوأ منه ما يجري في الملاهي، والمراقص، والسهرات، ولا داعي إلى تفصيل ذلك، فهو معروف..

أما في الشوارع والأسواق، فالنساء في كثير من المجتمعات، لا يراعين حدود الله تعالى في أنفسهن، بل يتفنَّنَّ، في إظهار زينتهنَّ وفتنتهنَّ أمام النَّاس، وهنَّ يقصدن بذلك لفت الأنظار واستمالة الرجال إليهن.

ومن غريب أمر هؤلاء النسوة أنهن لا يفعلن ذلك في بيوتهن لأزواجهن، فترى إحداهن في منزلها بملابس المطبخ.. ورائحة الطعام.. طول الوقت.. وزوجها معها، فإذا عزمت على الخروج من البيت لبست أحسن ثيابها... وتزينت وتعطرت.. وإذا رجعت إلى بيتها عادت إلى ابتذالها وإهمالها بحق زوجها...

إن مرادنا من إثارة هذا الموضوع، أن نسأل الناس هذا السؤال: هل تعلمون أيها الناس، كم تضر هذه العادات القبيحة بالرجال والنساء؟.... وكم خربت من بيوت، وشردت من عائلات؟....

إن تبادل الرجال والنساء عرض المفاتن سيؤدي إلى قيام علاقات غير مشروعة بين الجنسين، ويترتب على ذلك فساد العلاقات الزوجية، ولو أردنا ذكر أمثلة على ذلك، لضاق المجال، بل لا نرى حاجة إلى ذلك، لأن عواقب هذا الواقع الفاسد معروفة، تنشر في المجلات والصحف والكتب، وتمتلئ بها ملفات المحاكم، وعيادات الأطباء... والمحفوظ المحفوظ من الناس هو من حفظه الله عز وجل... فاللهم احفظنا بحفظك، واسترنا بسترك، وقنا شر السيئات والفتن، ما ظهر منها وما بطن.

رابعاً ـ الخلوة المحرمة:

معنى الخلوة هنا: أن يجتمع رجل بامرأة يحل له زواجها وحدهما، والخلوة بالمرأة من غير المحارم هي من أخطر أسباب فساد الحياة الزوجية، لأنها تحرك، في نفس الرجل والمرأة، كوامن الرغبة والشهوة، ويدخل الشيطان بينهما، بالإغراء والإغواء، ولهذا نهى النبي ﷺ عن هذه الخلوة، فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يخلون أحدكم بامرأة، إلا مع ذي مَحْرَمٍ»**.

وروى الترمذي والنسائي وغيرهما، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«لا يخلون رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما»**.

ومن الأماكن، التي تكثر فيها خلوة رجل بامرأة:

ـ عيادات الأطباء، وذلك بحصول الخلوة بين الطبيب والمريضة، أو بين الطبيب والموظفة في عيادته، أو السكرتيرة..

ـ والمكاتب لرجال الأعمال، والشركات كافة، التجارية وغيرها، والدوائر الحكومية، التي يعمل فيها الجنسان.

ففي هذه الأماكن يكثر اختلاء الرجال بالنساء، بسبب العمل معاً. الأمر الذي يترتب عليه مفاسد كبيرة، تضر بالعلاقة الزوجية.

خامساً ـ العمل المختلط:

لا نعني بهذا العنوان، مجال العمل الذي يتواجد فيه الرجال والنساء فقط، بل نعني به عمل المرأة خارج منزلها، سواء أكان مع الرجال، أم مع النساء، وفي الحالتين، يندر أن تسلم أسرة المرأة العاملة، من الشقاق والنزاع، لأن عمل المرأة بحد ذاته مرهق لها ومتعب، وهذا يؤدي إلى عجزها عن الجمع بين مهمات العمل، وبين القيام بحقوق الزوج والأولاد والأسرة، وعلى أدنى الاحتمالات، فإنها ستقصر في أداء هذه الحقوق، وسيترتب على ذلك خلاف مع زوجها، فإذا أُضيف إلى عمل المرأة وجودها بين الرجال، فإن خطورة أُخرى، هي أكبر من الأولى، تتربص بعلاقة هذه المرأة مع زوجها.

وذلك لأن جلوس الرجال والنساء معاً للعمل في الدوائر الحكومية والشركات، والمكاتب، هو باب عريض من أبواب الفتنة، وإفساد العلاقة الزوجية، بل لما يترتب على التعاطي المباشر بين الرجل والمرأة حين العمل من علاقة، لأن العشرة بالمجالسة والمحادثة والمؤانسة، تجذب الإنسان إلى الآخر، فتنشأ بسبب ذلك، الصداقات بين الناس، أي تنشأ بين المتعارفين علاقة محبة، تسمى: الصداقة، وهذه علاقة مشروعة ومرغوبة، فيما بين الرجال، وفيما بين النساء، ضمن الحدود الشرعية.

ولكن لا يصح أن تنشأ صداقة بين رجل وامرأة لا محرمية ولا زوجية بينهما، لا بسبب زمالة عمل، ولا جوار في سكن، ولا غير ذلك، لأن الصداقة ـ كما أشرنا ـ رباط محبة، وعلاقة مودة، ولا يجوز قيام هذه الرابطة، إلا بين المحارم، كالأم والأخت.. وبين الزوج وزوجته، دون الغير، أما الرجل والمرأة اللذان لا محرمية ولا زوجية بينهما، فهما أجنبيان عن بعضهما، بينهما حرمة كاملة، بدءاً من النظر.. وانتهاء بفاحشة الزنا.

ولا شك، في أن الذين يزعمون وجود صداقة بريئة، بين رجل وامرأة أجنبيين. هم مخطئون، وبعيدون عن الواقع، ويقلبون الحقائق الثابتة، والمعايير السليمة. لأن بين النساء والرجال، شعوراً فطرياً بالتكامل، فالمرأة تشعر بحاجتها إلى الرجل، والرجل كذلك. بسبب الميل الفطري في كل منهما نحو

الآخر، وهذا الميل، يحول دون إقامة صداقة مجردة بين الجنسين، بينما نجد هذه الصداقة تنشأ بين أفراد الجنس الواحد، بكل معانيها.

إن غرضنا من إبراز مخاطر العمل المختلط هذه، هو تحذير العاملين والعاملات، والموظفين والموظفات معاً، بأن المجال الذي يعملون فيه ليس مجال زمالة، ولا سبب صداقة، بل هو مجال لنشوء علاقات غير محمودة بين الجنسين، تنعكس بالسوء والضرر، على العلاقة الزوجية القائمة.. فالحذر واجب، والتحوط مطلوب، وفي مطلق الأحوال فإن البعد عن مزالق الخطر سلامة...

سادساً ـ المباسطة والممازحة والمراقصة:

هذه كلمات ثلاث، كل منها يصلح أن يكون عنواناً مستقلاً، ويكفي واحد منها، لأن يكون الشرارة الأولى التي تضرم النار في المنزل الزوجي..

ولكننا جمعناها معاً، للإشارة إلى ما فيها من الأضرار، ولتنبيه الناس إلى هذا الجانب المهم من العلاقات الاجتماعية، الذي أكثر الناس عنه غافلون... إذ ليس غرضنا أن نتوسع في البحث، ونستفيض في العرض، فلو كنا نرغب في ذلك، لكان كتابنا هذا مجلداً كبيراً.. بل ربما أكثر من مجلد...

لقد شاع في كثير من المجتمعات تعاطي الرجال مع النساء، في البيع والشراء.. والعمل.. بل في السهرات، والحفلات، فنرى المرأة تكلم الرجل الغريب عنها، وتسايره.. وتتجاذب معه أطراف الحديث، وتناقشه في السياسة.. وقضايا المجتمع، وتنكت معه.. وتضاحكه..

وفي مجتمعاتٍ أخرى، يترقَّى مستوى وحدة الحال.. هذه، إلى حدّ المراقصة... بل ربما أفحش، وذلك من دون أن تشعر تلك المرأة بحرج، أو استغراب، أو عيب، أو خجل.. بل تعتبر الأمر عادياً، بكل بساطة..

فماذا يترتب على هذه التصرفات الشاذة؟.. الجوابُ معروف واضح المعالم، يعلمه أصحاب الشأن والعلاقة..

إن على المرأة ألَّا تنسى أن الرجل الذي تباسطه، وتسايره، وتمازحه،

وأحياناً تراقصه... ليس أباها.. ولا أخاها.. ولا ابنها... وأيضاً ما هو بزوجها... فمن هو يا ترى؟....

إن الأب والأخ والابن، وسائر المحارم، لا يترتب على مسايرة المرأة واحداً منهم وممازحته، أي محذور ولا محظور، فلا هو سيشتهيها، ولا هي ستشتهيه... وإن كان ذلك الرجل هو زوجها، فالشهوة بينهما مباحة.

أما ما سوى هؤلاء من الرجال، فهم أجانب عنها، تستحليهم، ويستحلونها، وتشتهيهم ويشتهونها، ويمكن أن يتم بينها وبينهم أي نوع من أنواع الزنا بالنظر.. والكلام.. والسمع.. واللمس.. وهلمّ جرّاً..

إنّ على كلّ من المرأة والرجل أن يكون رصيناً في تعامله مع الآخر، متحفّظاً، متحليًّا بالحشمة والجدّ، مبتعداً عن مثيرات الشهوة، وأسباب المنكرات والفواحش.

سابعاً ـ الأحماءُ:

الأحماء: جمع حمو بفتح الحاء، وضم الميم وسكونها، أو حَمُ بضم الميم مخففة، ومرادنا بالأحماء في موضوعنا هنا: أبو الزوج، وأخو الزوج، وعمّه، وابن عمّه، وخاله.. إلخ، وقريب الزوجة كأمّها وأختها وعمّتها وخالتها..

وأصل هذا العنوان مأخوذٌ من الحديث الشريف التالي:

روى البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إيّاكم والدخول على النساء**»، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**».

ومعنى هذا الحديث أن النبي ﷺ حذَّر من الدخول على النساء، والتردّد عليهنّ، إلاّ مع ذي رحم مَحْرَم، وللحاجة، لما يترتَّب على ذلك من مفاسد وشرور، فقام رجل من الأنصار ـ وهم أهل المدينة من الأوس والخزرج رضوان الله عليهم ـ فسأل رسول الله ﷺ عن الأحماء، أي عن دخول أقارب الزوج على زوجته، في غيبته، وعمّا إذا كان في دخولهم عليها حرجٌ، فأجابه الرسول

الكريم، عليه الصلاة والسلام، بهذا الجواب الجامع القاطع قائلاً: «**الحمو الموت**»، والمعنى كما قال ابن الأثير في «النهاية»: أي: فلْتَمُتِ المرأة ولا تفعلنَّ ذلك، وهذه كلمة تقولها العرب، كما تقول: «الأسد الموت، والسلطان النار»، أي لقاؤهما مثل الموت والنار، فالحمو قد يفسد على الزوجين أمرهما، بدخوله على المرأة في غياب زوجها، لأنَّ الزوج لا يحبُّ أن يطَّلع أحد من أقاربه على باطن حاله مع زوجته بدخول بيته في غيابه.

وبيان ذلك الموضوع: أن علاقة الرجال من أقارب الزوج بالزوجة يجب أن تكون في نطاق الشرع، ضمن الاحتياط الكامل، والحذر التام، وأن علاقة قريبات الزوجة بالزوج، يجب أن تكون على هذا النحو، من دون تساهل ولا انفلات.

ولْيَعْلَم الجميع أن زوجة الأخ.. أو: أخت الزوجة.. وما أشبه ذلك، ليست من المحارم، ليجوز للرجل أن يتباسط معها، ويرفع التحرج بينه وبينها.. وليجوز للمرأة أن تفعل معه مثل ذلك، بل هما أجنبيان، لا تربطهما محرميَّة على الإطلاق.. فالواجب أن يتعاملا على هذا الأساس، وإلا فالعواقب وخيمة..

إن تساهل الناس في هذا الأمر، في عصرنا، أوقع الكثيرين في مآزق مَخُوفَةٍ، فالذين انفلتوا.. وانفتحوا على بعضهم، من دون مراعاة لأحكام قامت بين بعض أقارب الرجل وبين زوجته.. وهو يعلم.. أو لا يعلم.. وكم من علاقة غير مشروعة قامت بين بعض قريبات المرأة وبين زوجها.. وهي تعلم.. أو لا تعلم..

ولكن ما نعلمه نحن، بسبب عملنا في القضاء الشرعي، يفوق التصور والتخيل.. ولكي تدرك أيها القارئ ما نعنيه، فاعلم أن مثل مجتمعنا المعاصر، المتموج ببريق الزخرفة، ومظاهر الزينة، كمثل قطعة خشبية، نخرها السوس، وأوهنها في أعماقها، وهي مُغَشَّاةٌ بقشرة رقيقة من الطلاء والزينة.. فهي تبدو للناس جميلة ذات لمعان.. بينما هي في الواقع، خشبة نخرة.. لا قوة فيها، ولا قيمة لها، ولا شأن.. إننا لا نعني بحالٍ أن جميع الناس هكذا يفعلون.. معاذ الله أن نقصد ذلك.. فنحن نعرف ونعلم.. أن هناك نسبة كبيرة من

المسلمين في العالم، لم تنزلق إلى هذا الحضيض، وهي معروفة في بلاد المسلمين، شرقاً وغرباً، ولكننا نقصد فيما ذكرناه أولئك «المستغربين»، الذين على أخلاق الغرب تربوا.. وعلى سنتهم ساروا.. وعلى عادتهم درجوا.. فنسوا أخلاق الإسلام وأحكامه، وأخلدوا إلى ما يهيج شهواتهم.. ويفسد أخلاقهم..

ثامناً ـ وسائل الإعلام:

نعني بوسائل الإعلام كل ما ينقل العلم بالشيء إلى الناس، من تلفزة وإذاعة وصحف ومجلات وكتب، ومسرحيات وتمثيليات، وغناء ورقص، وما أشبه ذلك.. ولربما سأل سائل: ما هي علاقة وسائل الإعلام هذه كلها بفساد العلاقة الزوجية؟!.. والجميع يسمع أن الإعلام موجود للخير.. والنفع.. والثقافة.. الخ؟ ولهذا السائل نقول:

إن وسائل الإعلام هي في الأصل لنفع البرية، وخير البشرية، وتكون وسائل الإعلام كذلك عندما يوجد من يستعملها في هذا الاتجاه.. فإذا استعملت هذه الوسائل استعمالاً شريراً.. فإنها ستكون سبباً للشر.. وهذا ما هو حاصل بالفعل في عصرنا فإن أحداً من الناس لا يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة.

فالإعلام بكل وجوهه، وعلى الأخص منه التلفزة.. والإذاعة.. موجه في الغالب توجيهاً غير سليم، من خلال الأفلام الخليعة.. والمسرحيات والتمثيليات ذات المواضيع المسممة.. التي تسمم عقول الشباب والشابات، وتفسد عليهم دينهم.. وحياتهم الزوجية، حاضراً ومستقبلاً.. ولسنا بحاجة إلى ضرب أمثلة على ذلك، لأن الأهداف الهدامة المفسدة، لمن هم وراء المفاسد، ظاهرة واضحة، ماثلة للعيان.. وباستطاعة أي إنسان أن يدرك هذه الحقيقة، إذا هو بحث أو سأل، عن هدف هذه المسرحية، أو ذلك الفيلم العربي.... إنه باختصار: تخريب الأسرة.. بتحريض الزوجة على زوجها.. وبتحريض الابن والبنت على المدارس والجامعات، وعلى الاختلاط.. والخَلْطِ.. تحت شعارات: التحرر، والحرية.. والصداقة.. والزمالة البريئة.. وبتعليم الرجل

كيف يخون زوجته.. وتعليم المرأة، كيف تخون زوجها.. وهكذا.. وهكذا.. وذلك كله تحت عنوان: الفن...

ورب قائل يقول: إن هذه المسرحيات والأفلام.. التي أشرت إليها، هي للتسلية.. والترفيه.. وإلا.. فكيف يتسلى الناس.. ويرفهون عن أنفسهم.. ويضحكون.. وينبسطون؟؟..

نقول: إن المفاسد التي نعنيها هنا، ليست للتسلية، ولا للترفيه، ولا لينسى الناس همومهم.. بل لينسوا دينهم، وقيم شريعتهم.. ولينسوا تراثهم، وتاريخهم، وأمجادهم..

إن الإعلام لا يضحك الناس.. ولا يسعدهم.. بل إنه يضحك عليهم.. ويشقيهم.. ألا ترون أيها الناس! أن جميع المسرحيات والأفلام.. موضوعها واحد.. واحد.. ـ لا يتغير إلا بالاسم والعنوان؟ ـ هو: الحب.. وهل هناك أغنية.. أو فيلم عربي.. في غير الحب، وتهييج الشهوات.. وإثارة النفوس؟! فهل هذا: تسلية وترفيه؟!..

الباب الثامن

مضار الفواحش والفوضى الجنسية

في ختام هذا الكتاب نقول: إن إطلاق العنان للرغبات الجنسية في ممارسة شهواتها يؤول إلى أضرار تلحق الفرد والمجتمع. وتحدث الأضرار التي تلحق الفرد من استغراقه في الشهوات واستعبادها له بحيث تصبح شغله الشاغل وهمه المعقد المقيم، فتصبح بعد فترة جوعة دائمة لا تشبع ولا تستقر ومعنى ذلك أنه أضحى أسير هوى جنسي، والأهواء الجنسية أشد الأهواء خطراً وأقلها نفعاً باعتراف علماء النفس[1].

هذا وإن الفواحش لهي السبب الرئيسي للعدوى بالأمراض الزهرية تلك الأمراض التي تنتشر غالباً عن طريق المباشرة الجنسية غير المشروعة، وهي السيلان البني، أي التعقبية والداء الإفرنجي والقرحة اللينة، والداء اللنفاوي الحبيبي الزهري، أي داء نيكولا وفافر، والنمو البلغمي الالتهابي الجنسي، كما أن الفاحشة قد تكون سبباً بانتقال الالتهابات الأخرى من جهاز تناسلي إلى سبيل آخر. وأخطر الأمراض التي تتفشى عن طريق الفاحشة مرض الإيدز المميت!!..

وفي الإصابة بتلك الأمراض تعطيل عن العمل وصرف للأموال في التداوي، وفي ذلك خسارة للفرد والمجتمع. وإضافة إلى المضار السابقة العامة في أنواع الفواحش فإن اللواطة تزيد على الزنا بالمضار التالية:

---

(1) الطب النبوي والعلم الحديث، للدكتور محمود ناظم النسيمي ج2/ 123 ـ 125، ط. مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

1 ـ عدم ميل الفاعل المعتاد على اللِّواط إلى زوجته، وقد يقدم على طلاقها أو يحاول الشذوذ وإتيانها في الدبر عاصياً أمر الله ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 222] وغالباً ما تطلب زوجته التفريق بينهما. وإذا كان المعتاد على اللواط عازباً فقد لا يتزوج إلا خوفاً من كلام الناس.

2 ـ أما اللواط به فإنه يتعرض لتوسع الشرج وارتخاء المصرة الشرجية، وقد يصاب بسلس غائطي، أي بخروج البراز بشكل لا إرادي. وقد يصاب بالانعكاس النفسي فتشبه تصرفاته وحركاته ما هو خاص بالنساء.

وكما أن الهوى الجنسي وما يسببه من اندفاع نحو ارتكاب الفواحش، وكذلك الشذوذ الجنسي ضاران بصحة صاحبهما الجسمية والنفسية، فإنهما يلحقان الضرر بالمجتمع نتيجة إفسادهما بعض أفراد الأمة لإرواء النهم الجنسي والشذوذ الجنسي، فتشيع الفواحش تلك المعاول الهدامة للمجتمع.

أما الأضرار الأخرى التي تلحق المجتمع من جراء شيوع التعلق بلذة التمتع الجنسي وتيسر الوصول إليه فهي عزوف الشاب الفاسق والشابات الفاسقات عن الزواج الشرعي وتهربهم من مسؤولية بناء الأسرة لبنة المجتمع.

وهي أيضاً استنفاد الطاقة الحيوية التي خلقها الله تعالى لأهداف شتى في هدف واحد قريب، وإهمال الأهداف الأخرى الجديرة بالتحقيق فضلاً عن تحطيم كيان الأسرة، وفك روابط المجتمع وتحويله إلى جماعات متفرقة لا يجمعها رابط ولا هدف مشترك.

إن تدمير الأخلاق في العالم بإثارة الغريزة الجنسية هو هدف من أهداف الصهاينة. فلقد قالوا في بروتوكولات حكماء صهيون: «يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا... وقالوا: إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكيلا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همه الأكبر إرواء غرائزه، وعندئذ تنهار الأخلاق».

أفيجوز لعاقل بعد هذا البيان أن يتناسى مضار الفواحش والفوضى الجنسية، وهي مضار كثيرة الحدوث ملموسة الآثار تلحق الفرد والمجتمع، ثم يتستر بعد

هذا بمضار الكبت، وهذه لا تحدث إلا نادراً في الحالات الشديدة من الكبت وعند بعض ذوي النفوس الضعيفة فقط؟!

ولا يغيب عن أذهاننا ما جره الشذوذ الجنسي، والفوضى الجنسية على مجتمعات الغرب من أخطار المرض الفتاك القاتل الإيدز، وكفى بذلك عبرة[1]!!!.

---

(1) آداب الحياة الزوجية في ضوء الكتاب والسنة، للشيخ خالد عبد الرحمن العك، ص 445 ـ 447، بيروت، دار المعرفة.

الفهرس

مقدمة 7

القسم الأول:

الزواج وأحكامه

النظام الاجتماعي في الإسلام 9
التوافق في الحب والزواج 13
في الخطبة والزواج 17
الأحوال الشخصية 71

القسم الثاني:

العلاقة بين الزوجين الروحية والمادية

الباب الأول: في الحبّ والعشق 101
الباب الثاني: الاتصال الجنسي وأهميته في حياة الزوجين 125
الباب الثالث: كل ما تهمّ معرفته بشأن ليلة الزفاف 185
الباب الرابع: كل ما تهمّ معرفته بشأن شهر العسل 193
الباب الخامس: هدي النبي ﷺ في أصول الجماع 205
الباب السادس: كل ما تهمّ معرفته حول الحيض 229
الباب السابع: مفسدات العلاقة الزوجية 239
الباب الثامن: مضار الفواحش والفوضى الجنسية 253